مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد المزدوج ٩ – ١٠
رمضان ١٤٠٠ هـ – صفر ١٤٠١ هـ

السنة الثالثة
آب – كانون الاول ١٩٨٠ م.

المحتوى

الصفحة

١ ـ التنافس وأثره على النحو والنحاه
للدكتور محمود حسني محمود ٥

٢ ـ عقيدة الخيـــام
للاستاذ عبد الحق فاضـل ٢٨

٣ ـ المستعمرات الالمانية في فلسطين مابين عامي ١٨٦٨و١٩١٨
للدكتور علي المحافظه ٤٦

٤ ـ كتاب « نهاية السؤل والامنية » في تعليم أعمال الفروسية
للدكتور أحمد سعيدان ١٠٠

٥ ـ ازدواجية اللغة : نظرة في حاضـــر اللغة العربية وتطلع نحـــو مستقبلها ، في ضوء الدراسات اللغوية
للدكتور محمد راجي الزغول ٢١٩

٦ ـ وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الـسادسة والاربعين
للدكتور عدنان الخطيب ١٥٤

٧ ـ مع كتاب « الفرج بعد الشدة » للتنوخي
للدكتور ابراهيم السامرائي ١٩٤

تعليقات ومناقشات

١ ـ مناقشة رأي في علامة التأنيث
للاستاذ محمد شيت الحياوي ٢٢٢

٢ ـ حول كتاب مباديء التحليل الرياضي
للدكتور احمد سعيدان ٢٢٩

أخبار المجمعية

١ - الدورة الخامسة للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب ٢٣٦

٢ - استقبال زملاء ٢٣٩

٣ - اعادة انتخاب الدكتور حسني سبح
رئيساً لمجمع اللغة العربية ٢٤٠

٤ - الاستاذ عبد الكريم زهور ٢٤٠

٥ - تأبين البطريرك يعقوب الثالث ، وتنصيب البطريرك
الجديد اغناطيوس زكا الاول ٢٤١

٦ - كتب العلوم للسنة الجامعية الاولى ٢٤١

التنافس واثره على النحو والنحاة

للدكتور محمود حسني محمود

(الجامعة الاردنية)

أيّ علم من العلوم يكون في حاجة الى التنافس بين علمائه لكي يتطور وينمو نحو النضج والكمال . ولا اظن ان علما ما يمكن أن يسير سيرا حثيثا، وينمو نموّا متزايدا ، اذا لم تكن روح المنافسة بين علمائه متّقدة متوهجة، كلٌّ يزاحم الآخر على احتلال مكان بارز ،وكلٌّ ينافس الآخر ليثبت أنه أتى بما لم يستطع احد أن يأتي به ؛ ولكنّ الفرق يكون كبيرا وشاسعا بين منافسة ومنافسة : فالمنافسة الشريفة النابعة من الحرص والصدق لن تأتي الا بثمار يانعة طيبة الرائحة ، أما اذا تغلبت الأهواء وتصادمت المصالح فلن تاتي المنافسة الا بسلبيات كثيرة يكون لها ابعد الاثر واخطره .

وعلم النحو كان واحدا من تلك العلوم التي تطورت ونضجت سريعا ، وكانت ساحته مجال سباق ومنافسة ؛ بدأت هادئة هدوءا فيه الخير كله لعلم النحو ، ولكنها اضطرمت فجأة،فتصادمت العلماء تصادما خلّف نتائج عكسية،وترك ثغرات عديدة .

لم يكن علماء النحو في البداية ــ حين كانت مدرسة البصرة النحوية وحدها في الميدان ــ منشغلين بشيء ، غير تطوير النحو وتثبيت دعائمه ،

وفرض سيطرته على مجالات انشطته ، وبخاصة مجال الشعر حيث حدث تصادم بين النحاة والشعراء ، كذلك الذي كان بين ابي اسحاق ــ اكثر النحاة تشددا ــ وبين الفرزدق ــ اكثر الشعراء عنفا ــ حينما تتبّع الاول الثاني في شعره وخطّاه (١) في اكثر من موضع ، الامر الذي استفز الفرزدق وأضجره ، وجعله يقول لاحد النحاة بعد ان سأله عن غامض في شعره من ناحية الاعراب : (٢) « علي ان اقول وعليكم ان تحتجوا » .

وغاية تطوير النحو عند اوائل النحاة جعلتهم يتنافسون في هدوء وامانة واتزان ؛ فاذا ما احرز السبق احدهم ، اكبره الآخرون وقدروه حق قدره : أتى عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) الى ابي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وقال له (٣) : يا ابا عمرو ! ما شيء بلغني انك تجيزه ؟ قال : ما هو ؟ قال : بلغني انك تجيز : « ليس الطيّب الا المسك » بالرفع ، فقال له ابو عمرو : نِعْمَ يا ابا عمر (كنية عيسى بن عمر) وأدلج النـــاس ؛ ليس في الارض حجازي الا وهو ينصب ، ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . ثم ارسل ابو عمرو تلميذين يسألان اعرابا حجازيين واعرابا تميميين ، فنطق الاعراب بما قال ابو عمرو ، فلما سمع عيسى ما وصل اليه التلميذان من اقوال الاعراب أخرج خاتمه من يده ، ثم قال لابي عمرو (٤) : « لك الخاتم ؛ بهذا والله فقت الناس » . فلم تكن نتيجة هذه المناظرة الا اكبارا من عيسى لابي عمرو ، واجلالا .

---

(١) انظر : الشعر والشعراء ، ص ٣٣ (المقدمة) . وانظر : الموشح : ص ٩١، ٩٢.
وخزانة الادب : ج ١ / ٢٣٧ .

(٢) الشعر والشعراء : ص ٣٣ (المقدمة) .

(٣) مجالس العلماء : مجلس ١ . طبقات النحويين واللغويين : ص ٣٨ــ٣٩ .

(٤) مجالس العلماء : مجلس ١ . طبقات النحويين واللغويين : ص ٣٨ــ٣٩ .

ولم يكن النحاة آنذاك يفرقون في المعاملة بين نحوي أتى اليهم من البصرة أو نحوي أتى اليهم من الكوفة ليستفيد من علمهم ويستنير به . فلم يجد الكسائي القادم الى البصرة من بغداد ، لدراسة النحو فيها ، أي عنت أو مجافاة ؛ درس النحو على الخليل (٥) بن أحمد ، ثم درس على يونس ابن حبيب الذي شجعه واثنى (٦) عليه،ثم (٧) «صدره في موضعه»،وقد قال له مرة بعد اجابة من اجاباته (٨) : « اشهد ان الذين راسوك راسوك باستحقاق » . ولم يك عند يونس أو الخليل تلك الروح التنافسية التي توغلت في نفوس النحاة فيما بعد ؛ اذ لم يك في نفسيهما غير ارادة الافادة، وغير رغبة التطوير في علم النحو ونشره ؛ وهذا ما جعل الكسائي لا يحمل لهما في نفسه شيئا غير التقدير والاحترام ، فاثنى على الخليل ثناء عطرا امام الفراء حين سأله عنه ، قال (٩) : « مات والله الفهم يوم مات الخليل، لو رأيته لم يعظم في عينك بشر بعده »،ثم قال : « والله ما تمثلت في صدري جلالة ادب من وجه ولا علم الا وجدت ذلك فرعا من أصل اغترسه،أو سببا من باب افتتحه ، وما رأيت أحدا اعترضه باب من علم فأخال به ثقة يعتمد عليه ، أو مثال حسن يستمد منه ، الا والخليل صاحب قصته » .

وليت هذه الروح — روح التنافس النظيف ، والتقدير المتبادل — بقيت منغرسة في نفوس النحاة وواصلت سيرها ؛ فالمتتبع للأمر ، المستقصي شعابه المتعددة ، يجد أن هذه الروح داخلها شيء من الغثاثة

---

(٥) نزهة الالباء : ص٥٩ . انباه الرواة : ج ٢ / ٢٥٨ .

(٦)انظر : مجالس العلماء : مجلس ١٠ ، مجلس ١١٤ ، وانظر : انباه الرواة ج ٢/٢٦٥.

(٧) نزهة الالباء : ص ٥٩ .

(٨) انباه الرواة : ج ٢ / ٢٦٥ .

(٩) مجالس العلماء : مجلس ٢٢ ، ص ٢٥٨ .

وشيء من مخلفات التعلق بمغريات الحياة على حساب النحو وحقائقه ، فانعطف مسار النحو في بعض محطاته ، وانحنى انحناءات هنا وهناك ، جعلته يسير في اتجاه غير سليم تماما ، وسجلت على دربه نتوءات بارزة ، وسلبيات كثيرة .

عاد الكسائي الى بغداد — مثقلا بما حمله في جعبته من علم نحاة البصرة ، ومما جمعه من لغة البادية — وبدأ يعلو ذكره ، وبدأت شهرته تتزايد ، فقد واتاه الحظ حينما دعاه (١٠) المهدي ليسأله عن فعل الامر من « السواك » ؛ فأعجب المهدي باجابته والحقه ليؤدب ابنه الرشيد . ثم صار (١١) مؤدبا فيما بعد للأمين بن الرشيد . وكان نجاح الكسائي في هذا المجال نجاحا له وللكوفيين جميعا ؛ فقد خلفه (١٢) الاحمر الكوفي على تأديب الأمين . وصار ابن (١٣) قادم الكوفي مؤدبا للمعتز قبل ان يصير خليفة . وصار (١٤) ثعلب مؤدبا لطاهر بن محمد ، ولعبد (١٥) الله بن المعتز . وهذا دليل على أن الكوفيين كانوا مقربين عند الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة في بغداد ، يؤدبون أولادهم ويعلمونهم النحو على طريقة المذهب الكوفي . فحققوا من وراء ذلك مركزا اجتماعيا بارزا ، وثراء طائلا . فكان الكسائي عند الرشيد في مكانة لا تقل عن مكانة ابي يوسف القاضي ، وقد استثارت هذه المكانة ابا يوسف الذي كان يقول عن

---

(١٠) نزهة الالباء : ص ٦١ .

(١١) المصدر نفسه : ص ٦١ .

(١٢) المصدر نفسه : ص ٩٠ .

(١٣) انباه الرواة : ج ٢ / ١٥٨ .

(١٤) المصدر نفسه ج ١ / ١٤٧ .

(١٥) ضحى الاسلام ج ٢ / ٢٩٨ .

الكسائي (١٦) : « اي شيء يحسن ؟ انما يحسن شيئا من كلام العرب ». وكان قال للرشيد عنه (١٧) : « هذا الكوفي قد استفرغك ، وغلب عليك» فقال له : « يا أبا يوسف ، انه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي » . وكان الأحمر ثريًّا لكثرة المكافآت التي كانت تنهال عليه ؛ فقد روي عنه أنه قال : « قعدت مع الأمين ساعة من نهار فوصل الي فيها ثلاثمائة الف درهم ، فانصرفت وقد استغنيت » . ولم يكن ثعلب بأقل من الأحمر في الثراء ، فقد خلف بعد موته : (١٨) « احدا وعشرين الف درهم ، والفي دينار ، ودكاكين بباب الشام قيمتها يومئذ ثلاثة آلاف دينار ».وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد أجرى (١٩) عليه في كل شهر الف درهم ، وعلى خليفته خمسمائة درهم ، وعلى ختنه ثلاثمائة درهم .

هذا الجاه العريض ، وهذا الثراء الواسع الذي حققه الكوفيون ، دفع البصريين الى أن ترنو أبصارهم نحو بغداد ، فبدأوا يتعاقبون تباعا . فأحس الكوفيون بأن ما حقّقوه معرّض للانذثار،وسيندثر فعلا اذا لم يكونوا اكفياء في الحفاظ عليه ، وراوا ان الامر يتعلق بحياة ومستقبل ، وان فشل احد الكوفيين سيكون فشلا للمدرسة الكوفية نفسها ، وان انتصار احد البصريين سيكون انتصارا للمدرسة البصرية نفسها ؛ فلا بد ان يتاهبوا ، ويكونوا صلابا اقوياء في المجابهة ، ولا بد أن يتخذوا كل وسيلة ويلجأوا الى كل حيلة لردّ البصريين واعادتهم من حيث أتوا ، ومن هذا المنطلق ، ومن هذا المناخ النفسي بدأ التنافس عنيفا ؛ ولكنه بدأ اعنف واشد حين كان

---

(١٦) نزهة الالباء : ص ٦٢ .

(١٧) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٣٨ .

(١٨) انباه الرواة : ج ١ / ١٤٨ .

(١٩) المصدر نفسه ج ١ / ١٤٩ .

يتجلى في قصر خليفة،او بين يدي أمير او وزير ؛ فقد اشعل هؤلاء نـــار التنافس بين النحاة ، وزادوها اضطراما ؛ فكانوا يعقدون المناظرات بينهم ، ولا يترددون في دعوة نحوي بصري الى بغداد من أجل مناظرة نحوي كوفي ، او من أجل البتّ في مسألة نحوية دار الخلاف عليها .

ولعل أبرز هذه المناظرات تلك التي دارت بين سيبويه والكوفيين، وعلى رأسهم الكسائي ، والتي استوقفت نحاة قدماء (٢٠) ومحدثين (٢١) ادلوا بآرائهم فيها ، وقد حقق البصريون في هذه المناظرات تفوقا واضحا ، وصاروا يؤدبون في القصور كما كان الكوفيون يؤدبون ، وصاروا يُستَدعَون من البصرة للبتّ في مسألة استعصت على الحل ؛ فهذا اليزيدي (٢٢) يؤدب المأمون بن الرشيد كما كان الكسائي يؤدب اخاه الأمين ، وهذا قطرب (٢٣)، تلميذ سيبويه،يعلم ولد ابي دلف القاسم بن عيسى العجلي صاحب الكرخ، ثم يؤدبهم ابنه الحسن بن قطرب فيما بعد ؛ ثم هذا المازني يدعـــــوه الواثق (٢٤) لبيان اعراب بيت من الشعر من البصرة الى بغداد ، ثم يجالس

---

(٢٠) انظر : أمالي ابن الشجري : ج ١ / ٢٢٩ ــ ٢٣٠ . ومغني اللبيب : ص ١٢٠ــ١٢٦.

(٢١) انظر : سيبويه امام النحاة : ص ١٠٣ ــ ١١٣ . نشأة النحو : ص ٣٧ــ٤٠ . القواعد النحوية : ص ٩٥ ــ ٩٧ . في اصول النحو ص ١٨٠ــ١٨٢ . من تاريخ النحو: ص ٤٩ــ٥٠ ، المدرسة البغدادية في تاريخ النحو : ص ٦١ــ٦٥ .

(٢٢) كان اليزيدي والكسائي يتقارضان لتاديبهما ابني الرشيد (انظر : اخبار النحويين البصريين ص ٤٠) اذ كان اليزيدي يؤدب المأمون ، والكسائي الامين ، وكان الاثنان يجلسان في ايام الرشيد ببغداد معا في مسجد واحد يقرئان القرآن (انظر : تاريخ بغداد ج ١٤/١٤٧) .

(٢٣) انباه الرواة : ج ٣/٢٢٠ .

(٢٤) انباه الرواة : ج ١ / ٢٤٩ .

المتوكل (٢٥) فيما بعد .

وقد اساء التنافسُ في المناظرات الى العلاقات بين نحاة المدرستين، ودفع نحاة المدرسة الواحدة الى الطعن على نحاة المدرسة الاخـــرى ، ومحاولة الانتقاص من علمهم ومكانتهم في قسوة وتَجَنٍّ شديدين ، وأدى بهم الى تبادل التهم . وكان البصريون في هذا المجال أقسى واشد ؛ فمن جانبهم كان أبو حاتم يقول : (٢٦)« لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ؛ ولولا ان الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئا ، وعِلمُه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات عن الأعراب مطروحة » . وكان ابو زيد يقول : (٢٧) « قدم الكسائي البصرة،فأخذ عن ابي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علما كثيرا صحيحا ، ثم خرج الى بغداد ، فقُدِم اعراب الحطمة ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا ، فخلط هذا بـــذاك فأفسده » . وكان المبرد يقول (٢٨) : « ما عرف الرؤاسي بالبصرة ؛ وقد زعم بعض الناس انه صنّف كتابا في النحو ، فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا،فما التفت اليه ، ولم يجسر على سماعهم لما سمع كلامهم » . أما من جانب الكوفيـــين فكان ابو موسى الحامض يقول للزجاج (٢٩) : « صاحبكم الأكبر ـــ يعني سيبويه ـــ كان اغلف اللسان عييّا عن البيان » . وكان ثعلب يؤازره في قوله ، فيقول الزجاج ردا عليهما : « أما نحن فلا نذكر « حدود » الفراء ،

---

(٢٥) انباه الرواة ج ١ / ٢٥٠ .

(٢٦) مراتب النحويين : ص ٧٤ .

(٢٧) اخبار النحويين البصريين : ص ٥٦ .

(٢٨) انباه الرواة : ج ٤ / ١٠٢ .

(٢٩) المصدر نفسه : ج ٣ / ١٤١ .

لأن خطأه فيها أكثر من أن يُعَد » . وقد عمل الزجاج على رد (٣٠) الكثير من الفاظ « الفصيح » لثعلب ، ولهجت بها الألسن الـــى أن سئم ثعلـــب « الفصيح » وأنكر أن يكون له .

ولم تكن التهم متبادلة بين نحاة المدرستين فحسب ، وانما تفشـــت العدوى لاتساع نطاق التنافس،فَسَرَت بين نحاة المدرسة الواحدة ؛ فكان الأحمر يزعم (٣١) أن الكسائي لم يكن يبصر التصريف،ويزعم أنه علمه . مع أن الأحمر هذا لم يقبل (٣٢) عرض الكسائي عليه تأديب الأمين بـــن الرشيد الا بعد أن وعده بأنه يلقنه كل يوم مسألتين في النحو،وثنتين في معاني الشعر قبل أن يأتيه . وكان الفراء يقول (٣٣) : « مات الكسائي وهو لا يحسن حد « نِعْم » و « بِئْس » و « أن » المفتوحة ، ولم يكن الخليل يحسن « النداء »،ولا سيبويه يدري حد « التعجب » » . مع أن الفراء هذا كان يثني على الكسائي ويقول (٣٤) : « مدحني رجل من النحويين فقال لي : ما اختلافك الى الكسائي وأنت مثله في النحو ؟ فأعجبتني نفسي ، فأتيته ، فناظرته مناظرة الأكفاء ، فكأني كنت طائرا يغرف من البحر بمنقاره » . ولعل مَرَدّ طعن الفراء يعود الى أن الكسائي كان يرى فيه منافسا (٣٥) على زعامة المدرسة الكوفية،ولذلك فان الكسائي خلّف بعده الاحمر الكوفي على تأديب ابن الرشيد،ولم يخلّف الفراء،مما أدى الى فارق كبير في نمط

---

(٣٠) انباه الرواة ج ٣ / ١٤٢ .

(٣١) مجالس العلماء : مجلس ١٧١/٧٩ .

(٣٢) معجم الادباء : ج ٦/١٣ .

(٣٣) بغية الوعاة : ج ١٦٣/٢ .

(٣٤) معجم الادباء : ج ١٩٢/١٣ .

(٣٥) المصدر نفسه : ج ٦/١٣ .

الحياة بين الاثنين، فبينما كان التلاميذ يأتون الأحمر ليلقاهم بوجه منطلق وبشر حسن، كانوا يأتون الفراء ليخرج (٣٦) اليهم معبسا قد اشتمل بكسائه ، وليجلس لهم على باب بيته، ويجلسون هم في التراب بين يديه .

وعلى غرار ما كان بين الفراء والكسائي ، وبين الكسائي والأحمر، كان الأمر بين البصريين ؛ فكان أبو حاتم يقول في استاذه الأخفش الاوسط، سعيد بن مسعدة (٣٧) : « لم يكن بالحاذق في النحو » ، مع أن الأخفش عرف انه الطريق الى كتاب سيبويه ، وكان الجاحظ يعترف بفضله وعلمه ويقول له (٣٨) : « انت أعلم الناس في النحو » . وكان ابن جنى يدافع عنه ويرى أن الذين يطعنون عليه انما هم (٣٩) : « أقوام نزرت من معرفة حقائق هذا العلم حظوظهم، وتأخرت عن ادراكه أقدامهم » . حتى الفراء الذي عرف بالغرور ، والاعتداد بالنفس ، كان يعترف بفضل الأخفش ؛ فقد روى أنه دخل على سعيد بن سلمة فقال سعيد (٤٠) : « قد جاءكم سيد اهل اللغة وسيد أهل العربية »، فقال الفراء : « أما ما دام الأخفش يعيش فلا » . وكان أبو هلال العسكري يقول في الأخفش (٤١) : « وله نحو كثير، ليس كثير من النحويين من ينظر في النحو ، يدرس كثرة علمه » .

وقد أدى التنافس أيضا الى انطواء كل مدرسة نحوية على نفسها، وانزوائها عن الأخرى ، وبالتالي عدم اطلاع نحاة المدرسة الواحدة على

---

(٣٦) معجم الادباء : ج ١٣ / ٩ .

(٣٧) نزهة الالباء : ص ١٤٦ .

(٣٨) الحيوان : ج ١/٩١ .

(٣٩) الخصائص : ج ١/٢ .

(٤٠) وفيات الاعيان : ج ٢/١٢٢ . مرآة الجنان ج ٢/٦١ .

(٤١) المصون : ص ١١٩ .

آراء نحاة المدرسة الاخرى الاّ خفية او لمارب في النفس . غير ان المدرسة البصرية كانت في هذا المجال ــ ايضا ــ اكثر تحفظا ، واكثر تشددا في نظرتها الى مدرسة الكوفة ؛ فلم يأخذ أحد من علمائها عن أحد من علماء الكوفة الا (٤٢) أبا زيد فانه روى عن المفضل الضبي ، وقد بلغ التشدد بالبصريين الى درجة انهم نفوا (٤٣) أن يكون الفراء قد استكثر في دراسته على يونس بن حبيب البصري . أما من ناحية مدرسة الكوفة،فمع أن الكسائي درس على الخليل ويونس بن حبيب ــ وهذان يخرجان من دائرة التنافس،لأنهما سبقا مرحلة الصدام بين المدرستين ــ الا انه حين أراد أن يدرس كتاب سيبويه ــ وسيبويه يأتي في لبّ الصدام ــ قراه (٤٤) على الأخفش الأوسط سرا ، ووهبه (٤٥) سبعين دينارا . لقد كان الكسائي يخشى فعلا أن يعلم البصريون قراءته هذه فيعيروا الكوفيين بذلك . وكان يخشى أن يعلم الأمراء والوزراء الذين كان يفاخر امامهم ويعتدّ ، والذين حكموا له بالغلبة على سيبويه في المناظرة المشهورة بينهما . ومثل الكسائي كان الفراء أيضا ؛ فقد عرف عنه انه كان يقرأ كتاب سيبويه سرا ، ويضعه (٤٦) تحت وسادته ؛ مع أنه كان (٤٧) « زائد العصبية على سيبويه »،فكان الجاحظ يقول (٤٨) : « ان الفراء لم ينتفع بالنظر في هذا الكتاب كبير نفع لأنه لم ينظر فيه نظر ناصح لنفسه ، ولا شاكر لمن وصل

---

(٤٢) اخبار النحويين البصريين : ص ٥٧ .

(٤٣) مراتب النحويين : ص ٨٦ .

(٤٤) معجم الادباء : ج ١١/٢٢٩ .

(٤٥) المصدر نفسه : ج ١١/٢٢٤ .

(٤٦) انباه الرواة : ج ٤/٨ .

(٤٧) بغية الوعاة ج ٢ / ٣٢٣ .

(٤٨) انباه الرواة ج ٤/٩ .

اليه العلم من جهته ولا معترف بالحق فيه » . أما ثعلب الكوفي فانه جنب نفسه التهم في هذا الأمر، فلم يطلع على مذهب البصريين ، وانما حصر نفسه في المذهب الكوفي، فدرس كتب الكسائي والفراء ، وكان يعود الى اقوالهما في مناظراته مع البصريين ويلجأ اليها (٤٩)، « فاذا سئل عن الحجة والحقيقة . . لم يفرق في النظر »، ولم يك ثعلب مكتفيا بتطبيق ذلك على نفسه، وانما كان يحاول أن يطبقه على تلاميذه ؛ فكان يعاتب ختنه أبا علي الدينوري لأنه كان يتركه ليقرأ كتاب سيبويه على المبرد ، ويقول له (٥٠) : « اذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا ؟ » .

وكان النحوي يشعر بالحرج الشديد والخجل من نفسه اذا ما غلبه نحوي آخر في مناظرة بين يدي خليفة أو وزير : فهذا ابن السكيت يلوم المازني لانتصاره عليه في مناظرة بين يدي الخليفة الواثق، ويقول له (٥١) : « ما حملك على هذا وبيني وبينك من المودة الخالصة ؟ » فيقول المازني : « والله ما قصدي تخطئتك، ولم أظن أنه يعزب عنك ذلك » . وكان النحوي يتعصب لنحوي آخر من مدرسته، ويثور اذا ما غلبه نحوي آخر من المدرسة الأخرى : فهذا ابن قادم يقول (٥٢) : « قدم أبو عمر الجرمي على الحسن ابن سهل ، فقال لي الفراء : بلغني أن أبا عمر الجرمي قدم ، وأنا أحب أن القاه . فقلت له : فاني أجمع بينكما . فأتيت أبا عمر فأخبرته ، فأجاب الى ذلك . وجمعت بينهما . فلما نظرت الى الجرمي قد غلب الفراء وأفحمه، ندمت على ذلك . فقال ثعلب لابن قادم ولم ندمت ؟ قال : لأن علمي علم

---

(٤٩) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٥٥ .

(٥٠) المصدر نفسه ص ١٥٦ .

(٥١) طبقات النحويين واللغويين : ص ٩٤ .

(٥٢) انباه الرواة : ج ٢/٨١ .

الفراء ، فلما رايته مقهورا قَلَّ في عيني ، ونقص علمه عندي .

وكان التنافس يدفع النحوي في بعض الاحيان الى التحايـــل على الإعراب والافصاح براي غير الذي يقتنع به ، ولا بأس ان يصوب رايـا خاطئا من اجل ارضاء خليفة او امير ، او وزير او قائد اجتهد رايا فـــي مسالة نحوية ، فقد استقدم (٥٣) الخليفة المتوكل المبرد من البصرة ليعرف رايه في همزة ان في قوله تعالى (٥٤) : (وما يشعركم انها اذا جاءت) هل هي مكسورة او مفتوحة ؛ وكان المتوكل قراها بالفتح ، ووزيره الفتح بـن خاقان قراها بالكسر ، فحدث خلاف بينهما على ذلك . قال المبرد يروي بنفسه : فوردت سُرَّ من راى ، فأُدخِلْت على الفتح بن خاقان . فقال : يا بصري ، كيف تقرأ هذا الحرف ، (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) « انها » بالكسر أو بالفتح ، قل بالكسر او بالفتح ؟ فقلت : بالكسر ، هـذا المختار وذلك ان اول الآية : « واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهـــم آية ليؤمنون بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم) ثم قال : يا محمد (انها اذا جاءت لا يؤمنون) باستيفاء جواب الكلام المتقدم . قال : صدقت. وركب الى دار امير المؤمنين فعرَّفه بقدومي ، وطالبه بدفع ما تعاقدا عليه وتبايعا فيه . فأمر باحضاري . فلما وقعت عين المتوكل علي قال : يـــا بصري كيف تقرأ هذه الآية : (وما يشعركم انها اذا جاءت) بالكسر ، او بالفتح ؟ فقلت : يا امير المؤمنين ، اكثر الناس يقراونها بالفتح ، فضحك ، وضرب برجله اليسرى . وقال : احضر يا فتح المال . فقال : والله يا سيدي انه قال لي خلاف ما قال لك:فقال: دعني من هذا ، احضر المال. واخرجت. فلم أصل الى الموضع الذي كنت انزلته حتى اتتني رسل الفتح ، فاتيته ،

---

(٥٣) طبقات النحاة واللغويين : ص ٢٨٢ .

(٥٤) سورة الانعام : آية ١٠٩ .

فقال لي : يا بصري اول ما ابتدأتنا به الكذب ، فقلت : ما كذبت . فقال : كيف وقد قلت لامير المؤمنين الصواب (وما يشعركم أنها اذا جاءت) بالفتح. فقلت : ايها الوزير ! لم اقل هكذا ، انما قلت : اكثر الناس يقراونها بالفتح، واكثرهم على الخطأ ، وانما تخلصت من اللائمة ، وهو امير المؤمنين . فقال لي : احسنت .

وما سَلَكَه المبرد سَلَكه يعقوب بن السكيت ، وبأسلوب فيه الكذب على النحو واضح ، والتلفيق بيّن ؛ وذلك حينما استدعي (٥٥) للفصل بين قولي محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير المعتصم ، واحمد بن ابي دؤاد في توجيه اعراب (رجل) في قول الشاعر :

أُظليم ان مصابكم رجلاً اهدى السلام تحيةً ظُلمُ

وكان محمد قال بالنصب، واحمد بالرفع ؛ فحكم يعقوب لاحمد . قال ثعلب : لقيت يعقوب فعاتبته في هذا عتابا ممضا ، فقال لي : اسمع عذري: جاءني رسول ابن ابي دؤاد فمضيت اليه ، فلما رآني بشَّ بي وقرّبني ورفعني ، واخفى في المسالة عن اخباري ، ثم قال لي : يا ابا يوسف ، مالي ارى الكسوة ناقصة ؟ يا غلام،دستا كاملا من كسوتي ، قال : فأُحضِر . ثم قال : كيس فيه مائتا دينار . فأُحضِر ؛ ثم قال لي : اراكب انت ؟ قلت : لا بل راجل ؛ فقال : حماري الفلاني بسرجه ولجامه ، فأُحضِر ، قال : يُسلَّم الجميع الى غلام ابي يوسف ؛ فشكرت له ذلك ، ثم قال لي : يا ابا يوسف ، أنشدت هذا البيت :

اظليم ان مصابكم رجل

فقال الوزير : انما هو « رجلا » بالنصب ، وقد تراضينا . فقلت :

---

(٥٥) مراتب النحويين : ص ٧٩ ــ ٨٠ .

القول ما قلت . فخرجت من عنده ، فاذا رسول محمد بن عبد الملك ، فقال: أجب الوزير ، فلما دخلت بدرني وأنا واقف ، فقال : يا يعقوب ، أليس الرواية :

أظليم ان مصابكـــم رجـــلا

فقلت : لا بل « رجل » . فقال : اغرب . قال يعقوب : فكيف كنت ترى لي أن اقول ؟!

وبهذا الأسلوب ــ أسلوب ابن السكيت ــ عالج (٥٦) ابن قـــادم الكوفي ، استاذ ثعلب ، مسألة نحوية عرضت لميمون بن ابرهيم ، كاتـــب اسحاق المصعبي . قال ابن قادم : وجه الي اسحٰق يوما فأحضرني ، فلم ادر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن ابرهيم،كاتبه على الرسائل،وهو على غاية الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي : انـــه اسحاق ؛ ومُرَّ غير متلبث ولا متوقف حتى رجع الى مجلس اسحٰق. فراعني ذلك ، فلما مثلت بين يديه ، قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مال » او « وهذا المال مالا » ؟ فعلمت ما أراد ميمون فقلت له : الوجه « وهذا المال مال ». ويجوز « وهذا المال مالا » فأقبل اسحق على ميمون بغلظة وفظاظة، ثم قال : الزم الوجه في كتبك ، ودعنا من يجوز ويجوز ، ورمى بكتاب كان في يده . فسألت عن الخبر فاذا ميمون قد كتب الى المأمون وهو ببلاد الروم عن اسحاق ؛ وذكر مالا حمله اليه ، فكتب « وهذا المال مالا ».فخط المأمون على الموضع من الكتاب ، ووقع بخطه في حاشيته « تخاطبني بلحن »؟ فقامت القيامة على اسحق ، فكان ميمون بعد ذلك يقول : ما أدري كيف أشكر ابن قادم ، أبقى علي روحي ونعمتي قال ثعلب : « وهذا المال مالا » ليس بشيء ، ولكن أحسن ابن قادم في التأتي لخلاص ميمون

---

(٥٦) انباه الرواة ج ٣/١٥٧ ــ ١٥٨ .

ولم يكن النحوي يتورع عن التلفظ احيانا بأي جواب يرد على لسانه اذا لم يحضر ذهنه الجواب الصحيح ، وعن أن يلفّق شعرا يؤيد جوابه ، وذلك من اجل ان يبقى محافظا على سمعته ، وحتى لا تتزعزع الثقة به ؛ فقد ورد (٥٧) المبرد النحوي الدينوري زائرا عيسى بن ماهان ؛ وأول ما دخل ، قال له : أيها الشيخ ، ما الشاة المجثَّمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اكل لحمها ؟ فقال : هي الشاة القليلة اللبن مثل اللجْبَة فقال : هل من شاهد ؟ فقال : نعم ، قول الراجز :

لم يبق من آل الجعيد نَسَمَهْ الا عُنَيزٌ لُجْبَةٌ مجثَّمَهْ

واذا بالحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدينوري ، فأذن له ؛ فلما دخل قال له عيسى : ما الشاة المجثَّمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اكلها ؟ فقال : هي التي جثمت على ركباتها ، ونحرت من قفاها فقال عيسى : كيف تقول ، وهذا شيخ العراق ــ يعني أبا العباس المبرد ــ يقول : هي مثل اللجْبَة ، وهي القليلة اللبن ؛ وانشد البيتين . فقال أبو حنيفة : ايمان البيعة تلزم أبا حنيفة ان كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير ، وان كان البيتان الا لساعتهما هذه . فقال ابو العباس المبرد : صدق الشيخ ابو حنيفة ، أُنِفْتُ أن ارد عليك من العراق ، وذكري ما قد شاع ، فسأول ما تسألني عنه لا أعرفه .

وقد وجد تنافس النحاة في العلة ميدانا خصبا تجلى فيه وبرز ، فتنافسوا فيها ، وتوغلوا في شعابها ، ولم يتركوا شيئا في النحو يمكن أن يعلَّل الا اوجدوا له علة مهما كانت واهية مهلهلة ، فعللوا ثقل (٥٨) الفعل

---

(٥٧) انباه الرواة ج ١ / ٤٣ .

(٥٨) الايضاح : ص ١٠٠ .

وخفة الاسم ، وامتناع (٥٩) الاسماء من الجزم ، والأفعال (٦٠) من الخفض . وعللوا سكون (٦١) لام التعريف ، وعدم (٦٢) اجتماع ال التعريف مع التنوين ، وعدم الجمع ، وعدم ال التعريف والاضافة . وعللوا بناء (٦٤) الفعل الماضي على الفتح ، وبناء (٦٥) فعل الأمر على السكون . ومن هذه العلل الواهية ما ذهب اليه ثعلب حين سأله شيخ : لم أجاز الفراء قولهم « قائمين كان الزيدون » ولم يجز « قائما ضربت زيدا ؟ » أي لم أجاز تقديم خبر كان عليها ولم يجز تقديم الحال على العامل فيها ؛ فقال له (٦٦) : « انما جاز « قائمين كان الزيدون » لأن قائمين خبر لكان ، ولم يجز « قائما ضربت زيدا » لان «قائما» ليس خبرا « لضربت » » . وهذا تعليل ينطلق من غير أساس صحيح ، ولا يخاطب الذهن الصافي ؛ وكان المفروض فيه أن يعلل تعليلا منطلقا من واقع الجملة موطن التعليل،لا من واقع جملة اخرى لا علاقة لها بها ؛ فالفعل الأول فعل ناقص دخل على مبتدا وخبر فقدم الخبر ، بينما الفعل الثاني فعل تام دخل على اسم ذات،وعلى وصف فقدم الوصف،وتعليله كان منطلقا من أن الجملة الثانية ليست كالجملة الأولى،فامتنع التقديم فيها فاتخذ من الخلاف

---

(٥٩) الايضاح : ص ١٠٢ .

(٦٠) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

(٦١) اللامات : ص ١٩ .

(٦٢) المصدر نفسه : ص ٣٠ .

(٦٣) المصدر نفسه : ص ٧١ .

(٦٤) اسرار العربية : ص ٢١٥ .

(٦٥) المصدر نفسه : ص ٢١٧ .

(٦٦) انباه الرواة ج ٢ / ٥٧ وانظر علة تقديم الحال : الانصاف ج ١/٢٥٠ مسألة ٢١ .

بينهما أساسا لصلة جواز التقديم ومنعه . وهذا منطلق غير صحيح . ومن هذه العلل ما دهب (٦٧) اليه البصريون ردا على الكوفيين من أن فعل التعجب «أفعل»،وان كان لا يتصرف الا انه فعل ، وعلّتهم انهم اجمعوا على أن عسى وليس فعلان مع أنهما لا يتصرفان ، وعلة البصريين واهية،اذ اتخذوا من اجماعهم على مسألة مقياسا لمسائل أخرى وحجة لهم في ما يذهبون اليه ؛ والاجماع ليس حجة أبدا وليس دليلاً على صواب النحاة (٦٨) لأن كل واحد منهم ، كما قال ابن جني : « انما يردك ويرجع بك فيه الى التأمل والطبع لا الى التبعية والشرع » . ومن عللهم ان فعل الأمر بني على الوقف ، لأن (٦٩) الأصل في الافعال البناء،والاصل في البناء ان يكون على الوقف،فبني فعل الأمر على الوقف لأن الوقف أصل . وهذه العلة،ان كان منطلقها سليما،فلم لم يُبْنَ الفعل الماضي على الوقف وبني على الفتح ، مع أن البناء أصل فيه وهو مبني دائما في شتى الأحوال ، وهو مبني أيضا باتفاق (٧٠) جميع النحاة البصريين والكوفيين ، بينما فعل الأمر مختلف فيه بين النحاة ؛ فبينما قال البصريون ببنائه ، قال الكوفيون باعرابه .

لقد ابتعد النحاة بتماديهم في مجال العلل عن جوهر النحو ، وأوغلوا بهذا الأسلوب في التمحل والتكلف ، مما جعل القدامى يرون أن هذه العلل انما أتي بها للاحتيال والتمويه . فقد قال ابن قتيبة في توجيه النحاة « لمجلّف » في قول الشاعر :

---

(٦٧) اسرار العربية : ص ١١٥ .

(٦٨) الخصائص : ج ٢ / ٢٢٦ .

(٦٩) اسرار العربية : ص ٢١٧ .

(٧٠) انظر : شرح ابن عقيل : ج ١ / ٢٤—٢٥ ، حاشية الصبان ج ١ / ٩٨ ، همع الهوامع ج ١/ ٤٦ .

وعضّ زمانٍ يا بن مروان لم يدع من المال الا مسحتًا او مجلّفُ

قال (٧١) : « فرفع آخر البيت ضرورة ، واتعب اهل الاعراب في طلب العلة ، فقالوا واكثروا ، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي ؛ ومن ذا يخفى عليه من اهل النظر ان كل ما اتوا به من العلل احتيال وتمويه . وليت النحاة سلكوا مسلك يونس حين سئل (٧٢) : لم صارت « حتى » تنصب الأفعال المستقبلة ؟ فقال هكذا خلقت . ومسلك الكسائي حين سئل (٧٣) : لم لا يقال : ايّهم ، فيّ : لاضربن ايُّهم يقوم . فقال : « اي » هكذا خلقت .

ومع أن المدرستين،البصرية والكوفية،انتهتا تقريبا بانتهاء المبرد وثعلب ، الا أن التنافس بين النحاة استمر بعدهما،ولكنه عاد تنافسا فرديا، فيه شيء من الحسد وحب الدنيا ، بعد أن كان زمن المدرستين تنافسا فرديا ومذهبيا معا . وابرز هذا التنافس ذلك الذي كان بين الفارسي والرماني والسيرافي والزجاجي ؛ فقد اتهم الفارسي هؤلاء جميعا تهما مختلفة ، منها اتهامه (٧٤) الرماني بأنه لا يحمل شيئا من النحو وقد علل الأستاذ سعيد الأفغاني تعرض الفارسي للسيرافي والرماني بقوله (٧٥) : « والفارسي ... متهم على الرماني كما هو متهم على السيرافي ، لأن الثلاثة اشرقوا في عصر واحد ، وكان للأخيرين من التوفير في اعين الناس ما ليس للأول . ولأمر ما اولع الفارسي بأن ينص على تلمذة الرماني له حينا » . والمنافسة النابعة من الحسد صرح بها الزجاجي وتخوف منها في تقديمه كتابه « الايضاح » ، فهو يتوقع أن الخصوم سيعترضون عليه ويغالطونه بعد

---

(٧١) الشعر والشعراء : ص ٣٣ .

(٧٢) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٣٨ .

(٧٣) الخصائص ج ٣/٢٩٢ ، اوضح المسالك ج ١/١٠٩ .

(٧٤) معجم الادباء ج ١٤/٧٤ .

(٧٥) نكتة الاعراب : ص ١٣ (المقدمة) .

صدور الكتاب ، ويرى أن لن يُفْصل بينه وبينهم حينئذ الا مناظرة علنيـــة، يشترط أن تكون أمام علماء من ذوي الفهم الدقيق والنظر الصائب فيقول(٧٦): « ومن مالت به عنه عصبيته أو حميته فعنه يصرف حظه ، وعنا تسقـط كلفته ؛ ومن سمت به نفسه الى تتبع ما أودعناه اياه ، وسميناه فيه ، وفحصه والكشف عن حقائقه ، فحقيق عليه أن مر به أن يراجع فكره ويثير قريحته ويحرك خاطره ، ليقف على ما لعله قد انستر عنه ، ولا يحكم من أول وهلة بخروج عن الحق ؛ فان فعل ذلك وتدبره ، ولم يره ينقاد فـي طريقة القياس مستمرا ، أو راى أنه لا حق الا في غيره ، كانت حلبة التناظر ـــ باجتماع ذوي الفهم والنظر والفحص والجدال معنا فيها ـــ فاصلة بيننا وبينه ، حتى نصير معا بحق النظر الى الصواب » .

وعُرف التنافس زمن الفارسي أيضا ـــ في مصر بين ابي العباس بن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) وابي جعفر بن النحاس (ت ٣٠٧ هـ) ؛ فقد جمع (٧٧) بعض ملوك مصر بينهما ، وأمرهما بالمناظرة ، قال ابن النحاس لابـــن ولاد : كيف تبني مثل « افعلون » من رميت ؟ فقال : ارميت . فخطاه ابن النحاس وقال : ليس في كلام العرب « أفعلون » ولا « افعليت » . فقال ابن ولاد : انما سألتني أن أمثل لك بناء ففعلت .

وهذه المناظرة فيها مغالطة وتعمد التخطئة من ابن النحاس ؛ وقـد صوب (٧٨) الزبيدي اجابة ابن ولاد ، ودعم ما ذهب اليه بـــأن الاخفش الأوسط سعيد بن سعدة كان يبني من الأمثلة ما سئل أن يبني عليه ، وان لم يكن ذلك في كلام العرب .

---

(٧٦) ص ١١ـ١٢ (المقدمة) .

(٧٧) طبقات النحويين واللغويين : ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٧٨) المصدر نفسه : ص ٣٩ .

في نهاية هذا البحث أرجو أن يُفهم انني حاولت أن أجلو ما نتج عن التنافس من آثار سلبية على النحو ، واسجله . ولكنني أرجو أيضا الا يفهم من خلال هذا البحث أن النحاة انحرفوا تماما عن جادة الصواب ، وان مظاهر الحياة الخادعة قد اضلتهم الطريق كلها ــ وان كنت قد بينت انها اضلّتهم فعلا في أحوال عارضة ــ فقد عُرف عنهم العفة والنزاهة والأمانة في الحفاظ على علم النحو ، وعلى خط سيره الصحيح ، وكأن كل شيء،في احيان كثيرة، كان يتضاءل في قيمته ليرتفع شأن النحو عاليا ؛ فهذا المازني (٧٩) يقصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، ويعرض عليه مائة دينار مقابل تدريسه اياه ، فيرفض ؛ فيقول له المبرد : جعلت فداءك ، اترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة اضاقتك ؟! فيقول : ان هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية ، من كتاب الله عز وجل ، ولست ارى أن أمكّن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى ، وحمية له .

وهذا الكسائي يأتيه الفراء ، فيراه باكيا ، فيقول له (٨٠) : ما يبكيك ؟ فيقول : هذا الملك يحيى بن خالد ، يوجه الي فيحضرني ، فيسألني عن شيء ، فان أبطأت في الجواب لحقني منه عتب ، وان بادرت لم آمن الزلل ؛ فيقول له الفراء ممتحنا : يا أبا الحسن ، من يعترض عليك ؟ قل ما شئت ، فأنت الكسائي ، واذا بالكسائي يأخذ لسانه بيده ويقول : قطعه الله اذا ارأ قلت مالا اعلم !

وهذا المبرد يقول (٨١) : « الناس يلحقهم السهو والغلط ، فاذا غلطوا

---

(٧٩) درة الغواص : ج ١ / ٤٢ .

(٨٠) انباه الرواة : ج ٢ / ٢٦٦ .

(٨١) الايضاح : ص ٤٠ .

فرجعوا فكان لم يغلطوا ، واذا أقاموا على الغلط بعد أن يتبين لهم الصواب، كانوا جهالا كاذبين » .

ثبت مصادر البحث ومراجعه

الدكتور محمود حسني

١ ــ اخبار النحويين البصريين ــ السيرافي ــ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦ م .

٢ ــ اسرار العربية ــ ابن الانباري ــ مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧ م .

٣ ــ امالي ابن الشجري ــ حيدر آباد ــ الطبعة الاولى ، ١٣٤٩ هـ .

٤ ــ انباه الرواة ــ القفطي ــ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ــ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٥ ــ الانصاف ــ ابن الانباري ــ مطبعة السعادة ــ الطبعة الرابعة ١٩٦١ م .

٦ ــ أوضح المسالك ــ ابن هشام ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٦٦ م .

٧ ــ الايضاح ــ الزجاجي ــ تحقيق مازن مبارك ــ القاهرة ١٩٥٩ م .

٨ ــ بغية الوعاة ــ السيوطي ــ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى ١٩٦٤ م .

٩ ــ حاشية الصبان ــ دار احياء الكتب العربية .

١٠ ــ تاريخ بغداد ــ البغدادي ــ مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣١ م .

١١ ــ الحيوان ــ الجاحظ ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ مطبعة مصطفى الحلبي .

١٢ ــ خزانة الادب ــ البغدادي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ م .

١٣ ــ الخصائص ــ ابن جني ــ تحقيق محمد النجار ــ دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م .

١٤ ــ درة الغواص ــ الحريري ــ مطبعة الجوائب ــ القسطنطينية ، الطبعة الاولى ، ١٢٩٩ هـ .

١٥ ــ سيبويه امام النحاة ــ علي النجدي ناصف ــ مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهـــرة ١٩٥٣ م .

١٦ ــ شرح ابن عقيل ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ مطبعة السعادة ــ الطبعـة الثانية عشرة ، ١٩٦١ م .

١٧ ــ الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة ــ دار الثقافة ــ بيروت .

١٨ ــ ضحى الاسلام ــ احمد امين ــ مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة السادسة ، ١٩٦١ م.

١٩ ــ طبقات النحاة واللغويين ــ الاسدي ــ تحقيق الدكتور محمد غياض ــ مطبعةالنعمان ــ النجف ، ١٩٧٣ م .

٢٠ ــ طبقات النحويين واللغويين ــ الزبيدي ــ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ــ الطبعة الاولى ١٩٧٤ م .

٢١ ــ في اصول النحو ــ سعيد الافغاني ــ مطبعة جامعة دمشق ــ الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤ م

٢٢ ــ القرآن الكريم .

٢٣ ــ القواعد النحوية ــ عبد الحميد حسن ــ مطبعة العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٢٤ ــ اللامات ــ الزجاجي ــ تحقيق د. مازن مبارك . المطبعة الهاشمية ــ دمشق ، ١٩٦٩م.

٢٥ ــ مجالس العلماء ــ الزجاجي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ الكويت ، ١٩٦٢ م .

٢٦ ــ المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ــ د. محمود حسني محمود ، رسالـــة دكتوراة مخطوطة .

٢٧ ــ مرآة الجنان ــ اليافعي ــ مطبعة دار المعارف النظامية ، ١٣٣٨ هـ .

٢٨ ــ مراتب النحويين ــ ابو الطيب اللغوي ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ــ مطبعة نهضـة مصر ، ١٩٥٥ م .

٢٩ ــ المصون ــ ابو احمد العسكري ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ الكويت ١٩٦٠ م .

٣٠ ــ معجم الادباء ــ ياقوت الحموي ــ مكتبة عيسى الحلبي بمصر ــ الطبعة الاخيرة .

٣١ ــ مغني اللبيب ــ ابن هشام ــ تحقيق د. مازن مبارك ، محمد علي حمد الله مراجعـة سعيد الافغاني ــ دار الفكر ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٧٢ م .

٣٢ ــ ملغزة الاعراب ــ الرماني ــ تحقيق سعيد الافغاني ــ مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٨ م .

٣٣ ــ من تاريخ النحو ــ سعيد الافغاني ــ دار الفكر .

٣٤ ــ الموشح ــ المرزباني ــ المطبعة السلفية ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٣٨٥ هـ .

٣٥ ــ نزهة الالباء ــ ابن الانباري ــ تحقيق د. ابراهيم السامرائي ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٠ م .

٣٦ ــ نشأة النحو ــ محمد الطنطاوي ــ دار المعاوي للطبع والنشر ــ القاهرة ١٩٣٨ م.

٣٧ ــ همع الهوامع ــ السيوطي ــ تحقيق عبد السلام هارون الكويت ــ ١٩٧٥ م .

٣٨ ــ وفيات الاعيان ــ ابن خلكان ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م .

● ★ ★ ●

عقيدة الخيام

للاستاذ عبد الحق فاضل

تقديم

من خلال رباعياته الفارسية عرفناه نحن العرب في هذا الجيل ، لكنه كان في حياته من أعلام الثقافة العربية ، لأنه كتب مؤلفاته ورسائله العلمية والفلسفية والدينية باللغة العربية، التي كانت لغة العلم والدين والأدب في زمانه ، لا في فارس وحدها بل في غيرها من أقطار الامبراطورية الاسلامية . وقد طُبع كتابه الجليل (الجبر والمقابلة) بنصّه العربي وترجمته الفرنسية في باريس عام ١٨٥١ — اي ان اللغة العربية هي المرجع لدراسة هذا الاثر وغيره من ثمار عقل الخيام . ولولا أن شهرته برباعياته الفارسية قد غطت على شهرته العلمية وثقافته العربية،لعرفناه واحدا من رجال الفكر العربي كالفارابي وابن سينا والخوارزمي والزمخشري وغيرهم من اخواننا واخواننا غير العرب،الذين نشأوا في أحضان الثقافة العربية والحضارة الاسلامية،والذين هجروا لغاتهم الأصلية في التعلم والتعليم،ودونوا ثمار قرائحهم بالعربية التي أحبوها وهاموا بها،

الى حد ان ابا الريحان البيروني، مثلا، كان يقول أن الهجـــو بالعربية أحب اليه من المدح بغيرها ! .. وما كان هذا شعوره وحده .

لهذا أرى أن الخيام جدير بأن يُحتفي بـــه العـــرب في المناسبات، ويصدروا الاعداد الخاصة به من المجلات ، شأنهم مع أمثاله الآنف ذكرهم .

عقيدتـــــه

كنت في كتابي « ثورة الخيام » عقدت فصلا بعنوان (الالحـــــاد الرياضي) برهنت فيه على الحاد عمر الخيام ؛ وهنا أعقد فصلا بعنوان (الايمان الرياضي) أبرهن فيه على ايمانه ــ دون أن أمس ذلك الفصـــل الالحادي بتصحيح أو تنقيح ، لأن عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين .

فكيف كان ذلك ؟

البيهقي ــ جزاه الله خيرا كثيرا عما روى لنا من أخبار الخيام، ولا سيما أن لمروياته، على قلتها وايجازها ونقصها، خطورتها في البحث ، لقرب عهده من مصادرها ، ولأنه يكاد يكون شاهد عيان في بعض ما يعنينا منهـــا ــ يقول عن صاحبنا عمر « وحكى لي ختنه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب (١) ، وكان يتأمل الالهيـــات من (الشفاء) ، فلمـــا وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقال : أدع الأزكياء حتى أوصي . فوصى ، فقام وصلى . ولم يأكل ولم يشرب ، فلما صلى العشاء الآخيرة سجد ؛ وكان يقول في سجوده : اللهم انك تعلـــم

---

١ ــ التخلل : تنظيف ما بين الاسنان من بقايا الطعام . والخلال (زنة الهلال) : ما يتخلل به من عود او نحوه .

اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي ، فان معرفتي اياك وسيلتي اليك . ومات » . اه البيهقي (٢) .

قال لي الخيامي التركي المرحوم رضا توفيق (حين لقيته في استانبول عام ١٩٤٧) انه لا يصدق الحكاية ، لان الخيام كان فقيرا ،وليس معقولا ان يتخلل بخلال من ذهب . غير اني لا اتفق معه في هذا ؛ اولا لأني لا ارى من الضروري تكذيب الحكاية كلها اذا كان جزء منها غير معقول ، وثانيا لان الاستنتاج بمثل هذا التعميم لا يبيح لنا انكار نصٍّ ينقله راوٍ عرف شخص الخيام (مذ قابله سنة ٥٠٧ هـ ــ اي قبل وفاة الخيام بعشر سنوات) فلم ينكر من رواية ختنه عنه انه كان يتخلل بخلال من ذهب . وقد كان هو اخلق بالشك في صحة ذلك لو قد وجد ما يثير شكا ، وخاصة انه يروي الحكاية نقلا عن شاهد عيان يعرفه ايضا ويثق بروايته ، بدليل انه نقلها دون ان يعلّق عليها ، او يناقش راويتها ختن الخيام الذي يظهر انه كان مساكنا له في دار واحدة . وليس ثمة ما يحمل اي واحد من الاثنين ــ الراوي والمروي عنه ــ على ان يخترع (خلال الذهب) خلافا للواقع . وليس مستبعدا ان يكون الخيام اغتنى في بعض مراحل عمره،وهو الذي كان يخالط الامراء والسلاطين . وقد جاء في بعض اخباره ان الوزير نظام الملك كان اجرى عليه (١٢٠٠) دينار في السنة ، وربما اجرى عليه وزير آخر او سلطان ، ما اغناه ولو في اخريات حياته فقط . كما ان الخيام كان طبيبا عالي الدرجة،يستدعيه الملك لمعالجة حفيده سنجر حين اصيب

---

٢ ــ ظهير الدين ابو الحسن علي بن زيد البيهقي ، يرجع نسبه الى الصحابي خزيمة الاوسي الملقب بذي الشهادتين ، نزل ابناؤه فارس ــ « تتمة صوان الحكمة » ثم تاليفه ما بين عامي ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ . ويلاحظ ان لقب الخلق (البغدادي) ينبيء أن زوجة الخيام كانت مراتية النسب .

بالجدري في صباه (٣) ، والطب صنعة رائجة رابحة ، وما أحسب بضاعة الخيام هذه كانت بائرة . حتى لو كان فقيرا حقا أيامئذ فليس من المحال أن يكون أحد المعجبين أو الأصدقاء قد أهدى اليه ذلك الخلال الذهب . وليس ببعيد كذلك أن يكون تفسير هذه النقطة أي شيء لا يخطر لنا ببال . فعلى هذا لا أستسيغ تكذيب نص لمجرد وجود نقطة فيه لا نعرف كيف نفسرها . وما أكثر الالغاز المستعصية ، وبعضها شديد الغرابة لا نفقه له معنى ، في حيوات رجال التاريخ .

على أن حكايتنا هذه تقول بنفسها أن الخيام كان عند وفاته ميسور الحال ، لأنه حين شعر بدنو ساعة الصفر المحتومة ، دعا بالأزكياء ليوثقوا وصيته ، فحضروا ووصى فعلا . فلو لم يكن ذا مال ذي بال لما كان ثمة ما يستدعي الوصية ، وتوثيقها من جانب الأزكياء ، وهم بمثابة الكتاب العدول في زماننا .

لكني أنا لم أسلم من مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه المرحوم رضا توفيق ؛ فقد صدرت الطبعة الأولى والثانية من « ثورة الخيام » وأنا غير عابىء بالحكاية .. أصدق كل ما رواه البيهقي عن الخيام ما عداها ، فكنت أتخطاها كلما وقع نظري عليها . وكان السبب أنها صادرة عن ختن الخيام — أي أخي زوجته او أبيها — فقلت لنفسي، اذا كان معاصرنا المرحوم فروغي (٤) يدافع عن صحة ايمان الخيام، المتهم بالالحاد، ذلك الدفاع

---

٣ — هو أبو الحارث سنجر بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، تولى الملك ولقب بالسلطان الاعظم .

٤ — محمد علي فروغي ذكاء الملك ، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والادب في ايران ، توفي اثناء الحرب العالمية الثانية . أصدر مجموعة لرباعيات الخيام باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابوري » وقدم لها ببحث قيّم على ايجازه وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه. طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية ، اي ١٩٤٢ م .

الحار ، غير المنطقي ، ويتأول حتى الرباعيات الالحادية الواضحة الكفران، بالرغم من أكثر من ثماني مئات من السنين تفصل بين المحامي والمتهم ، وبالرغم من عدم وجود أية رابطة شخصية بينهما من صداقة أو مخالتة ــ فما بالي بالامام محمد البغدادي ختن الخيام ؟ كيف أصدق حكايته ضد رواية القفطي الذي قال لنا بكل جلاء عن الخيام إن اهل زمانه قدحوا في دينه .. حتى لخشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه ؟ .. وضد اتهـــام الرازي اياه بانه من الدهريين والطبيعيين الضالين، بالرغم من اكبـــاره لـــه ؟ (٥)

يضاف الى ذلك ان الرواية نفسها لا تخلو مما يثير الشك أو التساؤل على الأقل . فان ما يقال في السجود اثناء الصلاة هو « سبحان ربي الأعلى» .. فلماذا قال الخيام في سجوده غير ذلك ؟ كما ان ما يقال في السجود انما يقال سرًّا، اي همسا لا جهرا ، فكيف سمعه الختن ؟ وان شئت مشككا آخر علاوة على هذا، فكيف علم أن الخيام وقف في القراءة عند (فصل الواحـد والكثير) من كتاب (الشفاء) وهو من أشهر كتب ابن سينا ؟

من أجل هذا اهملت هذه الحكاية من رواية البيهقي التي صدقتها كلها، لاني لم اجد فيها ــ عدا هذه الحكاية ــ ما يدعو الى شك أو تكذيب . وكان ذلك تسرّعًا مني .

بعد الطبعة الثانية من « ثورة الخيام » عدت الى القصة انظرها بعين جديدة ، ازالت قبل كل شيء ذلك التناقض بين روايتي القفطي والرازي وغيرهما عن الحاد الخيام، وبين رواية ختنه عن ايمانه ؛ فظهر لي أن عمـر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين ؛ ذلك أن الالحاد والايمان لم يلتقيا في فترة واحدة من حياته . فنحن وان كنا على جهل تام بمرحلة إلحاده، فاننا نعلم أن

• ــ ورد تفصيل ذلك في « ثورة الخيام » .

ايمانه كان في شيخوخته،وقد اطلعنا عليه في آخر يوم من حياته بالتحديد . وما اكثر مَن أَلحَد من العلماء والمفكرين في عهد الشباب أو الكهولة ثم عاد الى الايمان في الشيخوخة .

وعلى ضو هذه الظاهرة نعود الى النقاط الغامضة التي أثـــارت شكوكنا لنمتحنها ونحقق النظر فيها . فأما كيف عرف الامام محمد البغدادي ان صهره الخيام وقف من (الشفاء) عند (فصل الواحد والكثير) فهـذه ابسط المشاكل واسهلها جوابا . عندما فتح الكتاب ــ ربما بعد أن أسلـم الخيام الروح ــ حيث كان قد وضع الخلال بين الورقتين ــ وجد هـــذا العنوان في احدى الصفحتين .

واما ما قاله الخيام في سجوده،فالظاهر انه كان خارج صلاة العشاء الاخيرة ــ الاصولية ــ التي يقال في سجودها « سبحان ربي الاعلى » . واكبر ظني ان البيهقي لم يحسن اختيار اللفظ للتعبير عن هذه النقطة ، ولو أن عبارته تحتمل تفسيرنا هذا . فهو يقول : « فلما صلى العشاء الاخيرة سجد .. » اي : فلما فرغ من صلاة العشاء الاخيرة سجد . ولا معنـــى لعبارته بغير هذا التفسير،لان السجدات في اثناء الصلاة بديهية لا حاجـة الى ذكرها . ولو كان قصده السجود الذي في اثنائها لقال : « فلما صلى العشاء الاخيرة وسجد كان يقول في سجوده .. » أو : « فلما سجد في صلاة العشاء الاخيرة .. » .. أما خارج الصلاة فما اكثر ما يسجد المسلم لله شكرا او تضرعا ، او تحية للمسجد ، او استقبالا للأجل .

فلما احس الخيام بدنو ساعته وصّى ، وكان متهيئا نفسيا للقـــاء الرفيق الأعلى،فسجد بعد صلاة العشاء تضرعا وانابة . وفي مثل هـــذه الحالة من المعقول أن يكون قد جهر بما قاله،ورفع به صوته من فرط التأثر وحرارة الابتهال . كما يحتمل أن يكون كرر الدعاء بعد السجود فسمعه

ختنه . وأية كانت الحالة فقد وردت أحاديث نبوية عن أجلّة من الصحابة أن الرسول كان يدعو أحيانا في سجوده ويقول كذا وكذا ، من مختلف الأدعية(٦)ويظهر أن البيهقي قد دوّن نص دعاء الخيام حين سمعه من الختن ليثبته في كتابه ، كما يفعل أمثاله ممن يؤلفون عن المشهورين أو يجمعون الأقوال والنصوص .

أما الاحساس بدنوّ الأجل فظاهرة كثير حدوثها ؛ ولعل القارىء قد صادف من معارفه أو أقاربه — كما صادفت أنا — مَن أحسّوا بقرب تسليم الروح،ولو لم تعتورهم أثناء المرض نوبة أو انتكاسة فجائية منذرة ؛ سوى الهاجس الداخلي .

من الملحوظ أن بعض الرواة — ومنهم رواة الخيام — ميالون الى الاختزال أحيانا،فيحذفون كلمات أو عبارات يظنونها زائدة أو غير ذات جدوى ، غير مقدرين ما لها عند الباحث المحلل المدقق من خطورة ؛ وهي قد تغير المعنى أو تقلبه ، أو تضعف الرواية على الأقل . من ذلك مثلا رواية الشهرزوري لهذه الحكاية نفسها : فبدلا من أن يقول « روى البيهقي أن ختن الخيام الامام محمد البغدادي حكى له كذا وكذا .. » — قال الشهرزوري عن الخيام : « وحكي (بصيغة المجهول) انه كان يتخذل بخلال من ذهب،وكان يتأمل الالهيات من الشفاء .. » (٧) .. فليتصور القارىء كم كانت تهبط قيمة الحكاية لو لم تصل الينا رواية البيهقي الأصلية،التي منها علمنا أن الراوي ناقل مباشر ، ثقة ، عن شاهد عيان . شيء من هذا

---

٦ — ابن تيمية : « الكلم الطيب » — تحقيق محمد ناصر الدين الالباني — فيه امثلة من أدعية السجود النبوية ، ص ٦٠و٦١.

٧ — شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري — « نزهة الارواح وروضة الافراح » — تاليف ٥٨٦ — ٦١١ هـ .

القبيل اقوله عن البيهقي نفسه ، فلا بد أن ختن الخيام قد روى له امـــورا أكثر اقناعا واوفى تفاصيل مما اختصره لنا في نصه هذا الذي لم يجد هو فيه ما يثير تساؤلا أو يتطلب اقناعا او ايضاحا ـــ لأن الحكاية كما سمعها كانت مقنعة واضحة . ولعله كان شخصيا يعلم عن تدين الخيام وتقواه ما لـــم يذكره لنا اكتفاء بزواية الامام محمد البغدادي .

ما سبب الحاد الخيام ؟

انه السبب الرائج للالحاد بخطوطه العريضة في كل مكان ، ولا سيما لدى العلماء والمفكرين .

لماذا كل هذا الجور في الحياة ؟

لماذا يسعد الاشرار ويثرون ، بينما يشقى الأحرار ويفتقرون ؟

لماذا يخلق الانسان لينمو ، ثم يموت بعد أن يتم ويكتمل ويصبح أجدر بالحياة ؟

لماذا تموت الصبيّة كالوردة في ميعة عمرها قبل أن يأتي دورها ؟

لماذا كل هذا الاضطراب والظلم ، واللامعقول ، في العالم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ... (وقد ادرجنا نماذج اخرى من تساؤلاته و (لماذاته) في فصل (الالحاد الرياضي) في « ثورة الخيام ») ..

فالذي يستطيع أن يستنتجه بعضهم من كل هذا انه لو كان للكون اله لما كان جائرا ، وان كان جائرا فلا يمكن أن يكون الها .

ولا بد أن الخيام كان عارفا بالقالة السفسطائية الاغريقية المشهورة: إما أن الله لا يريد الشر ولا يستطيع ان يمنعه ، واما انه يستطيع ولا يريد ، واما انه يريد ولا يستطيع .. وكل أولئك يعني انه ليس الها . والرابعة

انه لا يريد الشر ويستطيع أن يمنعه ، وهذا أيضا مستحيل ، لانه يقـــال عندئذ : ماله لا يفعل اذن ؟

يضاف الى ما تقدم من أفكار تقود الى الجحود والكفران بذات الله ، ان الالحاد ضرب من التمرد الذي يتسم به عهد الفتوة التي من طبعها التحدي والنزوع الى التجديد،والخروج على الموروث من معتقدات ومواضعات دينية واجتماعية وذوقية .. حتى في الأزياء .. حتى في الموسيقا والاغاني .. وقد رأينا بأعيننا انتشار بدعة اطالة اللحية على عهدنا عند أحداث الجيل ، خلافا لجيل آبائهم ، ثم اطالة شعر الرأس محاكاة للاناث . ولا تسل عن تملص الفن عموما — من رسم عبثي وادب تشكيلي — من كل القيود،وخاصة من القيد الجوهري الأساسي الذي انما خلق الفن والأدب للتعبير عنه ، وهـــو المعنى . وما كل هذا غير طراز من الالحاد الاجتماعي .

بديهي أن فكرة وجود خالق للكون مبدع لكل شيء لم ينتظر الخيـــام حتى يشيخ ليتعلمها، فهي في الواقع أول شيء من الاسلام تُعلَّمه الصبي ، عمر ، في دروس علم الكلام (الالهيات) يوم قالوا له : كل متغير حادث ، وكل حادث له محدث . والعالم متغير،فهو اذن حادث،فلا بد أن يكون لـــه محدث،اي صانع أو خالق هو الله سبحانه . فكان يحفظ ذلك صبيا،ويتفهمه ويعيده على ممتحنيه مثلما يحفظ (قفا نبك) ويتفهمها ويعيدها. غير انـــه حين شب ونما جسمه واضطرمت فتوته في مرحلة التمرد والتحدي،بدأ يقول (لماذا) ؟ ولا بد أنه كان يسمع أقاويل الملحدين المنكرين أيضا ، فكان يقارن ويوازن . وحين لابس الحياة واحتك بتفاعلاتها،لعلَّه عانى واقعيا فوضـــى الأمور واختلال معايير العدالة،بل فقدانها في الكثير من الأحوال ؛ وربما أصابه الكثير من عقابيل ذلك ، ولعله قاسى أيضا من تحيز القدر في معاملة الناس شيئا غير قليل — علاوة على لا منطقية الموت ومجهوليـة المبتـــدا

والمنتهى ، لا بد انه حين واجه كل اولئك صار رنين (لماذا) يدوي بقوة في راسه ــ استفهاميا حينا ، واحتجاجيًا حينا ، واستنكاريا حينا آخر .

ولا بد كذلك ان الخيام قد درس منذ الصبا ايضا اجوبة الدين على اسئلته واعتراضاته ، فقيل له ان (الآخرة) تصحح اغلاط الدنيا . فـ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ فكما يثاب الأخيار على صالح اعمالهم وعلى ما يبتلون به من مصائب الحياة ، يعاقب الاشرار على شرورهم ، ويحصى ما يتمتعون به في الدنيا من نعم الحياة فيحسب على سيئاتهم .. والظالم يؤخذ من حسناته يوم القيامة لتضاف الى حسنات المظلوم ، فان لم تكن له حسنات اضيف الى سيئاته من سيئات المظلوم .. « يقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون » .

لكن هذا الذي تعلمه في الصغر تبخّر تأثيره والاقتناع به مع الزمن في دورة الشباب . كل الملحدين يعرفون موقف الدين هذا ، لكنهم يزيغون عنه ويذهب بهم الفكر و (اللماذات) مذهب الحيرة فالنكران .

/ على ان تقدم السن يخفف من فورة التمرد والتحدي ايضا . وكثيرا ما يؤمن الشيوخ بعد كفران . والتاويل الرائج لهذه الظاهرة هو ان المرء حين يستنفذ عمره ، وتخبو حدة شهواته ، ويقترب منه قبره ، يستغفر ربه خوفا من ويلات الآخرة وطمعا في نعيمها ، فيتوب عن معاصيه ، وكثيرا ما يعكف على العبادة واداء الفرائض من حج وصوم وصلاة وزكاة ؛ ومنهم من يتصدق بما حشد من مال حرام ، وبعضهم يبني المساجد ، او يوقف املاكه على وجوه البر .

لكني لا اخال هذا منطبقا على مثل شيخنا الخيام ، بل على مثل ابي نواس الذي كان يقول في شبابه :

قم سيدي نعص جبار السماوات

فهو كان يؤمن بأن في السماوات جبارا،لكنه يعصيه تمردا وسفاهة حتى بعد أن حج البيت وقال في بعض قريضه ما ينم عن ايمانه . وذلك شأن معظم العصاة من الناس . يؤمنون بالله القاهر فوق عباده،ولا يمنعهم ايمانهم من اتيان المعاصي،من غش وابتزاز وعدوان وفسوق،وما الى ذلك من صغائر الذنوب وكبائرها .. كالولد الشقي المتمرد،يرتكب كل ما تسول له نفسه ضد أوامر أبيه ومعلميه على الرغم من علمه ــ يقينا ــ بما سينال من عقاب وضرب وجيع .

فاذا أدبر الشباب وحلّ المشيب ببعض المارقين عن الدين تابوا .

قال أبو نواس فيما قال :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك آثام !

يتوب من آثامه لا من الحاده . انه لم يخرج على الدين عن فلسفة ، ولا هو تاب عن تفكير . لأن التوبة خامرته فيما يظهر عند اعتلال جسده، ربما بسبب الاسراف على نفسه في الخمر والفجور . ويغلب على ظني انه لو عاوده عنفوان الشباب واقبال الحياة لتاب عن توبته .

الخيام طراز آخر ، كان كفره بالدين والحاده بالله عقليا ، أي علميا، لا جهليا او عصيانيا ؛ فلما عاد الى الايمان عاد عن تفكير وتأمل . فلهذا لم يستغفر في دعائه الأخير عن ذنوبه ومعاصيه ، بل عن عدم تمكنه من معرفة الله .

بعد أن شبع وسئم في مدارج العمر من كثرة تساؤل وطول احتجاج واعتراض ، اخذت (لماذا) تضعف وتتلاشى مع الزمن وبالتدريج .. لتظهر مقابلها في نفس الوقت ، مع الزمن وبالتدريج : (كيف) ؟ .. ولا سيما أن شعلة التمرد والتحدي خمدت مع تدرج خمود الفتوة ونضج الكهولة ،

فاصبحت نظرته الى الامور وتاملاته في شؤون العالم تتسم بشيء من الحياد .. الايجابي .

اذا كانت تأملات ابي نواس قد قادته الى القول :

وفي كل شيء له آيـــة تدل على انه واحدُ

فلا بد ان هذه الحقيقة قد كانت اجلى لعين الخيام وهو اوسع علمـــا واعمق فكرا ، واكثر اهتماما بتقصي الحقائق والتفتيش عن المجهـــولات واسرار الحياة والكون . لا بد انه تساءل :

- (كيف) نبتت هذه الشجرة الوارفة من تلك البذرة الصغيرة ؟ كـل اوراق هذه الدوحة الضخمة وخضرتها وخشبها والوان نورها ونوع ثمرتها وطعمها .. كل هذا كان مسجلا بطريقة خفية ودقة غير معقولة في تلـــك البذرة الصغيرة .

(كيف) تكونت هذه الحيوانات في ارحام أمهاتها ، من لا شيء تقريبا، من ماء دافق لا يبين فيه اثر لحياة .. ثم اخذ كل منها منذ ولادته يتصرف على نحو خاص بأبناء نوعه دون تعليم ، بالفطرة ؟

(كيف) تكونت هذه الفطرة ؟

والانسان .. (كيف) سطرت كل خصائص شخصيته بالتفصيـــل المسهب ، المتقن ، في تلك النطفة الضئيلة ؟ كل البرنامج : الطول والحجم ولون البشرة وعدد الشعرات في الجسم في كل مرحلة من مراحل الحياة .. والاحاسيس ، والمشاعر ، والهواجس ، والافكار ؛ وكيف يواجه جسمه ونفسه وعقله كل انواع الاحتمالات التى تصادفه في الحيـــاة ، وكـــل الاستجابات والتفاعلات وتعاملات البيئة ؟ .. والخيام طبيب ..

وهذا الكون (كيف) تهندس بنجومه الثابتة على مسافات محددة ..

ـ والخيام فلكي ـ وبكواكبه السيارة المتحركة بحسابات مضبوطة ؟ ..
ـ والخيام رياضي ـ هذا الكون (لِمَ) نشأ و (كيف) يعمل ؟ (ولو أنه لم يكن معروفا يومئذ أن الفلك يتحرك كله ويسير) .

وهذه الفصول السنوية (كيف) تتغير وتتعاقب بانتظام، فلا يتقدم دوران السنة دقيقة واحدة ولا يتأخر ؟ .. والخيام قد شارك في وضع التقويم السنوي الذي يبدأ في لحظة تعادل الليل والنهار الربيعي .. وهو فوق ذلك خبير بعلم الأجواء والأنواء ..

بعض هذه الاسئلة يظهر في رباعياته ، لكني لا اشك انها كلها ـ واكثر منها ـ قد كانت موضوع اهتمامه وتأملاته .

كيف وكيف وكيف ؟ ...
كل شيء يدعو الى العجب ، بل الدهشة .
وكلما كان العقل أكبر كان تعجبه ودهشته أكبر .

هذا الكون المذهل بكل هذه العظمة وهذه الدقة، من أعظم شيء الى أصغر ذرة فيه لا يمكن أن يكون قد تكوّن مصادفة . وهذه الدقة المتناهية المحكمة الى حد لا يدركه الفكر، يستحيل أن تكون هي التي خلقت نفسها .

قال لي في أذن قلبي الفلك الدوار همسا :
لأرحت الآن نفسي من هيامي ودواري !
انا لو كان بأمري دورانـي في مداري
أتظن الحكم حكمي في الورى سعدا ونحسا ؟

كلا ، ان الفلك لم يبدع نفسه ، ولا هو يدور باختياره ، ولا بوعي منه ؛ انه كالثور يدور في الناعورة لا يدري من أجل ماذا .

لسنا نعلم في أية مرحلة من حياته قال هذه الرباعية ، وهي رباعية

خيامية الدلالة،حتى ان لم يكن الخيام قائلها فعلا .

(كيف) اذن نشأ الفلك ، و (كيف) دار ؟

انه بحـــر وجود جـــاء من طـــي الخفـــاءْ
درة للبحـــث لم تُثْقَب بعلـــم أو ذكـــــاءْ
كلهـــم جـــاء بقـــول من تَظَنّ وهـــــراءْ
غير أن الحـــق لم يظهـــر عليـــه ابن فنـــاءْ

(لا أدرية) صريحة ؟ وهي من الرباعيات (المعتمدة) التي يرجح ترجيحا قويا صحة نسبتها الى الخيام . وثمة أمثال لهذه اللاأدريـــــة في رباعيات أخريات . ثم :

يا فتى من صولج التقديـــر كالأُكرة يجـــــري(٨)
بِرْ شمالا ويمينـــا ، ثم لا تنطق بأمـــــرِ
ان من القاك في المحنـــة من كَـــرٍّ وفـــــرِ
هو يدري،وهو يدري،وهو يدري،وهويدري

(لا أدرية) أخرى ، لكن من نوع آخر . فالخيام نفسه ما يزال (لا يدري) غير أنه قد توصل هنا الى معرفة (هو) الذي وحده يدري .. اي أنه اعترف بوجود (هو) الذي « القاك في المحنة » ..

كان إلحادُه رياضيا ، فلا بد أن ايمانه أيضا قد كان رياضيا .. فلا يُفَلُّ الحديد الا الحديد .

فاذا وضعنا المسألة في صيغتها الرياضية كانت كما أظن هكذا :

---

٨ ــ الصولج هو الصولجان (اللسان) . يقصد لعبة الكرة والصولجان ، المشهورة فـــي عصرنا باسم (الهوكي) .

(لماذا) ، جوابها : لا ادري ، أيّ صفر . جواب سالب .

(كيف) ، جوابها : هو يدري . جواب موجب ، على كل حال .

وطبيعي ان يتخلى عقل علمي كعقل الخيام عن السالب من أجل الموجب ! بعد أن اقتنع عقله باستحالة وجود هذا الكون من دون موجد ، خالق ، صار اذا عاوده التساؤل : لماذا هذه المفارقات في الحياة ؟ لماذا الشرور ؟ لماذا الحياة ؟ .. لماذا الموت ؟ .. لماذا ، لماذا ؟ ..

كان الجواب : هو يدري ! .. نفس الجواب الذي تعلّمه الصبي عمر ابن ابرهيم الخيام من معلميه واهله : انها حكمة الله .. قضاء الله .. ارادة الله .. يُعِزّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء ..

ولماذا كانت حكمة الله ومشيئته هكذا ؟ .. هو يدري ، هو يدري .. « لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » .

عندها لا بد ان الخيام عاد الى أجوبة الدين القائمة على تعادلية اليوم الآخر . وصار يتأمل تلك الاجوبة على (لماذاته) بعين جديدة، ويهضمها عقله بالتدريج — بعد أن كان يحفظها ويعيدها ويتبحر في فلسفتها تحليلا وتعليلا في محاضراته ورسائله . كان يلقيها دروسا على الناس، ويجهد في افهامهم اياها بالادلة المتداولة بين العلماء والحكماء دون أن يقتنع هو بها أو يفهمها .. كما يفعل الكثيرون من المعلمين في كل زمان حين يضطرون الى تلقين تلاميذهم مبادىء دينية أو سياسية لا يؤمنون بها . لكن الخيام بعد ان آمن بالذي (يدري) صار يلقيها دروسا على نفسه ويجهد في افهامها اياها بالادلة التي تقنعه هو، واصبح شعوره بضرورة وجود (الواجب الوجود) يساعده ويجبر عقله على الاقتناع .

وما في الأمر غرابة ؛ فالغزالي الفقيه المتصوف الكبير أيضا ثاب الى

الايمان بعد طول حيرة وتشكك . وللغزالي والخيام نظراء .

سؤال : (كيف) هو الله ؟ ..

اما هذا فلم يجب عليه العقل ولا الدين : الدين يقول : شـــيء لا كالاشياء .. بكل شيء محيط .. يدرك الابصار ولا تدركه الأبصار .. والامام علي يقول : « كل ما خطر ببالك فهو ليس كذلك » !

والواقع أن كل تفكير في حقيقة الله وصفاته لا نتيجة له غير الحـيرة والضلالة ؛ وهنا يأتي الحديث النبوي المنقذ : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، فتهلكوا » (٩) .

وينتهي التأمل الرياضي بالخيام ذي العقل الرياضي الكبير الى هـذه النتيجة :

ان عقلي ليس بالكفء لاثباتـك ، ربـي
فمناجاتك اضحـت هـي تفكـيري ودأبي
كيف لي ربـاه أن أعرف ما كنه صفاتـكْ ؟
ليس مـن يعـرف ما ذاتك حقا غير ذاتكْ !

وما اشد انسجام رباعيته المنظومة هذه مع دعائه المنثور ذاك .

وان كانت للخيام عمر رباعيات دينية أخرى؛ فالمعقول ان تكون مـن نتاج فترة الرجوع الى الايمان والتدين . ولعل رباعيتنا هذه اهم واحـدة

---

٩ ـ لقد كرر الرسول ذلك على أصحابه في مناسبات متعددة فيما يظهر؛ لان الحديث روي مـن جهات مختلفة بصيغ متقاربة ، كلها يؤكد النهي عن التفكير في ذات الله ويحث على التفكير في مخلوقاته .

فيها .

ولا نعلم متى قالها عمر ، لكن الشهرزوري يروي أنها آخر ما قال من الشعر .

وأما الرباعية الرائجة التي كثيرا ما يستشهدون بها على ايمان الخيام :

ان كنت لم اثقب درة طاعتك قط ،
ولم انفض غبار الذنب عن وجهي قط ،
فلست باليائس من رواق كرمك ،
لاني لم اقل ان الواحد اثنان قط ..

فما احسبها من صناعة عقل الخيام ، لضعفها ، وخاصة لتهافت الاستعارة البلاغية في الشطر الأول منها — فمن أسلوب الخيام أن يقول احيانا (ثقبوا د. المعاني) بمعنى افتضوها ونفذوا الى صميمها ، أما (ثقب درة الطاعة) بمعنى الانصياع اليها والتمسك بها فاستعارة سقيمة لا أراها شبيهة بشاعرنا المنطيق عمر .

لا أستبعد ان يكون ايمانه هذا الذي ملك عليه مشاعره في شيخوخته أو منذ كهولته ، قد دعاه الى اتلاف رباعياته الفارسية وشعره العربي ، مما لم يرد به وجه الله أو أراد به الالحاد والثورة على الدين ، كما يفعل امثال له من التائبين — فلم يخلّف من جراء ذلك ديوان شعر ولا مجموعة رباعيات ، الا ما بقي في ذاكرات اصحابه الذين كانوا اخذوها عنه او في دفاترهم ، أو اخذها بعضهم عن بعض ، مما شاع شيء في حياته نقلا عنهم ، وصارت شذرات منه تظهر بعد وفاته في المؤلفات اللاحقة ، حينا بعد حين .

ولنعد الآن الى ذلك الدعاء الذي ودع به الفانية . صيغته لا تخلو من غرابة ، وهي تناسب الخيام كما نعرفه كل المناسبة . ونص الدعاء كالذي راينا هو : « اللهم انك تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي . فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » .

فاذا كانت معرفته البارىء هي وسيلته اليه فلماذا يستغفره ؟ السر فيما ارى أن « المعرفة » في الشق الاول من هذا الدعاء تختلف عن «المعرفة» في الشق الثاني منه . وبعبارة اوضح،يخيل لي انه قصد بالمعرفة الاولى عكس معناها،اي الانكار ! . . فكانه قال « اغفر لي عدم معرفتي اياك فيما خلا من اعوام عمري » . وهو يتنصل ضمنا من التبعة،ويلقيها على عجزه عن الادراك . وقوله « على مبلغ امكاني » يؤيد هذا التفسير . ثم جاءت المعرفة الحق في الشق الثاني من قالته ، وهي التي يتخذها وسيلته الى الله لغفران الماضي وثواب الحاضر ، بل المستقبل .

كان الحاده عقليا ، وجاء ايمانه عقليا ولا بد .

عبد الحق فاضل

●✱✱●

المستعمرات الألمانية في فلسطين

للدكتور علي محافظة

(الجامعة الأردنية)

الغاية من هذا البحث دراسة المستعمرات الالمانية في فلسطين منذ تأسيس أولاها عام ١٨٦٨ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ . وتعالج هذه الدراسة الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات ، ومدى صلتها بالمخططات السياسية الالمانية في الدولة العثمانية . كما انها تتناول طبيعة العلاقات بين المستعمرين الالمان والسكان العرب، من جهة ، وبينهم وبين المستعمرين اليهود، من جهة اخرى. وتستعرض أيضا موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المستعمرات.

مشاريع استعمار فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر :

فتحت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨—١٨٠١) باب الصراع الدولي في الشرق العربي على مصراعيه . واطلقت العنان لمخططي السياسة الاستعمارية في أوروبا ، فقدموا مشروعات عديدة ترمي الى تجزئة الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها ، في وقت بلغ الجشع الاستعماري ، مع انتشار الثورة الصناعية ، اوجه . وكانت فلسطين بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي واهميتها الدينية هدفا لمخططي هذه

السياسة . فمنذ عام ١٨٠٠ نشر الكاتب البريطاني جيمز بيتشينو James Bicheno كتابا بعنوان The Restauration of Jews, the crisis of All Nations دعا فيه الى تجميع يهود العالم في فلسطين ، تحقيقا للنبوءات التوراتية ، وسعيا الى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية . وعلق بيتشينو آمالا واسعة على فرنسا النابليونية لتحقيق هذا المشروع . غير أن مبادرة نابليون بجمع « مجلس أعلى » لليهود لاستغلاله كأداة سياسية ، منيت بالفشل . ولذلك اتجهت الأنظار الى الدول البروتستانتية (بريطانيا وبروسيا) لتحقيق هذا المشروع . ولقيت آراء بتشينو صدى واسعا في بريطانيا ، واعيدت طباعة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧ (١) .

وقد اعجب بالفكرة اللورد آشلي Lord Ashley الذي أخذ يدعو لها منذ خريف عام ١٨٣٨ . وفي رايه أن جمع اليهود على أرض فلسطين سيكون خطوة أولى نحو تنصيرهم ، كما أن استعمار فلسطين ضرورة للاقتصاد البريطاني الذي شهد آنذاك ازدهارا وتوسعا نتيجة للثورة الصناعية . وبضغط من آشلي قبل قريبه اللورد بالمرستون Lord Palmerston رعاية عودة اليهود الى فلسطين وحماية الحكومة البريطانية للمقيمين منهم في الدولة العثمانية . وكان للكتاب الذي الفه اللورد ليندسي Lord Lindsay وصدر عام ١٨٣٨ بعنوان "Letters on Egypt, Edom and the Holy Land" * رسائل عن مصر وايدوم والأرض المقدسة" والذي تضمن تحبيذه لفكرة جمع اليهود في فلسطين ، صدى واسع في نفس اللورد آشلي . فقام الأخير بجمع الأموال لتنفيذ مشروع جمع اليهود على أرض فلسطين (٢) .

أثار المشروع اهتمام الحكومة البريطانية والصحافة اللندنية .

فقد تناولت صحيفة التايمز Times في عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٣٩ الأفكار الرئيسية التي نادى بها آشلي وأيدت « حق الشعب اليهودي في العودة الى فلسطين » . وربطت المسألة اليهودية بالأزمة السياسية القائمة بين محمد علي باشا والسلطان العثماني (٣) . اما وزارة الخارجية البريطانية فقد اصدرت في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٩ تعليماتها الى W. T. Young نائب القنصل المعين حديثا (١٨٣٨/٩/١٩) في القدس لبسط حمايته على كافة اليهود المقيمين في فلسطين (٤) .

ونشأت في الوقت نفسه حركة بين اليهود في بريطانيا تدعو الى استعمار فلسطين . ففي ربيع عام ١٨٣٨ زار موسى مونتفيوري (Moses Montefiore) (٥)، الثري والمحسن اليهودي، فلسطين ، وعرج على مصر لمفاوضة محمد علي باشا في مشروع يرمي الى تأجير منطقة الجليل (نحو ٢٠٠ قرية) له لمدة خمسين سنة ، وأن يدفع له مقابل ذلك اجرا سنويا. وكان في نية مونتفيوري أن ينشىء شركة استعمارية في بريطانيا ، في حالة موافقة محمد علي باشا على مشروعه ، من أجل تشجيع يهود أوروباعلى الهجرة الى فلسطين . غير أن مباحثات مونتفيوري مع محمد علي باءت بالفشل، عندما اكد والي مصر انه لا يستطيع التصرف بارض لا يملكها . واستمر مونتفيوري في نشاطه دون جدوى ؛ وزار فلسطين سبع مرات بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ (٦) . كان مشروع مونتفيوري هذا مقدمة للمشروع الصهيوني الذي مرّ بمراحل عدة طوال القرن التاسع عشر .

وبعد جلاء قوات محمد علي عن بلاد الشام، اقترح هلموت فون مولتكه (Helmuth Von Moltke) الكابتن في الحرس الملكي البروسي، الذي عمل بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في اعادة تنظيم الجيش العثماني (٧)، مشروعا آخر لاستعمار فلسطين . وورد هذا المشروع في مذكرات فون

مولتكه التى نشرها في صحيفة (Augusburger Allgemeine Zeitung) عام ١٨٤١ تحت عنوان : « المانيا وفلسطين "Deutschland und Palaestina" ».وقد شرح الضابط الالماني مشروعه هذا بتفاصيل دقيقة اثارت اهتمام الراي العام الالماني والأوروبي . وينص المشروع على انشاء « مملكة القدس » لتجعل من فلسطين مركزا متقدما للحضارة الأوروبية ، وانموذجا للتطور الاقتصادي في الشرق ، ودولة واقية بين مصر وسورية في حالة قيام مملكة وراثية في مصر ، تحول دون اي اعتداء على الدولة العثمانية ، وجسرا يربط أوروبا بالقارة الهندية . ويرى مولتكه ان قيام هذه المملكة سيكون بعثا للتقاليد والقيم الصليبية،ونصرا معنويا عظيما تحققه المسيحية في العالم . واقترح أن يكون على رأس هذه الدولة أمير الماني يتمتع بسلطة مطلقة، ويتّصف بروح متسامحة . فهو يرى ان اعتلاء أمير الماني لعرش مملكة القدس،سوف يبعد فلسطين عن تاثير المنافسات السياسية القائمة آنذاك بين الدول البحرية الأوروبية . كما ان تمتعه بسلطة مطلقة سيساعد في فرض النظام على بلد متخلف « لم يبلغ سكانه بعد مستوى حضارة اليونان، الذي تؤهله للمطالبة بالحكم الذاتي » (٨) . هذا وتحمس لمشروع مولتكه ملك بروسيا،فريدريش فيلهلم الرابع (Friedrich Wilhelm IV) وتبنّاه، فعرضه على ملوك أوروبا فلم يقبلوا به (٩) .

وبقيت فكرة استعمار فلسطين تشغل بال العديد من رجال الدين والسياسة والاقتصاد في أوروبا ؛ غير اننا سنقتصر على هذه المشروعات التي كانت تمهيدا للمشروع الاستعماري الالماني، الذي بدأ تنفيذه في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر .

جمعية الهيكل الالمانية واستعمار فلسطين

تعود جمعية الهيكل الالمانية(Deutsche Tempelgesellschaft) في اصولها الى حركة الاتقياء Pietismus التي ظهرت في المانيا في القرن السابع عشر ، كحركة دينية اصلاحية في الكنيسة الانجيلية،اكدت على دراسة الكتاب المقدس،وعلى الخبرة الدينية الشخصية . واستمرت هذه الحركة الدينية حتى مطلع القرن التاسع عشر،وتركزت حول تيوزوفن بينجل Theosophen Bengel ، الذي بشّر بقيام مملكة الرب وعودة المسيح الى الارض في اعقاب كوارث مريعة تنجم عن الابتعاد عن الروح المسيحية . ودعا بينجل كلّ تقي أن يبحث له عن مكان في الشرق،لقرب قيام مملكة الرب هناك . ورأى بينجل واتباعه في نابليون بونابرت الشيطان المناهض للمسيح . ومع نهاية نابليون،اعتقد بينجل ان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تتم التغيرات الكبرى . وتوقع أن تتم عودة المسيح عام ١٨٣٦ .

وفي عام١٨١٧حلّت مجاعة بمملكة فورتمبرغ Wurttemberg، فانتهز بينجل هذه الحالة،ودعا اتباعه الى الهجرة الى الشرق . فهاجر آلاف الفلاحين من هذه المملكة الى جنوب روسيا،حيث رحب بهم القيصر اسكندر الاول . واعتقد كثيرون منهم أن ترحيب القيصر الروسي نداء الهي لا بد من تلبيته . وتمت هجرة هؤلاء الالمان تحت اشراف البارون فون بيركهايم Von Berkheim . وسمح لهم القيصر بادارة شؤونهم ادارة ذاتية .

أما مملكة فورتمبرغ فقد رأت في هجرة مواطنيها خطرا يتهددها،لذلك لجأت الى مختلف الوسائل للحيلولة دون هجرتهم . وتقدم النائب العام في المملكة باقتراح على حكومته ينص على السماح لهؤلاء المتدينين بتشكيل جمعيات خاصة بهم،تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي . قبلت حكومة فورتمبرغ هذا الاقتراح،وتشكلت أول جمعية دينية في فورتمبرغ على يد

غوتليب هوفمان G. M. Hoffmann، رئيس بلدية ليونبرغ Leonberg في تشرين الأول عام ١٨١٨ . وفي صيف عام ١٨١٩ بدأ أعضاء الجمعية الجديدة بالاستيطان في قرية من أملاك الفارس كورنتال Kornthal ، قرب مدينة شتوتجارت Stuttgart ، وبنوا منازل لهم عليها مع دار للاجتماعات العامة (١٠) .

في كورنتال ترعرع ابنا غوتليب هوفمان : فيلهلم (الأكبر) وكريستوف، وتربيا تربية دينية ؛ فحصل الأول على منصب ديني رفيع في بلاط ملك بروسيا، وهو منصب قسيس البلاط Hof prediger ، بينما ورث الثاني، الذي يصغره بتسع سنوات ، أباه في رئاسة الجمعية الدينية (١١). درس كريستوف الفلسفة والتاريخ في جامعة توبنجن Tuebingen . واشتغل في التعليم . ولما اشتد ساعد الحركة العلمانية المناهضة للمسيحية في المانيا في الاربعينات من القرن التاسع عشر ، برزت هذه الجمعية الدينية للدفاع عن المسيحية، معتبرة المبادىء المسيحية الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الاصلاح الاجتماعي في المانيا . وتولى كريستوف مهمة الدفاع عن هذا الاتجاه الديني . وأصدر في أيار عام ١٨٤٥ ، بالتعاون مع صديقه عمانويل باولس Immanuel Paulus ، الصحيفة الاسبوعية Die Sueddeutsche Warte للتعبير عن هذا الاتجاه المسيحي الاصلاحي (١٢) .

وجاءت أحداث عام ١٨٤٨ الثورية في المانيا فأدخلت الرعب في قلب كريستوف هوفمان . وتأكد له من أحداث ذلك العام الرهيبة أن « مسيحية الكنيسة مقتصرة على الوعظ الديني المجرد من الحياة ، ، وأنها قائمة على قوة العادة ، وعاجزة عن وقف التفكك والانحلال » . ووجد أن « المسيحية قد تخلت عن مهمتها الأساسية الروحية، وغاصت في أوحال

المادية،وتمسكت بالقشور الخارجية » . ورشح نفسه في ذلك العام عن مدينة لودفيجزبورغ Ludwigsburg في الانتخابات العامةللبرلمان الاتحادي الالماني « البندستاغ Bundestag »،الذي كان مقرّه مدينة فرانكفورت على الماين . وكان على مملكة فورتمبرغ أن تقدم ٢٨ نائبا عنها الى ذلك البرلمان . فاز هوفمان على خصمه مرشح الأوساط الليبرالية العلمانية ، فكان النائب الوحيد في البرلمان الاتحادي الالماني الذي يمثل حركة الأتقياء الالمان (١٣) .

وجد هوفمان في الاتجاهات الليبرالية والثورية،التي لقيت من يعبرعنها ويمثلها في برلمان فرانكفورت ، دليلا على فشل الكنيسة الانجيلية في القيام برسالتها . فعاد الى منطقته وبدأ الدعوة الى انشاء كنيسة حرة من الأوساط المتديّنة الورعة،وتأسيس جمعية انجيلية Evangaelische Verein مستقلة عن الكنيسة الانجيلية الرسمية،وكان ساعده الأيمن في دعوته هذه جورج دافيد هارديج Georg David Hardegg ، الذي تعرّف عليه عام ١٨٤٨ (١٤) ، وصديقه عمانويل باولوس .

واتخذت هذه الحركة الدينية اتجاها جديدا عام ١٨٥٣، مع اندلاع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا ، اذ سرى اعتقاد لدى الأوروبيين ان الدولة العثمانية على شفا الانهيار ، وأنّ تفكّكها بات وشيكا . وجاءت الاضطرابات الدينية التي حدثت في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية ، لتشد أنظار المتدينين الالمان الى الأرض المقدسة . وبرز كريستوف هوفمان يدعو الى سلخ فلسطين عن الدولة العثمانية،وجعلها موطنا لشعب الله Das Volk Gottes ، تنفيذا لوعود الأنبياء الواردة في التوراة . وشعب الله هذا ليس الشعب اليهودي ، الذي لم يعد له وجود ، وانما هو الشعب المسيحي الانجيلي .

وفي ٢٤ آب عام ١٨٥٤ دعت لجنة أصدقاء القدس، التي تشكلت من أتباع هوفمان ، الى اجتماع عام يعقد في فالدهورن Waldhorn، قرب لودفيجزبورغ، من أجل بحث الوسائل اللازمة لتحقيق مشروع هوفمان . واقترح هارديج في هذا الاجتماع التوجه الى البندستاغ، في فرانكفورت، والطلب منه أن يسعى لدى السلطان العثماني للسماح للألمان باستعمار فلسطين ، من أجل ايجاد عمل للعاطلين عن العمل في ألمانيا . وكان الشعار الذي طرحه هارديج في هذا الاجتماع « ينبغي ايجاد عمل للشعب الالماني » "die deutsche Nation muss Arbeit Haben." . ونفذ اقتراح هارديج، ووُقّع العريضة ٤٣٩ شخصا ، وحملها هوفمان وهارديج وقدماها الى البارون فون بروكش Von Brokesch، رئيس البندستاغ . غير أننا لا نعلم شيئا عن استجابة البندستاغ لهذه العريضة أو رفضها (١٥) .

وتولّت مجلة Sueddeutsche Warte، الناطقة باسم الجماعة الدعوة الى المشروع الجديد . واخذت في الوقت نفسه تشنّ هجوما على كنيسة فورتمبرغ الانجيلية الرسمية . وفي هذه الأثناء كتب فيلهلم هوفمان، من برلين، الى شقيقه ينصحه بالبقاء في حوزة الكنيسة الانجيلية، والابتعاد عن مغامرات هارديج . غير أن كريستوف لم يُعِرْ بالا لهذه النصيحة ، وكتب مشروع دستور للجمعية الجديدة سماه « مشروع دستور شعب الله Verfassungsentwurf des Volkes Gottes" . فتشكلت الجمعية في عام ١٨٥٤ تحت اسم "جمعية تجميع شعب الله في القدس Gesellschaft fuer Sammlung des Volkes Gottes in Jerusalem"، وجعلت هدفها السعي لجمع شعب الله في القدس لبناء مملكة الرب . ورأى قادة الجمعية أنهم بحاجة الى مزيد من الاعداد على أرض الوطن، لجمع أكبر عدد ممكن من الالمان وغيرهم قبل الهجرة الى فلسطين . وقام هوفمان وهارديج برحلات عديدة في أوروبا ، وحضرا في خريف عام ١٨٥٤ مؤتمرا

دينيا في باريس، وعرضا عليه مشروعهما، فلقي اهتماما من المؤتمرين .

وتبرعت بعض الأسر الثرية بالأموال لشراء الاراضي الواجب تجميع شعب الله عليها في المانيا قبل الانطلاق الى استعمار فلسطين . فتم شراء قطعة واسعة من الأرض في كيرشنهاردتهوف (Kirchenhardthof)، قرب فينندن Winnenden تحت منبع نهر النيكر Necker ، عام ١٨٥٦ . وتمكن هوفمان وهارديج من جمع عدد كبير من الأنصار، أُطلق عليهم اسم « أصدقاء القدس Jerusalem Freunde »، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف شخص . وساهمت سنوات الجدب التي شهدتها مملكة فورتمبرغ ، خلال السنوات الاولى من تشكيل هذه الجمعية ، في كسب العديد من الأنصار الراغبين في الهجرة الى فلسطين (١٦) .

وانتهت حرب القرم عام ١٨٥٦ دون أن تسفر عن انهيار الدولة العثمانية، كما كان يتوقع هوفمان وانصاره . وشنّت الكنيسة الانجيلية الوطنية في فورتمبرغ ، بتشجيع ودعم من حكومتها ، حملة شديدة على أصدقاء القدس . فأخذت أعدادهم تقلّ تدريجيا (١٧) .

وفي صيف عام ١٨٥٨ قررت الجمعية ارسال وفد مؤلف من هوفمان وهارديج والمزارع بوبيك Bubeck الى فلسطين ، ايمانا منها بأن المسألة الشرقية لم تُحلّ بمؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ، وأن لا بد من دراسة امكانية استعمار فلسطين . وصل الوفد الى فلسطين، والتقى بمطران القدس الانجليكاني صموئيل غوبات Samuel Gobat ، وبالمبشر الانجيلي شنلّر Schneller ، فشرحا للوفد أوضاع فلسطين، ولم يشجّعاه على تنفيذ مشروعه . وجمع الوفد معلومات جيدة عن البلاد من القنصلية البروسية في القدس . ولما عاد الوفد الى المانيا نشر هوفمان تقريرا عن الزيارة في مجلة Sueddeutsche Warte ، بيّن فيه المصاعب التي تعترض

الاستيطان في فلسطين ، واوضح أن لا بد من الاستعداد لذلك . ودامت فترة الاستعداد هذه عشر سنوات (١٨) .

دخل هوفمان وانصاره في أثناء ذلك في خلاف مع كنيسة فورتمبرغ الانجيلية،ادى الى طردهم منها في ٧ تشرين الأول عام ١٨٥٩ . واضطروا الى انشاء طائفة دينية خاصة بهم . فقدّم هوفمان اقتراحا الى مجلس الجمعية بتسمية الطائفة « الهيكل الروحي Der geistliche Tempel » او « طريق الخلاص Der Weg Zur Rettung » . أما فكرة « الهيكل » وتسمية الجمعية به،فتعود الى القس المعمداني جاكوب أمان Jakob Amman ، الذي انشأ في برن Bern ، بسويسرا،جمعية بهذا الاسم عام ١٦٩٣،بهدف اعادة بناء هيكل الرب في القدس (١٩) . ولا صلة لهذه التسمية بجمعية « فرسان الهيكل » التي تشكلت في مطلع القرن الثاني عشر،واستمرت في نشاطها حتى نهاية احتلال الفرنجة لبلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر .

واشتدت حملة الكنيسة الانجيلية على الطائفة الجديدة،فتفرق العديد من أفرادها ؛ غير أنها استطاعت أن تحافظ على بقاء بعضهم في حظيرتها،وأن تكسب الى صفوفها العديد من الاتباع خارج المانيا،وبخاصة في أوساط المهاجرين الالمان في أمريكا الشمالية وجنوب روسيا.

واعيد تنظيم الجماعة في كيرشنهاردتهوف عام ١٨٦١ تحت اسم جماعة الهيكل الالمانية Deutscher Tempel ، من أجل تجديد حياة « شعب الله» الدينية والاجتماعية . وحتى تكسب الجمعية ولاء العناصر القومية الالمانية، رفعت شعارات قومية المانية . وجاء في أحد بياناتها : « ان روح الشعب الالماني ومزاياه ينبغي أن تكون الطابع المميز لهيكل القدس واستعمار فلسطين ... ولا بد من السعي لدى سلطة المانية (او دولة المانية) لمتابعة

تحقيق هذا الهدف ». (٢٠)

واستمر قادة الجمعية يحضرون المؤتمرات الدينية التي كانت تعقد في برلين ولندن وبيرن وجنيف ، ويتجولون في العواصم والمدن الاوروبية الكبرى يدعون الى تحقيق مشروعهم . فقد شارك هارديج في المؤتمر الذي عقد في جنيف عام ١٨٦٧، والذي كان ضيف الشرف فيه غاريبالدي Garibaldi ، بطل الحرية في ايطاليا . كما حضر حفل انشاء الصليب الأحمر على يد السويسري هنري دينان Henri Dunant ، الذي ابدى اهتمامه بشؤون الشرق العربي في فترة مبكرة . فقد أصدر كتابا في باريس بعنوان « تجديد الشرق La Rénovation de l'Orient » عام ١٨٦٥ . وقام دينان أثناء اقامته في باريس بانشاء جمعية العمل الدولي من أجل تجديد فلسطين Oeuvre Internationale de la Rénovation de la Palestine ، وتولى منصب سكرتيرها العام ، وتولى انشاء فروع لها في باريس . واقام هارديج صلات وثيقة مع دينان . وتولى الأخير توجيه نداءات الى فروع « الجمعية الدولية لتجديد فلسطين »، من أجل هيمنة المسيحيين على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي .

وسعى دينان لدى السفير العثماني في باريس جمال باشا، ولدى الوزير المفوض الفرنسي في اسطنبول المسيو بوريه Bourrée ، من أجل حث الباب العالي على السماح للمستعمرين الالمان، من جمعية الهيكل، بشراء الأرض في فلسطين والاستقرار فيها . وتحت ضغط دينان جاء الجواب من الباب العالي يطلب تحديد موقع الأرض التي يريد المستعمرون الالمان شراءها . فاتصل دينان بهارديج، واقترح عليه ارسال مهندس مختص الى فلسطين من اجل اختيار الموقع المطلوب وتحديد مساحته . وكتب رسالة الى هارديج مؤرخة في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨ يقول فيها : « من

المعروف جيدا ان ارسال مهندس من أوروبا أمر مكلف (١٠٠٠٠ــ١٥٠٠٠ فرنك) ، وهذا مبلغ أولى بجمعيتكم أن توفره لها . ولذلك قمنا بالاتصال بعدد من الأشخاص،وبخاصة بالوزير المفوض بوريه،ليسأل اذا كان بالامكان ايجاد مهندس قدير وأمين،وبأجر قليل،في اسطنبول أو في أي مكان آخر في الشرق . واتصلنا بدورنا بمحل لوفنتال Loewenthal في يافا لهذا الغرض . ولكننا لم نستطع ان نحصل على المهندس المطلوب . وربما كان من الأفضل لو أن جمعيتكم اختارت مهندسا من بين أعضائها،وكلفته بالسفر الى فلسطين ... » . وفشل دينان وهارديج في العثور على المهندس المطلوب . واخيرا قررت الهيئة الادارية لجمعية الهيكل،في اجتماع عقدته في ٢٤ آذار ١٨٦٨ في كيرشنهارتهوف،ان يقوم هوفمان وهارديج بالسفر الى فلسطين في آب من العام نفسه،من أجل انشاء أول مركز، Tempel Post ، للجمعية على أرض فلسطين . وقد سرّ دينان بهذا القرار،وكتب الى هارديج في ٨ نيسان ١٨٦٨ يقول : « آمل أن نتمكن من احراز بعض التقدم في عملنا في هذا الصيف . وكلما طال الزمن زاد اقتناعي بذلك . يمكنك الاعتماد علي ، انني مؤمن بمستقبل فلسطين ... وسيكون لجمعيتكم الشرف الكبير في انشاء اول مستعمرة على الارض المقدسة ... » (٢١)

وفي ٦ آب ١٨٦٨ سافر زعيما جمعية الهيكل،هوفمان وهارديج،من كيرشنهاردتهوف مع أسرتيهما الى فلسطين . ومرّا بفيينّا حيث قابلا البارون فون أورزي Von Orsi، من وزارة الخارجية النمسوية،فوعدهما بأن يقدم ممثلو الحكومة النمسوية الدبلوماسيون النصائح والمساعدات الضرورية لهما . كما مرا ببودابست،وقابلا فرانز دياك Franz Deák ، صاحب فكرة الاتحاد النمسوي ــ الهنغاري . واخيرا وصلا الى اسطنبول، حيث رحّب بهما الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا

der Norddeutsche Bund" الذي كان قد تلقّى تعليمات من البلاط الملكي البروسي بتقديم التسهيلات اللازمة لهما ، نتيجة وساطة شقيق هوفمان، القس في البلاط البروسي . وفي ١٥ أيلول ١٨٦٨ تقدّم هوفمان وهارديج بطلب الى الباب العالي للموافقة على شراء قطعة من الارض مساحتهـــا ثلاثة اميال مربعة على جبل الكرمل في حيفا . وجاء اختيار موقع القطعـــة بتوصية من المفوضية الالمانية . وأوضحا في طلبهما هذا ان الغرض من الاستقرار في فلسطين ديني محض،وليس له أية أبعاد سياسيـــة ، وأن الاستيطان هناك سيقتصر على اعضاء جمعية الهيكل،وسوف يتم بصـــورة تدريجية . كما ابانا ايضا دور الجمعية المقبل في تطوير الزراعة والصناعة في البلاد ، ولذلك طالبا باعفاء المستوطنين الالمان من الضرائب لمدة تتراوح بين خمس وسبع سنوات،حتى يتمكنوا من تدبير امورهم . وأبديا رغبـــة المستوطنين في ادارة شؤونهم بأنفسهم،دون اي تدخل من السلطة الحاكمة.

واتصل هارديج بالوزراء المفوضين لدول النمسا وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة وروسيا وهولندا والسويد،وقال لهم : « ان ظـــروف شعبنا اقنعتنا بأن الوقت قد حان لبناء هيكل الرب في الارض المقدسة ؛ فاقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تعتبر بناء الهيكل الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حد سواء » . ورغم النشاط الحثيث الذي بذله زعيما جمعية الهيكل طوال مدة اقامتهما في اسطنبول (٤٥ يوما) ، لم يحصلا على الفرمان المطلوب . فغادرا العاصمة العثمانية في ٨ تشرين الأول ١٨٦٨ باتجاه بيروت،فوصلا اليها بعد أربعة عشر يوما . وقابـــلا هناك القنصل البروسي العام الدكتور فيبر Dr. Weber ، فقدم اليهما عددا من النصائح،ومنها أن لا يتنازلا عن الجنسية الالمانية،وأن يرفضـــا الجنسية العثمانية ، لكي يتمتعا بحماية القناصل الالمان . ومن بيروت سافرا الى حيفا فبلغاها في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٦٨ (٢٢) .

كان من الأسباب التي دفعت زعيمي جمعية الهيكل الى البـــــــدء بمشروعهما الاستيطاني في فلسطين ، صدور القانون العثماني للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٧، الذي أباح للرعايا الأجانب حق التملك في المدن والريف في كافة الولايات العثمانية . وأصبح هذا القانون نافذ المفعول في حزيران ١٨٦٨ . لذلك اعتقد زعيما جمعية الهيكل أن الطريق أمامهما قد فتح لشراء الأرض في فلسطين والاستقرار عليها (٢٣) .

مستعمرة الهيكليين في حيفا

عند وصول هوفمان وهارديج الى حيفا، استقبلهما نائب القنصل البروسي في المدينة، الهر تسيفوس Ziphos ، وقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من عون ومساعدة . وفي الأيام الأولى من اقامتهما وصل رد الباب العالي على طلبهما، يؤكد استحالة السماح لهما بشراء الارض في حيفـــا الا اذا حصلا على الجنسية العثمانية . ولكن هذا الرد لم يثنهما عـــن مشروعهما؛ فاجريا اتصالات بالبلاط البروسي، الذي اصدر تعليماته الى الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا في اسطنبول بضرورة التوسط لدى الباب العالي، وتذكير المسؤولين العثمانيين بأنهم سمحوا لرعايا دول أوروبية اخرى بشراء الأرض دون التجنّس بالجنسية العثمانية (٢٤) .

غير أن هوفمان وهارديج لم ينتظرا نتائج الاتصالات الدبلوماسيـــة، وبتشجيع من تسيفوس قاما بشراء قطعة من الأرض مساحتهـــا عشرة هكتارات عن طريق الاحتيال على القانون العثماني ؛ اذ تم الشراء عـــن طريق وسيط يحمل الجنسية العثمانية، وقام بدوره بتأجيرها لهما لمدة طويلة. ولما احتج القاضي على عملية البيع، سويت القضية بتدخل نائب القنصـــل البروسي (٢٥) .

وبدأ بناء أول مستعمرة المانية في فلسطين على قطعة الأرض هذه، التي

كانت تمتد من شاطىء البحر حتى سفح جبل الكرمل ، في ربيع عام ١٨٦٩ . ودُشّنت المنازل الاثنا عشر التي بنيت على هذه الارض في آذار ١٨٧٠ من قبل نائب القنصل البروسي تسيفوس ، واشتملت آنذاك على منازل للسكن، وبناء لمدرسة،وآخر للصلاة . وقد وُضع تصميم هذه المنازل والابنية مهندس دنماركي جاء من بيروت،اسمه لويفد Loyved .(٢٦)وعلى مدخل المستعمرة نقشت العبارة التالية باللغة الالمانية « لتنسني يميني ان نسيتك يا قدس Vergesse ich dein Jerusalem, So wurde meiner Rechten vergessen (1969) » ، وحرص هوفمان وجماعته على بناء المستعمرة على الطراز الالماني،وفتح الشوارع الواسعة فيها،وتزيينها بالأشجار والزهر والورود . كما اهتمت الهيأة الادارية للجمعية باختيار افضل العناصر من أعضائها للهجرة الى فلسطين،من أجل اقامة مجتمع متماسك مستقلّ عن المحيط العربي ؛ كما حرصت على اقامة صلات وثيقة بالوطن الام ، وعلى الحفاظ على مستوى حياتهم كأوروبيين في حيفا (٢٧).

ونَمَت هذه المستعمرة بقدوم مهاجرين جدد من كيرشنهاردتهوف، وبخاصة بعد ابرام اتفاقية بين مملكة بروسيا والدولة العثمانية في ٧ حزيران ١٨٦٩،نصّت على السماح للألمان بالاقامة والاستقرار في فلسطين . فبلغ عدد سكان المستعمرة في بداية عام ١٨٧٣ (٢٥٤) نسمة . وبلغ عدد بيوتها (٣١) بيتا ، استعمل عشرون بيتا الى جانبها كمعامل وورش للعمل. وفي عام ١٩٠٢ بلغ عدد سكانها ٥١٧ نسمة ، وبلغ عدد منازلها ٩٢ منزلا، والى جانبها ٩٥ ورشة عمل (٢٨) . وبلغ عدد سكانها عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (٧٥٠) نسمة (٢٩) . ونقص عدد سكانها بسبب الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧/١٩١٨،واعتقال العديد من الالمان،وتهجير بعضهم قسرا الى المانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى،والسنوات الأولى التي تلت توقيع معاهدة الصلح بين المانيا والحلفاء عام ١٩١٩ (٣٠) .

اعتنى الالمان في السنوات العشر الأولى من استيطانهم في حيفابزراعة الكرمة،وبناء معامل لانتاج النبيذ . غير أن مرضا اصاب الكرمة في الثمانينات من القرن التاسع عشر، فقاموا باقتلاعها . وكذلك اصيبت أشجار الحمضيات التي زرعوها بأمراض ادت الى اقتلاعها . عند ذلك انصب اهتمامهم على زراعة الزيتون،الذي كانوا يستخرجون منه صابونا من نوع جيّد،كانوا يصدرونه لالمانيا وامريكا الشمالية .

واقاموا في المستعمرة طاحونة هوائية على الطراز الهولندي،كما انشأوا مزرعة للألبان . وانصرفوا تدريجيا عن الزراعة،واتجهوا نحو التجارة والصناعة،حتى اصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا . وكانوا روادا في الصناعات والحرف اليدوية وتجارة الاستيراد والتصدير . وادخلوا الى حيفا المكتبات الحديثة،والأمسيات الموسيقية،والنوادي المسرحية، والنشاط الرياضي ؛ فكانت مثلا يحتذى من قبل السلطات العثمانية في المدينة (٣١) .

مستعمرة يافا :

في آذار عام ١٨٦٩ وفد الى هوفمان زائر من يافا من أصدقائه الذين تعرّف بهم في بازل ، هو المبشر الانجيلي زالميلر Saalmueller، يرافقه الالماني ميسلر Messler ، الذي اشترى المستعمرة الامريكية في يافا والمعروفة باسم « قرية آدامز Adams City ، وجاء يعرضها على الهيكليين الالمان بسعرمعقول.ومن المعروف أن هذه المستعمرة المؤلفة من تسعة عشر بيتا من الخشب،قد انشأتها طائفة دينية أمريكية جاءت الى فلسطين لتشهد عودة المسيح الى الأرض،كما كانت تعتقد . ولكنها هجرت المستعمرة بعد أن تبين لاتباعها أن النبوءة بعودة المسيح لم تتحقق ، وبعد أن فتكت بهم الأمراض (٣٢) .

لقي العرض الذي تقدم به ميسلر استجابة لدى الهيكليين، فاشتروا خمسة منازل منها بمبلغ (٦٥) الف فرنك فرنسي أول الأمر، ثم ما لبثوا ان اشتروا ثلاثة ارباعها في مطلع عام ١٨٧١ ، وبعد ذلك بعامين اصبحت المستعمرة بأكملها ملكا لهم (٣٣) .

وفي أيار ١٨٦٩ انتقل هوفمان من حيفا الى المستعمرة الجديدة، واوكل ادارة مستعمرة حيفا الى رفيقه هارديج . وباشر فور وصوله ببناء مستشفى صغير ودار للضيافة Gasthaus .

وحدث أن قام ولي عهد بروسيا، الأمير فريدريش Friedrich ، بالحج الى القدس في ذلك العام ، بعد أن حضر الاحتفالات بفتح قناة السويس ؛ فنزل في يافا في ٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٩ ، وزار المستعمرة الالمانية الجديدة . وكتب هوفمان عن هذه الزيارة في مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte في عددها الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٩، يقول : « لقد استقبلناه (ولي عهد بروسيا) على مدخل المستعمرة ، فنزل عن جواده وتحدث الى العديد منا بروح ودية ، ثم تجول في المستعمرة ، وزار منزل رئيس الجمعية . واتجه بعد ذلك الى دار الضيافة، حيث تناول مع حاشيته طعام الفطور . وودعناه بعد ذلك ، فركب جواده، يرافقه جنود البحرية (الالمان)، والباشا (العثماني)، والجند الاتراك نحو الرملة .. » . هذا وقد تبرع الامير البروسي ببعض المال للجمعية (٣٤) . وبلغت مساحة مستعمرة يافا هذه ستين هكتارا .

مستعمرة سارونا Sarona

توسع المستوطنون الهيكليون في يافا في نشاطهم ، واشتروا في عام ١٨٧١ قطعة من الارض على طريق يافا ــ تل أبيب مساحتها ٧٨ هكتارا، (بسعر الهكتار الواحد مئة غولد Guld) . وبدأ بناء المنازل على قطعة

الارض هذه في ٢٧ آب ١٨٧١،فكانت المستعمرة الالمانية الثالثة في البلاد . وتولى تصميم الابنية والتخطيط للمستعمرة المهندس الالماني ثيودور زاندل Theodor Sandel ، ابن طبيب المستعمرة الهيكلية في يافا الدكتور زاندل وقد انتقل الى المستعمرة نائب القنصل الالماني في يافا،مراد أفندي (أرمني الأصل) .

انتشرت الحمى بين سكان المستعمرة في عام ١٨٧٢ ، وفتكت بثمانية وعشرين شخصا من مجموع سكان المستعمرة،البالغ حوالي مئة نسمة(٣٥).

اشتهرت مستعمرة سارونا بزراعة الزهور والكرمة وتربية الأبقار، كما وجد فيها معمل لانتاج النبيذ .

وفيما يلي بيان بتطور هذه المستعمرة بين عامي ١٨٧٢ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٨٧٢	٦٣	٧٨	١ر٢
١٨٨٠	١٦٢	٢٢٣	١ر٤
١٨٩٨	٢٦٣	٤٦٩	١ر٧
١٩١٤	٢٠٠	٤٧٤	٢ر٤
١٩٢٦	٢٢٥	٤٩٢	٢ر٢(٣٦)

مستعمرة ريفايم Rephaim

اشترى الهر فرانك Frank ، أحد أعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا،قطعة من الارض في رفايم شمال غربي محطة سكة حديد القدس، خارج حدود البلدية ، في نيسان عام ١٨٧٢،وبنى عليها منزلا وطاحونة تعمل

بالماء . واخذ أعضاء الجمعية يتوافدون اليه ويشترون الأرض المجاورة . واعتنى سكان المستعمرة الجديدة باصلاح العربات التي تجرها الخيول . فمنذ عام ١٨٦٧ فتحت طريق للعربات بين يافا والقدس ، وكانت بذلك أول طريق للعربات في فلسطين . واهتم الالمان بالنقل بين يافا والقدس، وأصبح منتظما بعد بضع سنوات من انشاء المستعمرة الجديدة (٣٧) .

اصبحت مستعمرة ريفايم منذ عام ١٨٧٨ المقر العام لادارة جمعية الهيكل ؛ وبلغت مساحتها ٢٥ هكتارا . وكان معظم سكانها يشتغلون بالحرف اليدوية والتجارة والصناعة ، واشتملت على مدرسة ثانوية كاملة وروضة للأطفال (٣٨) .

مستعمرة فالهالا Walhala

انشأها المستعمرون الالمان في يافا عام ١٨٩٢ على طريق يافا ـ تل أبيب . واقيم في هذه المستعمرة مستشفى لمعالجة الالمان المقيمين في المستعمرات الالمانية في جنوب فلسطين (يافا ، سارونا ، فيلهلما) . وكان سكانها يمارسون التجارة والصناعة والحرف اليدوية ، ويعملون في وكالات التأمين والنقل البحري . وانشىء في المستعمرة معمل للاسمنت . وبنت (فندق القدس) في يافا الذي كان من أجمل فنادق المدينة (٣٩) .

مستعمرة فيلهلما Wilhelma

انشئت على يد المستوطنين الالمان في مستعمرتي يافا وسارونا عام ١٩٠٢ ، على بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من اللد، في وسط سهل خصيب ، بالقرب من سكة حديد اللد ـ حيفا . بلغ عدد سكان المستعمرة في العام الاول من انشائها ٩٤ نسمة . وفيما يلي بيان بتطور هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٩٠٣	٩٤	٨٢٤	٨ر٨
١٩١٤	١٩٥	٩١٩	٤ر٦
١٩٢٦	٢١٥	٩٥٩	٤ر٥(٤٠)

مستعمرة نويهاردهوف Neuhardhof

انشاها المستعمرون الالمان في حيفا من أجل الحصول على مزيد من الأرض، خارج نطاق المستعمرة الهيكلية الأولى في البلاد . وتقع المستعمرة الجديدة على بعد اربعة أميال الى الجنوب من جبل الكرمل . وبلغت مساحتها اربعمئة هكتار . وقد استُغلّت ارض المستعمرة لزراعة الخضروات والحبوب (٤١) .

مستعمرة بيت لحم في الجليل Bethlehem

انشاها المستوطنون الالمان في حيفا عام ١٩٠٦، بأموال من « جمعية شتوتجارت لتطوير الاستعمار الالماني في فلسطين »، على أرض قرية بيت لحم الواقعة على سفوح جبال الجليل، والتي تبعد بضعة أميال عن مدينة الناصرة . لها مساحتها ألف وسبعمائة هكتار ، زُرع ثلثها باشجار البلوط، والباقي باشجار الكرمة والفواكه والحبوب . وفيما يلي بيان بنمو هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٧ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٩٠٧	١٠	٧١٨	٥٤ر٨
١٩١٤	٤١	٧١٨	١٣ر٣
١٩٢٦	٩٨	٧١٨	٤ر٥ (٤١)

مستعمرة فالدهايم Waldheim

انشئت هذه المستعمرة عام ١٩٠٧ بالقرب من بير سالم على يد المسؤولين عن دار الأيتام السورية Das Syrische Waisenhous ، لتكون مركزا لتدريب خريجيها واستغلالها لتمويل دار الأيتام . ولذلك لا صلة لها بمستعمرات جمعية الهيكل .

مستعمرة شمه Chemeh

كانت تتبع بدورها دار الايتام السورية في القدس، ولم تختلف عن مستعمرة فالدهايم من حيث الأغراض التي انشئت من أجلها (٤٢) .

اشتملت كل مستعمرة من مستعمرات الهيكليين على قاعة للاجتماعات العامة، واخرى للعبادة، ومدرسة، وروضة اطفال او أكثر، وجمعيات للموسيقى، وناد رياضي، ومستوصف صغير أحيانا . .

المصاعب الداخلية التي واجهها المستعمرون الالمان :

في السنوات الأولى للاستيطان واجه المستعمرون الهيكليون صعوبات

ومتاعب عديدة بعضها أمني وبعضها الآخر اقتصادي واجتماعي . لذلك اهملوا الامور الروحية،وفشلوا في كسب انصار حدد لحركتهم في فلسطين وفي المانيا . وبلغ مجموع من استقر منهم في فلسطين بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٥ نحو سبعمئة وخمسين عضوا ، اي نجو ربع عدد أعضاء الجمعية. وبعد عام ١٨٧٥ اخذت جمعية الهيكل في الاضمحلال التدريجي في المانيا نفسها،وتوقفت منذ ذلك العام هجرتهم من المانيا ، ومات معظم الجيل الأول من هؤلاء المستعمرين في أواخر السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر .

ادرك الجيل الجديد تعذر تحقيق الغاية من هجرتهم الى فلسطين، وهي جمع « شعب الله » في القدس واقامة مملكة المسيح . وتركّز اهتمامهم على تحسين احوالهم،وتقديم نمط معين من المعيشة للسكان المحليين . وساهم هذا التغيّر في اهداف الجمعية في جعل الحياة أسهل .

كانت اول الصعوبات التي واجهها المستعمرون الهيكليون في فلسطين النزاع بين زعيمي الجمعية،كريستوف هوفمان وجورج هارديج ؛ كان هوفمان المؤسس الروحي للجمعية ، وكان هارديج المنفذ لفكرة المستعمرات. اما أسباب الخلاف بينهما فشخصية،تدور حول كيفية تطوير الاستيطان الالماني ، وحول بعض الآراء الدينية .

فقد تولى كل منهما ادارة مستعمرة مستقلة عن الاخرى. وكانت مستعمرة حيفا من نصيب هارديج بينما كانت مستعمرة يافا من نصيب هوفمان . وكان هارديج قد اسرع الى شراء اراضٍ تابعة لمستعمرته دون التنسيق مع هوفمان . وعارض هارديج بشدة نقل المعهد الثانوي الى ريفايم، قرب القدس . وحصل خلاف بين هارديج والهيأة الادارية لجمعية الهيكل في شتوتجارت،حول أموال صندوق الاستعمار التابع للجمعية،

Kolinisations Kasse . ورفض هارديج أن يجيب عن كيفية صرفه لهذه الأموال، فاتهمته الهيأة الادارية بالتبذير . وكان لسلوكه المتصلب اثر في ابتعاد الهيكليين في فلسطين عنه ؛ فقد كان منفّرا في تصرفاته . ولما أجريت الانتخابات لاختيار القيادة الجديدة للجمعية، عام ١٨٧٤، لم ينجح هارديج . فما كان منه الا أن أعلن انسحابه من الجمعية . وصدرت مجلة الجمعية " Suddeutsche Warte " في ١٧ تموز ١٨٧٤ بآخر مقال له بعنوان « وداعي لجمعية الهيكل Mein Abschied » . " von der Gesellschoft des Tempels ، أكد فيه التزامه بمبادىء الجمعية رغم انفصاله عنها . وخرج مع هارديج عدد من أصدقائه، فشكلوا « رابطة الهيكل، Der Tempelverein » . ومنذئذ تولى القيادة العليا للجمعية كريستوف هوفمان، الذي أصبح يتمتع بسلطات واسعة . فأعاد تنظيمها بحيث أصبح لها مجلس استشاري، Tempelrat، مؤلف من مئة عضو . ووثّقت الجمعية صلاتها بفروعها في المانيا وأمريكا الشمالية وجنوب روسيا، بأن أصبح لهذه الفروع ممثلون في مجلس الجمعية الاستشاري . وفي مطلع أيلول من عام ١٨٧٤ دعي ممثلون عن فروع الجمعية للمشاركة في عيدها الذي أقيم في حيفا . وبناء على قرار مجلس الجمعية أُعتُبر يو م التاسع من أيلول عيدا لها . وتم الاحتفال بهذا العيد الأول بحضور المندوبين المذكورين . ومنذئذ تكررت اللقاءات في هذا العيد الذي كان القصد من استحداثه الحفاظ على الولاء للجمعية (٤٣) .

وحدث انقسام جديد في صفوف جمعية الهيكل، سببه الخلاف بين هوفمان ودافيد شتراوس، David Strauss ، خليفة هارديج في ادارة مستعمرة حيفا ، حول أسرار الكنيسة المقدسة، وتعاليم الثالوث الأقدس، والوهية المسيح، وموت المسيح الابن . وكان تأثير هوفمان العقلاني على جماعته قويا جدا ، لذلك بقيت أكثرية أعضاء الجمعية تدين له بالولاء .

وانفصل عدد ضئيل من الأعضاء واخذ يتقرب من الكنيسة الانجيلية .

واستغلت الكنيسة الانجيلية الانقسامات في صفوف جمعية الهيكل، فأوفدت القس راينكه، Reinecke ، من القدس منذ عام ١٨٧٩ الى مستعمرات الهيكليين . وقام خليفته القس شلخت ، Schlicht ، بالمهمة نفسها . وفي عام ١٨٩١ قررت « جمعية بيت المقدس، Jerusalem Verein » (٤٤) الانجيلية ارسال معلم الى مستعمرة حيفا ليقوم بتدريس أبناء الطائفة هناك، المنشقين عن هوفمان . وبعد ذلك بعام واحد بنيت مدرسة لهذه الغاية . وعندها قررت جمعية بيت المقدس ارسال القس ديكرت، Deckert ، الى حيفا . وبذلك اصبح للطائفة الانجيلية في حيفا مدرستها وكنيستها . وبلغ عدد الأسر التي عادت الى حظيرة الكنيسة الانجيلية من مستعمرة حيفا الهيكلية عشرين أسرة (٤٥) .

وكان للحرب العالمية الاولى آثار سلبية على المستعمرات الالمانية ، اذ منيت بخسائر فادحة على الصعيد الاقتصادي . ومع ذلك بلغ عدد المستوطنين الالمان في عام ١٩١٨ نحو الفي نسمة (٤٦) .

الحركة الثقافية في المستعمرات الهيكلية الالمانية في فلسطين :

سعى كريستوف هوفمان ، الزعيم الروحي لجمعية الهيكل، منذ وصوله الى فلسطين الى انشاء مؤسسة تعليمية تهيء التلاميذ من أبناء أعضاء الجمعية الى الالتحاق بالتعليم الجامعي في المانيا . كتب هوفمان الى رفيقه باولوس في ٢٨ أيار ١٨٧٠ يقول : « ان المدارس تشغل بالي ليل نهار » . وكان هم هوفمان تنشئة أجيال جديدة مؤمنة بالرسالة التي كرس نفسه لها . ولم تكن المدارس التي انشأتها الجمعية في مستعمراتها السابقة الذكر مجرد مدارس دينية، وانما كانت تدرّس الرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم الفنية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحديثة (الالمانية والفرنسية

والعربية) . وكان التعليم الديني أساسيا في هذه المدارس .

ولعل ابرز انتاج ثقافي للهيكليين في فلسطين هي مؤلفات زعيميهم كريستوف هوفمان وجورج هارديج ؛ فقد تولى الأول رئاسة تحرير مجلة الجمعية« Sueddeutsche Warte » التي كانت تصدر في شتوتجارت مدة طويلة من الزمن،واصدر في عام ١٨٧٥ ، كتابا مهما هو « الغرب والشرق : تاريخ ثقافي من وجهة نظر جماعة الهيكل في فلسطين : Okzident und Orient : Eine Kulturgeschichte Betrachtung Vom Standpunkt der Tempelgemeinden in Palaestina, Stuttgart, Druck und Verlag J.F. Steinkopf, 1875.

ويتضمن هذا الكتاب المبادىء الأساسية لعقيدة الهيكليين بعد الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .وفيه ايضاحات جيدة لأفكار هوفمان وتطلعاته . ويتضمن الفصل الأول منه عرضا لتطور جمعية الهيكل وفكرتها الاستعمارية ، ومدى صلتها بحركة الأنقياء القديمة ، وموقفها من المسائل الكنسية والعلمية والاجتماعية . ويؤكد هوفمان في هذا الفصل ان الهدف الأول للجمعية السعي الى استعادة ما فقدته الكنيسة من هيمنة روحية على رعاياها،وثقة المثقفين والمؤمنين بها ، وتحقيق تعاليم الكتاب المقدس .

أما الفصل الثاني من الكتاب فيدور حول الشرق وحاجاته ، مؤكدا على أن على مستقبل الشرق يقوم التجديد الديني للانسانية . ويبين أن الواجب الديني ينبغي أن يحرّك المسيحيين المؤمنين الى الهجرة الى فلسطين،التي لا يمكن مقارنتها بالهجرة الى امريكا واستراليا من وجهة نظر اقتصادية ، لأن فلسطين بلد فقير جدا،لا تتوفر فيه المصادر الطبيعية الكافية .

ويتضمن الفصل الثالث من الكتاب موضوع « الغرب ومستقبله »، يتناول فيه هوفمان الوضع الدولي ، بصفته سياسيا ، منطلقا من المسألة الدينية التي هي محور تفكيره . يقول في هذا الصدد ان الحزب الوطني الحر، Der Nationalliberden Partei ، في المملكة الالمانية (١٨٧٥) قد اهمل النور القيادي للدين،« لان مجرى تاريخ العالم تحركه افكار روحية عميقة » .

ويكرس الفصل الاخير منه للمسألة الشرقية ، ويرى استحالة حل هذه المسالة بفن الدبلوماسية،او باللجوء الى القوة . اما الحل الذي يقترحه فحملة صليبية سلمية تضمن الاستعمار المسيحي للشرق ، وتقديم صورة حية حقيقية للشرقيين عن التدين والاخلاق المقرونين بالعمل ، وبخاصة بعد ان اتضح ان التبشير المسيحي بين المسلمين لم ينل احترامهم واهتمامهم .

اما الكتاب الثاني لهوفمان فيتضمن ثلاث رسائل مفتوحة، Sendschreiben، نشرها خلال ١٨٧٧/١٨٧٨ .وقد اصدرتها مجلة الجمعية في كتاب واحد في شتوتجارت عام ١٨٧٨ بعنوان : « رسائل مفتوحة عن الهيكل ، والاسرار المقدسة ، وعقيدة الثالوث ، والوهية المسيح ، وابوّة الله للبشر .

Sendschreiben Ueber den Tempel und die Sakramente, das Dogma Ueber die Dreieinigkeit und von der Gottheit Christi, Sowie Ueber die Versoehnung der Menschen mit Gott, Stuttgart, Warte des Tempels, 1878."

تناول هوفمان في هذه الرسائل عقائد الكنيسة بشأن الثالوث الاقدس، وما قبل وجود المسيح،وموت المسيح وعودته . وقد احدثت الآراء التي نشرها انقساما في صفوف جماعته . وانشأت مجموعة منها في يافا جمعية اطلقت عليها اسم « مؤسسة الهيكل » Tempelstift تولت ادارة

المدرسة والمستشفى في مستعمرة يافا .

ونشر هوفمان مقالات عديدة ونشرات كثيرة حول الدراسات التوراتية، والدروس الدينية للشباب . وتمكن من انجاز كتابة مذكراته التي نشرت بعنوان « طريقي الى القدس » Mein Weg nach Jerusalem » . ونشر الجزء الأول منها في القدس عام ١٨٨١ بعنوان « ذكريات من شبابي» Erinnerungen aus meiner Jugend »، ونشر الجزء الثاني منها في القدس أيضا عام ١٨٨٤ بعنوان « ذكريات سن الرشد» Erinnerungen des Mannesalters » .

ومن الجدير بالذكر ان هوفمان أصدر كتابا آخر في بداية اقامته في فلسطين بعنوان « أشعار وأغان » Gedicnte und Lieder »، صدر في شتوتجارت عام ١٨٦٩ .

اضطر هوفمان بسبب المرض الى العودة الى المانيا عام ١٨٨١، فتخلى عن رئاسة جمعية الهيكل، وتوفي في ٨ كانون الأول ١٨٨٥ (٤٧) .

أما جورج دافيد هارديج، رفيق هوفمان والزعيم الثاني لجمعية الهيكل، فقد شارك في تحرير مجلة الجمعية « Sueddeutsche Warte » منذ أن تعرّف بهوفمان عام ١٨٤٨ . وأصدر كتابين قبل الهجرة الى فلسطين، هما: « الانجيل السرمدي» Evangelium Das Ewige » و « وسائل لحل المسألة الاجتماعية » Mitteln Zur Loesung der Sozialen »، صدرا في شتوتجارت عن دار كارل شولر عام ١٨٦٦ Frage, Verlag Von Carl Scholer »، كما أصدر آخر مؤلفاته عام ١٨٧٧ بعنوان: "المسألة التركية

Die Tuerkische Frage Oder die sechste Zornschale von einem Laien, Stuttgart, bei Messler Buchdrucker, 1877."

وتوفي هارديج في ١١ تموز ١٨٧٩ في حيفا (٤٨) .

المستعمرات الالمانية في فلسطين والعلاقات الالمانية ــ العثمانية

ينبغي علينا، عند معالجتنا لموقف المانيا من المستعمرات الهيكلية في فلسطين، التمييز بين موقفين : موقف الحكومة الالمانية القيصرية، وموقف الراي العام الالماني .

ففي ظل المنافسة القائمة بين الدول الاوروبية الكبرى على الشرق العربي، كان من المفروض ان تستغلّ الحكومة الالمانية وجود طائفة من مواطنيها في فلسطين لصالحها . غير ان دراستنا للوثائق الموجودة في الارشيف السياسي لوزارة الخارجية الالمانية افضت الى عكس هذا الافتراض ؛ فقد اتصف الموقف الرسمي الالماني من هذه المستعمرات بالتحفّظ، لاعتقاد المسؤولين الالمان ان النفوذ الذي يمكن لالمانيا أن تحققه من خلال دعمها لهذه المستعمرات، لا يساوي المصاعب التي قد تواجهها في علاقاتها مع الدولة العثمانية .

غير ان وزارة الخارجية الالمانية كانت عاجزة عن التصرّف، انطلاقا من الاعتبارات السياسية الصرفة ؛ اذ تدخلت عدة عوامل أدت الى تصرفها ، في كثير من الاحيان ، بصورة مناقضة لما اعتبرته مناسبا في العلاقات الالمانية ــ العثمانية . ومن أهم هذه العوامل التي أكرهت برلين على تقديم العون للمستعمرين الالمان في فلسطين، الراي العام الالماني، والبلاط القيصري، ووزارة خارجية مملكة فورتمبرغ، والبحرية الالمانية .

كان الراي العام الالماني اكثر هذه العوامل فاعلية ؛ فقد كان المستعمرون الالمان في فلسطين ينشرون تقارير في الصحف الالمانية بصورة

متقطعة احيانا ومنتظمة احيانا أخرى عن نشاطاتهم . وكثيرا ما كانت هذه التقارير الصحفية تؤكد عداء السكان العرب والادارة العثمانية لهم . وكانت الأوساط القومية الالمانية تتجاهل في البداية المبالغة الواردة في هذه التقارير ، غير أنها غضبت لتجاهل حكومة برلين للمعاملة القاسية التي زعم المستعمرون أنهم يعاملون بها من طرف السلطة العثمانية . والواقع أن اهتمام أوروبا المتزايد بالاحداث الجارية في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر صاحبه زيادة في كمية المعلومات المنشورة في الصحف المحلية عن تلك الأحداث . وقد استغلّ قادة جمعية الهيكل هذا الوضع أحسن استغلال ، اذ كانوا خبراء في هذا الميدان الاعلامي .

أما البلاط الملكي ووزارة الخارجية في مملكة فورتمبرغ فقد كانا معاديين ، من حيث المبدأ ، لنشاطات جمعية الهيكل ، وذلك لاعتبارات دينية محضة . غير أن هذا الموقف الديني اتّجه الى الاعتدال بعد انتشار الليبرالية في أوروبا بوجه عام وفي المانيا بوجه خاص ؛ وخفّ ، مع الزمن ، هجوم الهيكليين في مجلتهم Sueddeutsche Warte على الكنيسة الانجيلية والسلطة السياسية في فورتمبرغ (٤٩) . واخذ العديد من أعضاء جمعية الهيكل يعودون الى حظيرة الكنيسة الانجيلية حتى بلغ عدد هؤلاء عام ١٨٧٤ نحو ثلث أعضائها . وبدلا من التطرّف الديني ، نما شعور جديد في مملكة فورتمبرغ بأن على الوطن الأم واجب حماية أبنائه في ديار الهجرة ، وهم يتعرضون لاهمال البروسيين . ولم تعد حكومة شتوتجارت تقتنع بالاعتبارات التي اعتمدت عليها وزارة الخارجية في برلين في تعاملها مع المستعمرين الالمان في فلسطين .

وكانت القوات البحرية الالمانية المرتبطة مباشرة بالقيصر ذات نفوذ واسع ، وتتلقى باستمرار تقارير من ضباط البوارج الحربية التي كانت

تتردد على الموانىء الفلسطينية . ولعل اهتمام القيصر فيلهلم الثاني بالبحرية زاد من أهمية هذه التقارير التي كان يقرأها القيصر نفسه، ويعلق عليها بخط يده . وكان معظم ضباط البحرية الالمان الذين يترددون على فلسطين يميل الى قبول وجهة نظر المستعمرين الالمان، القائلة بأن برلين لم تبذل الجهد الكافي لحمايتهم (٥٠) .

وعندما طلب أصدقاء القدس ، Jerusalem Freunde ، من البندستاغ في فرانكفورت أن تتوسط النمسا وبروسيا ، العضوان في الاتحاد الالماني ، لدى السلطان العثماني للسماح لهم بالاستيطان في فلسطين ، رفضت الدولتان هذا الطلب بصورة قطعية ، وذهبت النداءات الشخصية الموجهة الى مندوب بروسيا في الاتحاد ، أدراج الرياح (٥١) .

ولما سافر وفد جمعية الهيكل الى فلسطين عام ١٨٥٨ لدراسة امكانية الاستيطان فيها ، طلب من ملك بروسيا، فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV ، الذي كانت تربطه بفلسطين صلات عاطفية دينية ، أن يزوّده بعدد من الخبراء الرسميين . وليس هناك ما يدل على استجابة ملك بروسيا لهذا الطلب (٥٢) .

ولما قرر الهيكليون عام ١٨٦٨ البدء بالاستيطان في فلسطين، طلبوا من جديد المساعدة من ملك بروسيا . وكان فيلهلم هوفمان، شقيق رئيس جمعية الهيكل (كريستوف هوفمان)، يشغل آنذاك أعلى منصب كنسي في برلين General superintend ent ، وقسيس البلاط الملكي ، وله نفوذ كبير على ملك بروسيا . غير أن الملك طلب من وزارة الخارجية أن تتعرف على موقف حكومة فورتمبرغ من جمعية الهيكل قبل تقديم أية مساعدة لها . وجاء جواب وزير الخارجية في شتوتجارت في ١٦ أيلول ١٨٦٨ يقول ان آراء الجمعية ومواقفها المعادية من الكنيسة الانجيلية تجعلها

عنصرا غير مرغوب فيه . كما أن الظروف الصعبة في فلسطين سوف تنهي مشروعها بالفشل (٥٣) . غير أن نفوذ فيلهلم هوفمان تغلب على راي وزارة الخارجية في شتوتجارت،وصدرت التعليمات الى الممثلين الدبلوماسيين البروسيين لدى الدولة العثمانية لتقديم العون للهيكليين . فبذلوا جهودا كبيرة لحماية الهيكليين في حيفا . ولكن الهيكليين لم يرضوا عن تردد بروسيا في دعمهم ، واصيبوا بخيبة أمل كبيرة (٥٤) .

واذا استثنينا الدعم الذي قدمته برلين للهيكليين اثناء المفاوضات الاولى مع البابِ العالي ، فان المستعمرات الالمانية في فلسطين لم تتمكن من اثارة اهتمام حكومتي برلين وشتوتجارت خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤ . أما على صعيد الراي العام الالماني فقد حظي مشروع الهيكليين منذ بدايته بتاييد الصحافة الوطنية : ففي نهاية عام ١٨٦٨ نشرت صحيفة Augusburger Allgemeine Zeitung مقالة للبروفسور زيب Sepp ، مؤرخ الكنيسة والسياسي الالماني جاء فيها : « أن قيصر المانيا الكبير فريدريش بربروسّا Friedrich Barbarossa قد قضى نحبه من أجل امتلاك الارض المقدسة ، وترك للألمان واجب استعادة السيطرة على فلسطين العزيزة على قلب كل مسيحي . ولا بد أن تجد المانيا في نهاية المطاف نصيبها من الاستعمار ، ومن أجل هذه الغاية ينبغي تشجيع هجرة الالمان الى فلسطين (٥٥) .

أما موقف السلطات العثمانية الذي كان معارضا لقيام المستعمرات الالمانية في فلسطين،فقد تغير منذ قيام الوحدة الالمانية عام ١٨٧١ . فوالي دمشق رشيد باشا ، الذي تعرف على نشاط الانجيليين الالمان في بسرابيا ، كان يعطف على الالمان،حتى انه وعد القنصل الالماني العام في بيروت بمنح الهيكليين قطعة من الأرض في حيفا هدية . وقام هارديج بزيارة الوالي في

اثناء وجوده في بيروت،وعرض عليه خطة لاستغلال جبل الكرمل . فما كان من رشيد باشا الا ان ارسل سكرتيره الخاص ليعد تقريرا عن المنطقة المطلوبة في عام ١٨٧١ . وكانت خطة هارديج تقوم على انشاء مصح على قمة الكرمل،وربطه بمسبح على شاطىء البحر . ورغم جهود القنصل الالماني فريدريش كيلر ، Friedrich Keller : ، في سبيل تحقيق هذا المشروع ، امتنعت الحكومة العثمانية عن اصدار فرمان باهداء جبل الكرمل للهيكليين (٥٦) .

وحدث تغيير في موقف وزارة الخارجية الالمانية من الهيكليين بعد عام ١٨٧٥ . وكان السبب في ذلك المظاهرات التي قام بها المسلمون في فلسطين في اثناء الحرب البلقانية في ذلك العام . اذ خشي القناصل الاجانب قيام تحرك اسلامي ضد الاجانب في فلسطين ، وعلى راسهم المستعمرون الالمان (٥٧). وبناء على طلب الهيكليين ، وافقت الحكومة الالمانية على ارسال بوارجها الحربية الى الموانىء الفلسطينية في مظاهرة عسكرية،القصد منها تطمين المستعمرين الالمان . وفي ٢ حزيران ١٨٧٧ اصدر وزير الخارجية الالماني فون بيلوف، Von Buelow ،تعليماته الى السفير الالماني في اسطنبول بالخطوة الاستثنائية التي اتخذتها الحكومة الالمانية . وجاء في هذه التعليمات : « وافق القيصر على طلب المستشار بسمارك ارسال قواتنا البحرية الى الشرق ، آخذا بعين الاعتبار الوضع الراهن هناك .. ان الهدف الاول للاسطول ظهور العلم الالماني في الموانيء التركية من اجل حماية رعايانا هناك،ومن اجل التعبير عن اهتمام حكومة القيصر برعاياها في ضوء قلقهم الناشيء عن الحرب ... وحماية ارواحهم وممتلكاتهم، بالتدخل الفعال اذا اقتضت الضرورة ذلك » (٥٨) .

واصدرت وزارة الخارجية في برلين سلسلة من التعليمات الى

سفرائها في أوروبا لاقناع الدول الأوروبية بانه ليست وراء ارسال الأسطول الالماني الى الموانىء العثمانية اية دوافع سياسية ، وان السبب الوحيد هو الدفاع عن الرعايا الألمان في الشرق (٥٩) .

أما على الصعيد المحلي في فلسطين، فقد شعر المستعمرون الالمان في شباط ١٨٧٧ ، بينما كان مئات الشباب من المسلمين يتجهون الى يافا وحيفا للسفر الى سالونيك للمشاركة في القتال، انهم قد يتعرضون للأذى. وقام وكيل ضابط سابق الماني بتدريب الشباب الالمان على التمارين العسكرية في مستعمرة سارونا. وطلب هوفمان من القيصر حماية المواطنين الالمان من أي اعتداء محتمل من جانب المسلمين . وفي يوم عيد الفصح من عام ١٨٧٧ أرسى الطراد الالماني غاتسيله، Gazelle ، في ميناء يافا . وكان عليه أربعمئة جندي وثمانية عشر مدفعا . وكان يقود الطراد الأمير فون هاكه ، Graf Von Hacke ؟ وجاء هوفمان وممثلون عن الهيكليين الى ميناء يافا لتقديم شكرهم لقائد الطراد لحماية الحكومة الألمانية لمواطنيها . ولما رد قائد الطراد على زيارة هوفمان ورفاقه بزيارة مستعمرة سارونا ، أقام المستعمرون الالمان الاحتفالات الضخمة بهذه المناسبة . وحدث شيء مماثل لذلك عندما زار الطراد نفسه ميناء حيفا في الفترة نفسها . وفي صيف العام نفسه قامت أربع بوارج حربية المانية بزيارة الساحل السوري والفلسطيني (٦٠) .

وبدأت بعد هذه المظاهرة العسكرية مرحلة من العلاقات الوديه بين الهيكليين والحكومة الألمانية، واستجابت الحكومة الالمانية لطلب الهيكليين بدعم مدارسهم في فلسطين، فقدمت وزارة الخارجية الالمانية مبلغ ٣٧٥٠ ماركا منحة سنوية لهذه المدارس . وكان هذا المبلغ يعادل ربع الموازنة السنوية لتلك المدارس . ومن الجدير بالذكر ان هذه المنحة هي المعونة

المالية الرسمية الوحيدة التي قدمتها الحكومة الالمانية للهيكليين منذ بداية مشروعهم الاستعماري في فلسطين عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩١٨ .

/ وفي عام ١٨٨٠ سعى الهيكليون الى اعتراف الحكومة العثمانية بالتنظيم الاداري المستقل لمستعمراتهم . وايدهم في هذا المسعى القنصل الالماني العام في القدس مينشهاوزن ، Muenchhausen ؛ غير ان مسعاهم باء بالفشل . كما فشلت محاولتهم لدفع وزارة الخارجية الالمانية الى التوسط لدى الحكومة العثمانية لتوسيع حقوق الأجانب المقيمين في الولايات العثمانية (٦١) . وحدثت أزمة عنيفة بين الهيكليين والحكومة الالمانية سببها الخدمة العسكرية في المانيا ؛ ذلك أن عددا قليلا من المستعمرين الالمان قد اتم الخدمة العسكرية الاجبارية في المانيا قبل الهجرة الى فلسطين؛ وكان هؤلاء يتمتعون بالجنسية الالمانية وفقا للقانون الالماني . أما الذين كانوا دون سن السابعة عشرة عندما غادروا المانيا،ولم يعودوا اليها للقيام بالخدمة العسكرية،فقد كان من الصعب منحهم حقوق المواطنة الالمانية . ومن المعروف ان العديد من الالمان وغيرهم قد دخل في حماية القنصليات الالمانية في فلسطين،إمّا بصفتهم مواطنين يتمتعون بحق المواطنة الالمانية ، Reichsangehoerige ، وإمّا بصفتهم رعايا تحت الحماية ، Schutzgenossen . وفي عام ١٨٨٠ أصدر المستشار الالماني بسمارك تعليمات الى القناصل الالمان في الدولة العثمانية يطلب فيها رفع الحماية عمّن لم يُقض الخدمة العسكرية في الجيش الالماني .

/ ودخلت الأزمة مرحلتها الحرجة اثر وصول خليفة القنصل مينشهاوزن، الدكتور رايتس ، Reitz ، الى القدس عام ١٨٨١ ، فقد بدأ يدعو الهيكليين الى مكتبه واحدا بعد الآخر،ويتهمهم بأن القصد من مشروعهم الاستعماري في فلسطين هو التهرب من الخدمة العسكرية في الجيش

الالماني . ولما حاول رايتس أن يرفع الحماية عن بعض الهيكليين،ثار غضب هوفمان زعيمهم ، وبعث باحتجاج شديد اللهجة الى المستشار الألماني . وقال في رسالته الاحتجاجية هذه : اذا كان رايتس يتصرف بناء على تعليمات من وزارة الخارجية،فان الهيكليين سوف يبحثون عن دولة أخرىللدخول في حمايتها ، وربما اضطروا الى الانتقال الى بلد آخر . ورجا هوفمان المستشار الالماني أن يعتبر العمل في المستعمرات الالمانية في فلسطين،ولعشرين سنة قادمة،كخدمة عسكرية . وطلب تعديل قانون الخدمة العسكرية الالماني،بحيث يأخذ بعين الاعتبار وضع الهيكليين في فلسطين . فاذا تعذر ذلك طلب هوفمان ابقاء الوضع كما هو عليه حتى عام ١٨٨٤،ليتمكن الهيكليون من ايجاد حل آخر (٦٢) .

وجاء رد المستشار الالماني ليؤكد أن تصرفات رايتس مبنية على تعليمات تلقاها من وزارة الخارجية الالمانية ، وانه من المتعذر استثناء الهيكليين في قانون الخدمة العسكرية . ولكنه اعترف بحقهم في التمتع بالحماية القنصلية الالمانية ، شريطة أن يطبّق عليهم قانون الخدمة العسكرية اعتبارا من عام ١٨٨١ (٦٣) . ومنذئذ شرع الهيكليون يرسلون ابناءهم الى المانيا للقيام بالخدمة العسكرية هناك،ومدتها ثلاث سنوات(٦٤).

وحدث تغيّر مهم في السياسة الالمانية نحو الدولة العثمانية في الثمانينات من القرن التاسع عشر ؛ ففي عام ١٨٨٠ لبّى المستشار الالماني بسمارك طلب السلطان العثماني بتزويد بلاده بالخبراء الماليين والعسكريين. وبدأت المانيا منذئذ الغزو الاقتصادي، Penetration Pacifique ، للدولة العثمانية . وأصبح دعم الدولة العثمانية وتقويتها ، على امل ان تكون في يوم ما حليفة لألمانيا ، هدفا مهما من أهداف السياسة الخارجية الالمانية . واستقدمت الدولة العثمانية العديد من الخبراء العسكريين

والاداريين الالمان . واخذ الشباب العثماني يتردد على المعاهد العسكرية والعلمية الالمانية . وبدأ بنك فلسطين الالماني Deutsche Palaestina Bank نشاطه في القدس، ثم فتح فرعا له في يافا وآخر في حيفا . وأخذت البواخر الالمانية تتردد بانتظام على الموانىء العثمانية . وتأسست في عام ١٨٨٩ شركة بواخر الشرق الالمانية ، die Deutsche Levante-Linie وبدأت رحلاتها بأربع بواخر، ثم ما لبثت أن زادت عدد بواخرها الى العشرين في مطلع القرن العشرين (٦٥) . وفي عام ١٨٨٨ حصلت شركة المانية على امتياز مدّ سكة حديد الاناضول (٦٦) .

وفي العام نفسه اعتلى عرش المانيا القيصر فيلهلم الثاني . وبعد عام من ذلك قرر أن تكون أول زيارة له خارج المانيا الى السلطان العثماني . وقد أعجب القيصر بآراء السفير الالماني في اسطنبول، البارون هاتسفيلد ، Baron Hatzfeld ، (١٨٧٩ — ١٨٨١) بشأن التعاون الالماني — العثماني . فقد رأى هاتسفيلد أن فرنسا تمتعت بوضع متفوق في الدولة العثمانية حتى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، وأن انجلترا، التي حاولت الحلول محل فرنسا، قد اثارت شكوك الاتراك بها بعد أن ضمّت قبرص اليها عام ١٨٧٨، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ . وينتهي السفير الالماني السابق الى القول إن فراغا قد وجد نتيجة لذلك، ولا بد لقوّة أوروبية من ملئه ، وإن المانيا هي الدولة المؤهلة لملء هذا الفراغ (٦٧) .

في نطاق الانفتاح العثماني على المانيا، ورغبة هذه الاخيرة في توسيع علاقاتها مع الدولة العثمانية، لم يكن للهيكليين الا اثر ضئيل جداً في هذا المجال ؛ اذ حرصت برلين على ازالة مخاوف العثمانيين من تجميع الاجانب على اراضيهم ، كما أن فلسطين تقع خارج نطاق المصالح الالمانية التي تركزت على طول سكة حديد بغداد .

لقد دار جدل طويل في أوساط وزارة الخارجية الالمانية حول موقف الحكومة الالمانية من الاستيطان الالماني في الدولة العثمانية على ضـــوء التطورات الجديدة . ففي عام ١٨٩١ طلب خليفة بسمارك، المستشاركابريفي، Caprivi ، من وزارة الخارجية ابداء رايها في اقتراح تقدم به السلطان العثماني الى القيصر فيلهلم الثاني، يتضمن انشاء مستعمرات المانيـــة على طول سكة حديد بغداد . وكانت أول مذكرة من وزارة الخارجيـــة تناولت هذا الاقتراح قدّمها الهر كيدرلين، Kiderlen ، من الدائرة السياسية في الوزارة . وقد بنى كيدرلين تحليله على تجربة الهيكليين في فلسطين . وجاء في مذكرته هذه :

« ان المستعمرات الالمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثالا مشجعـــا . فالمستعمرون يكسبون قوتهم بصعوبة ، ويتعرضون لعداء السكان المحليين والسلطات التركية . واذا كان المستعمرون المقترح توطينهم في آسيـــا الصغرى من الالمان، فسيواجه تناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، كما ستواجه سفارتنا تدخل الباب العالي المستمر . وهذا أمر لا بد مـــن أخذه في الحسبان . وقد يدمّر علاقاتنا الطيبة مع الاتراك بدلا من أن ينميها. والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك » (٦٨) .

وقدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الهر كايـــــزر، Kayser ، مذكرة مماثلة للمذكرة السابقة . يتبين لنا من هاتين المذكرتين أن وزارة الخارجية الالمانية كانت ترى في مستعمرات الهيكليين في فلسطين مثالا سيئا، وسببا دائما لتهديد العلاقات الالمانية ــ العثمانية بالتدهور . والواقع أن شكاوى الهيكليين اثارت غضب السلطات العثمانية ؛ كمـــا أن وجود المستعمرات الالمانية في فلسطين اثار حفيظة الدول الاوروبيـــة ضد المانيا . ولم تكن فلسطين، بامكانياتها المحدودة، البلد القادر على تلبيـــة

احتياجات المانيا ، فلا هي مصدر مهمّ للمواد الأولية، ولا هي سوق واسعة قادرة على استيعاب منتجات المانيا . ولذلك لم يكن فيها ما يستحق اهتمام المانيا الحقيقي في هذه الفترة .

ولعل ابرز الاحداث السياسية التي شهدتها فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، زيارة القيصر الالماني فيلهلم الثاني، في تشرين الاول عام ١٨٩٨، وهي زيارته الثانية للشرق . وكان الغرض المعلن من هذه الزيارة الحج الى الاماكن المقدسة : ففي ٢٥ تشرين الاول من ذلك العام، أرست ثلاث بوارج المانية تُقِلّ القيصر وحاشيته في ميناء حيفا . وفي صباح اليوم التالي تجمّع كافة افراد المستعمرة الالمانية في حيفا في باحة القنصلية الالمانية من اجل تحية القيصر . وقام فريدريش لانجه ، Friedrich Lange ، رئيس الجماعة الهيكلية في حيفا (ومؤرخ الجمعية) بالقاء كلمة في حضرة القيصر، شكره فيها على الدعم والمؤازرة التي يلقاها الهيكليون من القيصر، وبخاصة في ميدان التعليم . واكّد على ضرورة توثيق الصلات بين الهيكليين والوطن الام . وردّ القيصر عليه بالاعراب عن سعادته اذ يرى في قلب الارض المقدسة مستعمرة المانية لها علاقات وثيقة بالوطن الام، وقال بانه سوف ينقل الى ملك فورتمبرغ ما حققه مواطنوه من انجازات ؛ واكد حمايته لكافة الالمان. كما القى الدكتور شوماخر ، Dr. G. Schumacher ، لبن أحد قادة الجمعية، كلمة في حضرة القيصر أشار فيها الى قيمة الابحاث العلمية الالمانية عن فلسطين واحوالها (٦٩) . وتجوّل القيصر في المستعمرة، ثم اتجه الى يافا ومنها الى القدس . وخلال سفره الذي استغرق يومين، زار القيصر مستعمرات يافا وسارونا وريفايم، حيث استقبل استقبالا حافلا (٧٠) .

وفي اثناء هذه الزيارة اصبحت فلسطين والمستوطنون الالمان فيها موضوع الساعة في المانيا . وتاسست في شتوتجارت في تشرين الاول ١٨٩٩

« جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين » Gesellschaft Zur Foerderung der deutschen Ansiedlungen in Palaestina » تحت رعاية البارون فون ايليريكسهـــــــا وزن ، Freiherr Von Ellerichshausen ، من اجل تزويد الجمعية بالتبرعات المالية لتوسيع نشاطها وشراء المزيد من الارض . وتولى ادارة الجمعية الامير فون اوراخ، K. Von Urach ، بينما تولى رئاستها الفخرية النائب العام في المملكـــة الدكتور فون رو ب ، Von Rupp ؛ وتمكنت هذه الجمعية من جمع مبلـغ ثلاثمئة الف مارك،حوّلت الى جمعية الهيكل،فاشترت به قطعة من الارض مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة بالقرب من اللد،غير بعيد عن سكة حديد يافا ــ القدس . وانشأت عليها مستعمرة فيلهلما Wilhelma (٧١) .

واذا كانت زيارة القيصر لفلسطين قد بعثت الحماس في نفوس سكان مملكة فورتمبرغ،فانشأوا جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين ، فلم يتجاوز دعم القيصر للهيكليين اعجابه بمنجزاتهم،وتعاطفه معهم،ووعده لهم بأن يسعى لدى السلطات العثمانية لِتُعامِلَهم المعاملـــــة التـــــي يستحقونها (٧٢) . واذا عدنا الى وثائق الارشيف السياسي لـــوزارة الخارجية الالمانية لمعرفة نتائج زيارة القيصر هذه ، لم نجد فيها ذكرا أو اشارة للمستعمرات الالمانية في فلسطين ؛ فقد لخّص نتائج هذه الزيـــارة القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول في تقريـــر بعـث بـه الـى وزارة الخارجية (٧٣) ، ووُزّعت نسخ من هذا التقرير ، بناء على أوامر القيصر، الى كافة السفارات الالمانية في العالم ؛ وقد ورد في هذا التقرير أن الدافـع الأول لزيارة فلسطين هو دافع ديني . ولم ترد فيه اية اشارة للمستعمرات الالمانية فيها . والواقع أن زيارة القيصر لفلسطين لم تُحْدِث اي تغيير في السياسة الالمانية الرسمية نحو المستعمرات الهيكلية ؛ غير ان فلسطين بقيت منذئذ موضوع اهتمام الراي العام الالماني ؛ فقد اثار الوصـــــف

الحماسي للمستعمرات موجة من التعاطف الشعبي، ساعدت المستعمرين على التغلّب على المصاعب التي واجهوها، وبناء ثلاث مستعمرات جديدة . غير أن الأموال اللازمة لبناء هذه المستعمرات جُمعت من مواطني مملكة فورتمبرغ وحدها (٧٤) . وذهبت جهود جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين من اجل الحصول على تعاون القيصر الالماني لشراء الاسهم في المؤسسة المالية التي انشأتها ، سدى . هذا وقد لقيت الجمعية المذكورة اهتماما خاصا في مملكة فورتمبرغ ؛ ففي عام ١٩١٠ طلب وزير خارجية المملكة من ممثلها في برلين أن يتوسط لدى وزارة الخارجية الاتحادية لتضغط على الدويتش بانك، Deutsche Bank ، لمنح جمعية الهيكل قرضا مقداره مئة الف مارك للحفاظ على الطابع الالماني لمستعمرة سارونا، وتطوير مستعمرتي فيلهلما وبيت لحم في الجليل . وبينما كانت المساعي جارية للحصول على القرض المطلوب، انفقت حكومة برلين مبلغا يساوي عشرين ضعف هذا المبلغ على مؤسسة القيصرة اوغستا فكتوريا، Kaiserin Auguste Victoria Stiftung ، في القدس التي انشئت تخليدا لزيارة زوجة القيصر للمدينة المقدسة (٧٥) .

ومع مُدّ سكة حديد الحجاز وقيام الفرنسيين بمد السكك الحديدية في فلسطين، ازداد قلق الهيكليين، وشعروا ان البلاد تكاد تقع تحت النفوذ الفرنسي . وفي صيف عام ١٩١٣ قام وفد من جمعية الهيكل في فلسطين، مؤلف من رئيسها كريستيان روهرر Christian Rohrer ، وغوتليب شوماخر Gottlieb Schumacher ، بزيارة شتوتجارت وبرلين للسعي لدى حكومة فورتمبرغ وحكومة برلين الاتحادية لتجنّيب وقوع فلسطين في منطقة النفوذ الفرنسي . وفي آب ١٩١٣، قدّم الوفد مذكرة الى فون روزنبرغ Von Rosenberg ، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية في برلين ؛ وسال شوماخر المسؤول الالماني عن مصير المستعمرات

الالمانية في حالة قبول المانيا بوقوع فلسطين تحت الهيمنة الفرنسيـــة . وتضمنت مذكرة الوفد الهيكلي اشادة بدور المستعمرين الالمان في تطوير فلسطين،ورفع سمعة المانيا . كما اقترحت ايجاد حلّ لمستقبل فلسطـــين تقبل به الدول الكبرى ، وذلك بأسرع وقت ممكن،وقبل ان يفوت الأوان . واقترح شوماخر في هذا الصدد وضع فلسطين (من الحدود المصرية الى راس الناقورة شمالا،وحتى سفوح جبل الشيخ شرقا) تحت حكم أمـــير أوروبي . وبَرّر اقتراحه هذا بانه لا يتعارض والمصالح البريطانيـــــة والروسية في المنطقة . واقترح بالمقابل منح فرنسا المنطقة الواقعة شمال فلسطين،دون الاضرار بمصالح الدول الكبرى فيها (٧٦) .

وسعى الوفد لدى وزارة خارجية مملكة فورتمبرغ لقبول مقترحاتـــه السابقة الذكر ، فأيّدتها،وطلبت من ممثلها في برلين ان يجسّ نبـــض وزارة الخارجية الاتحادية . فجاء الرد : ان سورية لا تقع في منطقة اهتمام المانيا، لانها بعيدة عن سكة حديد بغداد (٧٧) . وهكذا خابت آمال الوفد الهيكلي من موقف حكومة برلين ، وعاد الى فلسطين خالي الوفاض . وجـــاءت الاتفاقية الفرنسية ـ الالمانية لعام ١٩١٤ (٧٨) لتؤكد اعتراف المانيـــا بوضع فرنسا الخاص في فلسطين،وبخاصة في موضوع بنـــاء السكك الحديدية .

غير أن فكرة فصل فلسطين عن الدولة العثمانية ووضعها تحـــت الهيمنة الأوروبية،لم تغب عن ذهن بعض المسؤولين الالمان : فقد اقترح السفير الالماني في اسطنبول،في رسالة بعث بها الى المستشار الالماني الأمير فون هيرتلنغ ، Graf Von Hertling ، انشاء مملكة في فلسطين لحل مسالة الاماكن المقدسة ، معتقدا بأن هـــذا الحل ســـوف يرضي المسيحيين واليهود في العالم ، شريطة ايجاد حلّ مُرضٍ للاماكن المقدسة

الاسلامية في القدس (٧٩) . وكان القنصل الالماني العام في القدس الدكتور بروده Brode ، قد اقترح على السفير الالماني في اسطنبول اقامة مملكة صغيرة في القدس تضمّ بيت لحم جنوبا،وتمتد الى نهر الأردن والبحر الميت شرقا،والى قرية رام الله شمالا ، وأن يعتلي عرشها أمير كاثوليكي الماني؛ شريطة أن تبقى هذه المملكة تحت السيادة العثمانية الاسمية ، وأن تُدفع للخزينة العثمانية مليون جنيه استرليني ، وأن يُحتفظ المسلمون والمسيحيون واليهود بأماكنهم المقدسة فيها . واقترح بروده أيضا أن تسعى الحكومة الالمانية لدى الباب العالي للتوسع في الاستعمار اليهودي في فلسطين،ومنح اليهود حكما ذاتيا في البلاد (٨٠) . والواقع أن هذه المقترحات قد جاءت في فترةٍ بَلَغَ النشاط الصهيوني في المانيا أوجه من أجل الحصول على وعد رسمي من الحكومة الالمانية مماثل لتصريح بلفور .

يتضح مما سبق أن الحكومة الالمانية لم تَسْعَ الى تحقيق أية مطالب علنية أو سرية في فلسطين،منذ قيام الرايخ الالماني عام ١٨٧١ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ ؟ كما أنها لم تستغلّ عنصر المستعمرين الالمان لاغراضها السياسية في البلاد .

علاقات المستعمرين الالمان بالسكان العرب

اتّسَمت العلاقات بين المستعمرين الالمان والسكان العرب في فلسطين بالشك والريبة والحذر . لقد أدرك كريستوف هوفمان،اثناء رحلته الاستطلاعية الى فلسطين عام ١٨٥٨،أن مشروعه لن يحظى بتأييد السلطات العثمانية فحسب ، وانما سيواجه مقاومة حقيقية من جانب السكان العرب، الذين يشكل المسلمون اكثر من ٩٠٪ منهم (٨١) .

ولما بدأ استيطان الهيكليين في فلسطين،كانوا يحملون افكارا واضحة

عن العداء العربي لهم . وساهمت أحداث فلسطين في تشدد كل فريق في موقفه . وأدرك العرب أن الهيكليين الالمان ليسوا كبقية المقيمين الاجانب في فلسطين ؛ فمشروعهم ليس خيريا كمشاريع الارساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد . واكتشفوا أيضا أن الالمان قد جاؤوا الى البلاد تاركين أوطانهم بهدف واحد هو الاستيلاء على أراضيهم وامتصاص دمائهم (٨٢) . ولذلك كان من المتعذّر على مشروع الاستيطان الالماني أن يكسب قلوبهم . وخلافا لما كان يعتقده أو يزعمه الالمان، لم تساهم انجازاتهم في فلسطين الا في بعث كراهية العرب لهم (٨٣) . ونظر الالمان ، بالمقابل ، الى العرب نظرة استعلاء وتفوّق ، فزادت من توتر العلاقات بين الفريقين (٨٤). وكان قادة جمعية الهيكل يخشون الاختلاط بالسكان العرب والذوبان في المجتمع المحلي ؛ فهم « شعب الله » المكلف ببناء مملكة الرب في القدس . لذلك تحاملوا على العرب دوما ، وبرروا هذا التحامل في المقالات التي كانوا ينشرونها في مجلتهم Sueddeutsche Warte : فالشرقي في نظرهم « وقح متعجرف بالطبيعة ، يمارس السرقة والاستجداء ، ولا يحني هامته الا للقوة والمال » (٨٥) .

وكان قادة الجمعية يحذّرون اعضاءها من التزاوج مع العرب . واستغلوا حالة زواج فاشلة بين فتاة المانية وشاب مسيحي عربي في دعايتهم هذه . وكانوا يقولون « من الأفضل للألمانيات أن يبقين عوانس من أن يلقين بأنفسهن في أحضان الرعاع » . (٨٦)

ولم يُخْفِ كريستوف باولوس، الذي خلف هوفمان في رئاسة جمعية الهيكل بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٩٠ ، والذي كان من اتباع الفلسفة الانسانية، احتقاره للعرب . وحينما تكونت شركة للنقل بين يافا والقدس من الالمان والعرب واليهود عام ١٨٨٤ ، وأوكل تنظيمها الى الالمان، كتب

باولوس بهذا الصدد يقول : « تعتبر هذه الاتفاقية نصرا للأمانة الالمانية على دسائس العرب واليهود القذرة . لقد أمكن قيام الشركة لأن ادارتها والاشراف على ماليتها قد أوكلا الى الالمان، الذين تعترف كافة الاطـــراف بأمانتهم ومثابرتهم على العمل . دعنا نأمل أن يكون لهذا الانجاز الذي حققته النزاهة الالمانية ، تاثير ايجابي على السكان المحليين . ويمكن اعتبار هذا العمل الانموذجي عملا تبشيريا ، لأن الهيكليين يؤمنون بأن على الشعب الذي يتوجه اليه المبشرون، أن يتحول الى كائنات بشرية قبل أن ينظـــر في أمر تنصيره » . (٨٧)

ازاء هذه النظرة الاستعلائية المزرية ، لا عجب اذا عجز الهيكليون عن الوصول الى قلوب العرب، واقامة علاقات طيبة معهم . وقد اعتـــرف بهذا الوضع السفير الالماني في اسطنبول، مارشال فون بيبرشتايـــن ، Marschall Von Bieberstein ، في رسالته التي بعث بها الـــى المستشار الالماني فون بيلوف، Von Buelow ، والمؤرخة في ٨ ايـــار ١٩٠٩ ، والتي اقتبس فيها اقوال نائب القنصل الالماني في حيفا (٨٨) .

ورغم حالة الشك والحذر والكراهية التي سادت العلاقات بـــين المستعمرين الهيكليين والعرب في فلسطين ، لم تحدث خلال الحكم العثماني سوى حادثة قتل واحدة، ذهب ضحيتها أحد هؤلاء الالمان، وبسبب استفزازي . وكان سبب الحادثة التي تمت عام ١٩١٠ ، مقتل أحد فلاحي قرية الطيرة (قرب حيفا) على يد أحد الالمان من مستعمرة حيفا ، أثناء اقدام الأول على السرقة من المزرعة الالمانية . وثار اهل القتيل لقتيلهم، وهاجموا في اليـــوم التالي للحادث أحد الالمان، واسمه فريتس أونجر ، Fritz Unger ، في مستعمرة نويهاردتهوف واردوه قتيلا (٨٩) .

وخشي المستعمرون الالمان اعتداء المسلمين عليهم أثناء الحـــرب

البلقانية (١٨٧٥ ــ ١٨٧٨) ، وطلبوا الحماية من حكومتهم ؛ فرأت هذه أن تبعث ببوارج حربية الى الشواطىء الفلسطينية . فكانت خطوة لا سابقة لهـــا .

وشعر المستعمرون الالمان بضيق شديد عندما أخذ العرب ينافسونهم في الميدان الاقتصادي ؛ فقد حل العرب محل الناقلين الالمان بالشاحنات على طريق حيفا ــ عكا ، كما الحقوا اضرارا كبيرة بشركة السفريات الالمانية على طريق يافا ــ القدس،بتخفيض أجور السفر . وواجه الحِرَفيون الالمان منافسة مماثلة من العرب . وزاد من كراهية العرب للمستعمرين الالمـــان واليهود حماية الدول الأوروبية الكبرى لهم . ولم يشعر العرب في يوم من الأيام بأن وجود المستوطنين الالمان أو غيرهم فيه أية فائدة لهم (٩٠) .

علاقة المستعمرين الالمان بالطائفة اليهودية

اتخذت جمعية الهيكل موقفا عدائيا من اليهود واليهودية قبل استيطان أفرادها في فلسطين ، لاعتبارات دينية محضة . غير ان هذا الموقف تبدل بعد استيطان الهيكليين في فلسطين ، ولم يترددوا في التعاون مع المهاجرين اليهود والمستعمرات اليهودية لمواجهة المجتمع العربي المناهض لهم . واخذ هذا الموقف يتغير مع قدوم آلاف اليهود من شرق أوروبا في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب منافسة المستعمرين اليهود الجدد لهم في الميادين الاقتصادية .

فقد كان هوفمان،مؤسس جمعية الهيكل،يعتقد أن الأرض المقدسة ينبغي أن تكون ملكا لشعب الله ، وان الله كان ينوي في البداية منح هـــذه البلاد للشعب اليهودي ، غير ان هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة، ولم يعد شعبا مقدسا . الهيكليون وحدهم هم الذين أوجـــدوا الشعب المقدس الجديد « شعب الله » . وتأكد هذا الاعتقاد لدى هوفمان عند

زيارته لفلسطين عام ١٨٥٨، ورأى « حالة اليهود السيئة، وكسلهم وعجزهم عن تخليص البلاد من حالتها المتدهورة » . ووجد الالمان في بداية استيطانهم مبررا للتفاهم مع الأقلية اليهودية، للتخلص من العزلة التي يعيشونها (٩١) .

اما بالنسبة الى اليهود ، فقد حاول زعماء هواة صهيون « حوفيفي تسيون » (٩٢) الاستفادة من تجربة المستوطنين الالمان في المستعمرات الزراعية ؛ وكانوا يترددون عليهم محاولين تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها . وحينما بدأت الهجرة اليهودية المنظمة الاولى (١٨٨٢ — ١٩٠٤) التي تألفت من موجتين كبيرتين هما: الاولى (١٨٨٢ — ١٨٨٤)، والثانية (١٨٩٠ — ١٨٩١)، بدأ موقف المستوطنين الالمان يتغير . وكانت المنافسة الاقتصادية وراء هذا الموقف المعادي . صحيح أن نوعية الانتاج اليهودي من الحِرَف والصناعات الخفيفة كانت أدنى من نوعية الانتاج الالماني، الا أن انخفاض اسعار الانتاج اليهودي جعل من الحِرَفيين والصناع اليهود منافسين خطرين للألمان (٩٣) .

وشعر المستعمرون الالمان بالخطر الحقيقي حينما طلب ثيودور هرتسل ، Theodor Herzl ، في آب ١٨٩٧ من أعضاء المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة بازل السويسرية، الموافقة على برنامج الحركة الصهيونية . ومنذ أن صدرت صحيفة « العالم ، Die Welt » الناطقة بلسان الحركة الصهيونية في حزيران ١٨٩٧ ، شعر الهيكليون انهم يواجهون حركة سياسية يهودية منظمة، تؤكد صحيفتها كل يوم على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

ومنذ مطلع عام ١٩٠٨ شنّت صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte هجومها على الحركة الصهيونية، وعلى مختلف أوجه نشاطاتها . وكان يقود

هذه الحملة فريتس لورخ ، Fritz Lorch ، احد الالمان المولودين في فلسطين،والذي انتقل الى شتوتجارت ليعمل في صحيفة الجمعية . وقد أبرز لورخ عدم ولاء الصهاينة للدولة العثمانية،وتعاونهم مع بريطانيا من اجل تمزيق اشلائها . أما الصهاينة فقد حاولوا التقرب من المستوطنين الالمان والتفاهم معهم،حرصا منهم على تجنّب الصدام مع الامبراطورية الالمانية الناشئة.وامتنعت صحيفة « دي فيلت » الصهيونية عن الرد على حملة لورخ الاعلامية (٩٤) :

وبمناسبة انتقال صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte من شتوتجارت الى القدس في كانون الثاني عام ١٩١٢،نشرت صحيفة « دي فيلت » مقالا مطولا طالبت فيه المستوطنين الالمان أن يبدوا مزيدا من التفهم نحو المصالح المشتركة لليهود والالمان . وأكد المقال على الفوائد التي قد يجنيها المستوطنون الالمان والامبراطورية الالمانية من المهاجرين اليهود، الناطقين باللغة الالمانية،والذين يفضّلون اقامة علاقات تجارية مع المانيا (٩٥) .

ومن الجدير بالذكر أن المانيا ، في هذه الفترة ، كانت مقرًّا لمعظم المؤسسات والمراكز التابعة للحركة الصهيونية . وانساق المستوطنون الالمان وراء سياسة المانيا الرسمية منذ عام ١٩١٣ ؛ تلك السياسة التي كانت تحبذ الاستفادة من الوجود اليهودي في فلسطين من أجل تنمية المصالح الالمانية فيها . وشهدت العلاقات بين الاقلّيتين:الالمانية واليهودية،تحسنا ملحوظا عشية قيام الحرب العالمية الاولى (٩٦) . غير ان هذا التحسن في العلاقات كان مؤقتا ولفترة قصيرة جدا .

المصـــــادر :

(١) Hajjar, J. : L'Europe et les Destinees du Proche Orient, Bloud and Gay, Belgium, 1970, pp. 326-7

Hyamson, A.M.: British Projects for the Restauration of Jews to Palestine, in "Publications of the American Jewish Historical Society", 1918, No. 2, pp. 129-131.

(٢) Hajjar, J. : op. cit, pp. 327-8

(٣) Hyamson, A.M. : op. cit, p. 136, Hajjar, J. : op. cit, p. 329

(٤) Tibawi, A.L. : British Interests in Palestine, Oxford University Press, London, 1961, p. 33

Hyamson, A.M. : The British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine (1838-1914) London, 1939, vol. I,p. 45

(٥) ولد موسى مونتفيوري عام ١٧٨٤ في ليفورن Livourne . ونجح في حياته كرجل اعمال يهودي . واصبح نبيلا بسبب صلة النسب باسرة روتشيلد في بريطانيا . وانسحب في عام ١٨٢١ من اعمال التجارة وكرس حياته للاعمال الخيرية الاجتماعية المتعلقة باليهود. وقام بعدة زيارات لفلسطين بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ .

Loewe, L.(ed.):Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore, London 1890, vol. I, pp. 165 ff.

Hajjar, J. : op. cit, p. 327.

(٦) Hajjar, J. : op. cit, pp. 330-331

(٧) حول تفاصيل اقامة مولتكه في اسطنبول انظر :

Moltke, Helmuth von : Briefe ueber Zustaende und Begebenheiten in der Tuerkei aus den Jahren 1835 bis 1839, Berlin, 1893.

(٨) Wagner, R. : Moltke und Muehlbach zusammen unter dem Halbmonde (1837-1839), Berlin, 1893.

Moltke, Helmuth von : Vermischte Schriften, Berlin, 1892, Bd. 2, pp. 279-288.

Lewin, E : The German Road to the East, William Heinemaun, London, 1916, pp. 22-3.

Hajjar, J, : Op. Cit., P. 369.

(٩ Geschichte der Deutschen Evangelischen Kirche und Mission im Heiligen Lande, p. 4.

Tibawi, A. L. : Op. cit, pp. 44-5.

Richter, J. : A History of Protestant Missions in the Near East, A.M.S. Press, New York (1970) Reprinted Edition of 1910, p. 237.

(١٠ Brugger, Hans : Die deutschen Siedlungen in Palaestina, Bern, 1909, pp. 11-12.

Carmel, Alex : Geschichte Haifas in der tuerkischen Zeit (1516-1918), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, p. 80.

(١١ ولد كريستوف هوفمان في بلدة ليونبرغ Leonberg في الثاني من كانون الاول عام ١٨١٥م وانتقل مع والده الى كورنتال . وكان يتردد على خاله القس باومـــــان Baumann في شتوتجارت . واهتم كريستوف منذ صباه بالشعر والتاريـــخ . ودرس في جامعة توبنجن الفلسفة والتاريخ . واعجب بهيجل وكانت من الفلاسفة الاثيرين. ولما انهى دراسته الجامعية عام ١٨٣٧ اشتغل معلما في مدرسة انشاها صديقه عمانوئيل باولوس بالقرب من لودفيجزبورغ . غير انه لم يقم فيها طويلا،واضطر تحت ضغط والده الى العمل في مدارس الكنيسة في فورتمبرغ . وفي عام ١٨٤١،كرّس هوفمان نفســـه للتعليم في المدرسة التابعة للجمعية التي يرئسها والده .

Brugger, H. : Op. cit., pp. 12-20

(١٢ Brugger, H. : op. cit, pp. 20-32

Hoffmann, Christoph : Errinnerungen aus meiner Jugend, Jerusalem, 1881, p. 720.

(١٣ Carmel, Alex; The German Settlers in Palestine and their Relations with the local Arab Population and the Jewish Community (1868-1918) in "Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem,

1975, p. 442.

Geschichte der deutschen Evangelischen Kirche. pp.132-3

Gaeschichte وسيشار اليه فيما بعد .....

Alonzo, Alphonse d' : Les Allemands en Orient, Oscar Schepens, Bruxelles, 1904, p. 37

Brugger, H. : op. cit, pp. 26-7

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81

١٤) ولد جورج دافيد هارديج في الثاني من نيسان عام ١٨١٢ في قريـــة اغلوزهايـــم Egiosheim قرب لودفيجزبورغ في مملكة فورتمبرغ . اتم دراسته الثانوية وعمل في التجارة . ثم دخل في منظمة سرية تنادي بالنظام الجمهوري . وتنقّل بين شتوتجارت وبلجيكا وباريس خلال عامي ١٨٣٠ و ١٨٣١ . وفي باريس تعرف على عدد من اللاجئين السياسيين الالمان المتحمسين للنظام الجمهوري . وصادق تاجر كتب اسمه فرانـــك Frank كان قد اصدر في باريس صحيفة "Le Siècle" . وعاد فرانك الى فورتمبرغ في خريف ١٨٣١ . وعزم هارديج على دراسة الطب في جامعـــة غوتنجن فلم يوفق ، اذ كانت السياسة والنضال من اجل الحرية اعز على قلبه مـن الدراسة . فشارك في محاولة العصيان الفاشلة في فورتمبرغ عام ١٨٣٢ ، وحكم عليـه بالسجن لمدة اربعة عشر عاما . ثم استانف الحكم عليه لدى محكمة الاستئنـــاف في شتوتجارت فخفضت الحكم عليه بالسجن الى تسعة اعوام . درس هارديج اثناء وجوده في السجن الكتاب المقدس ، فاثر ذلك على سلوكه وفكره . ولما افرج عنه عام ١٨٤٠ لـم يسمح له بالاقامة في فورتمبرغ فرحل إلى سويسرا حيث بقي حتى عام ١٨٤٤ حينما سمح له بالعودة الى وطنه بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لاعتلاء الملـــك فيلهلـــم Wilhelm عرش فورتمبرغ .

Brugger, H : Op. cit, pp. 5-10.

١٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 35.

١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

Carmel, Alwx, The German settlers., p. 443.

Geschichte . . , p. 134

١٧) Carmel, Alex, Op. cit, p. 443, Geschichte . . . p. 134.

١٨) Brugger, H. Op. cit, p. 37.

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81.

(١٩) Brugger, H. : Op. cit, p. 38.

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ــ ٤٣ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ــ ٤٧ .

Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 82.

(٢٣) Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, in"Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, 1975" p. 431.

(٢٤) Brugger, H. : Op. cit, p. 49.

(٢٥) انظر تفاصيل عملية الشراء في مجلة Sueddeutsche Warte, 22.1.1869

(٢٦) Brugger, H. : Op. cit, p. 51.

(٢٧) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 83.

(٢٨) Grothe, Hugo : Bevoelkerung und Wirtschaftliche Lage der Schwaebischen Ansiedlungen in Palaestina, Palaestina 1.1902,p. 233.

Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 84.

(٢٩) Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 445.

(٣٠) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, Po. 25, Bd. I.

(٣١) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . pp. 87-9.

(٣٢) Rosen, F. : Oriental Memoirs of a German Diplomatist, Methuen and Co., London, 1930, pp. 36-7.

(٣٣) Brugger, H. : Op. cit, p. 52.

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٣٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 61.

(٣٦) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Bd. I.

(٣٧) Brugger, H. : Op. cit., pp. 62-3.

(٣٨) Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Palaestina, Bd. I.

(٣٩ Brugger, H. : Op. cit, p. 95.

(٤٠

(٤١ المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

(٤٢ Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po. 25, Palaestina

تقرير القنصل الالماني في القدس فيليب فورست Ph. Wurst الى سكرتير لجنة التقسيم الفنية الفلسطينية في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

(٤٣ Geschichte . . . pp. 136 - 7

(٤٤ انشئت جمعية بيت المقدس في برلين في ١٨٥٢/١٢/٢ من اجل دعم المشروعات التبشيرية الانجيلية الالمانية في فلسطين Geschichte . . . , pp. 51-62.

(٤٥ Geschichte . . . p. 137, Brugger, H. : Op. cit, p. 66.

(٤٦ Seidel, H. J. : Der Britische Mandatstaat Palaestina im Rahmen der Weltwirtschaft, Walter de Gruyter, Berlin, 1926, pp. 81-2.

(٤٧ Brugger, H. : Op. cit, pp. 85-9.

(٤٨ المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٤٩ Carmel, A. : The Political Significance of German Settlement in Palestine (1868-1918), in "Germany and the Middle East 1835-1939 Tel-Aviv University, Tel-Aviv, 1975, pp. 48-9.

(٥٠ المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٥١ Haupistaatarchiv Stuttgart, Koeniglich Auswaertiges Amt.

(٥٢ Sueddeutsche Warte, 1.7. 1858, p. 2., 22.7. 1858, p. 114, 16.9. 1858, pp. 145-6.

Lange, Friedrich : Geschichte des Tempels, Stuttgart, 1899, p. 167.

(٥٣ Hauptstaatarchiv. Akten des Kabinets IV, Nr. 1585.

(٥٤ Sueddeutsche Warte, 12.2. 1874, pp. 25-6, 26.3.1874, pp. 70-71.

(٥٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 48.

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ــ ٦٠ .

(٥٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 126, Muenchhausen an Bismarck, Jerusalem, den 30 Mai 1897.

(٥٨) المصدر نفسه .

(٥٩) Carmel, A. : The Political Significance . . . , p. 54.

(٦٠) Brugger, H. : Op. cit, pp. 84-5.

(٦١) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 55.

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٦٣) Sueddeutsche Warte Vom 18 Maerz 1882, p. 4.

(٦٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 57.

(٦٥) Brugger, H. Op. cit, p. 90.

(٦٦) Carmel, A. : The Political Significance, . . . p. 59.

(٦٧) Holborn, H. : Deutschland und die Tuerkei (1878-1890), Berlin, 1926, p. 106.

(٦٨) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 189, Vol. I.

(٦٩) Brugger, H. : Op. cit, P. 92.

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٧٢) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

(٧٣) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Preussen 4 (geheim), Vol. 9, Schlaezer an Hohenlohe, Istambul, 15.11. 1898

نص تقرير القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول .

(٧٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ــ ٦٦ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦٧ ــ ٦٩ .

(٧٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 177, Vol.10.

(٧٨) Hurewitz, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, Vol. 1, pp. 267-276.

(٧٩ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 175 (e), Abteilung I A, Bd. 2.

(٨٠ Friedman, I. : Germany, Turkey and Zionism (1897-1918), Oxford, At the Clarendon Press, 1977, pp. 390-391.

(٨١ Sueddeutsche Wrate Vom 23.9. 1858, p.125, 14.10.1858, p. 161.

(٨٢ جريدة الاهرام ، القاهرة ، عدد ٢٧ حزيران ١٨٩٨ .

(٨٣ Sueddeutsche Warte Vom 27.4.1914, pp. 133-4.

(٨٤ Deutsche Kolonial Zeitung, Berlin, 1884, pp. 83-4.

(٨٥ Sueddeutsche Warte, 27,4.1911, pp. 131-2.

(٨٦ Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 448.

(٨٧ Sueddeutsche Warte, 30.00. 1884, pp. 1-2.

(٨٨ Auswaertiges Amt, Politische Archiv. Bd. 25 a Nr, 135.

(٨٩ Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 449-50.

(٩٠ المصدر نفسه ، ص ٤٥١ ــ ٤٥٤ .

(٩١ المصدر نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٩٢ هواة صهيون حركة سياسية يهودية استهدفت تنظيم هجرة اليهود من اقطار اوروبا الشرقية الى فلسطين . وقامت بانشاء المستعمرات اليهودية الاولى في البلاد بين عامي ١٨٨١ و ١٩٠٤ .

حول هذه الحركة انظر :

جريس ، صبري . تاريخ الصهيونية ، ج ١ ، (١٨٦١ ــ ١٩١٧) ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٠١ ــ ١٤٢ .

(٩٣ Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 455-8

(٩٤ المصدر نفسه ، ص ٤٦٠ ــ ٤٦٢ .

(٩٥ Die Welt, 13.10. 1911, pp. 1083-4

(٩٦ Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 464

كتاب "نهاية السؤل والأمنية"

للدكتور أحمد سعيدان

(عضو المجمع)

١ ــ تعريف

في المكتبة البريطانية في لندن مخطوطة تحمل الرقم OR3631*، وتضم مجموعة من الرسائل العربية في الفروسية ، اكبرها رسالة بحوالي ٥١٠ صفحات ، في كل صفحة ٢١ سطرا ، في كل سطر حوالي ١٢ كلمة ، وقد كتب على صفحة غلافها بخط جميل وتشكيل هندسي :

(كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية ، تصنيف بكتوت الرماح ، خازندار الملك الظاهر ، رحمهما الله تعالى ، آمين).

فمن هو بكتوت الرماح هذا ؟

كُتب على غلاف المخطوطة كاتب مستعجل ، بخط انكليزي غير واضح ، يزعم ان حاجي خليفة ينسب الكتاب الى ابرٰهيم ابن أبي الحسن الشهير بابن رافع الدمشقي المتوفى سنة ٧٥٨ هـ . رجعت الى كشف الظنون لحاجي خليفة فوجدته يذكر الكتاب،ولكنه ينسبه الى محمد بن عيسى ابن اسماعيل بن خسروشاه الاقسرائي الحنفي الرومي،المتوفى في حدود

* بترخيص من ادارة المكتبة البريطانية في لندن .

٧٥٠ هـ . ورجعت الى موسوعة بروكلمان فوجدتها تذكر بدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري المالكي الظاهري المتوفى سنة ٧١١ / ١٣١١ ، ولكنها تنسب اليه كتابا غير نهاية السؤل ؛ وتذكر نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية،ولكنها تنسبه الى محمد بن عيسى بن اسماعيل الحنفي المعروف بنجم الدين أيوب .

ورجعت الى كتاب مارتن (مقدمة الى تاريخ العلم) فوجدته ينسب الكتاب الى الحسن الرماح،المسمى نجم الدين الأحدب ، ويذكر انه ظهر في سوريا حوالي ١٢٩٤ / ٥ (= ٦٩٤ هـ) وتوفي في الثلاثينات من عمره . ومارتن ينسب الى هذا الرماح الأحدب ، بالاضافة الى كتاب نهاية السؤل والأمنية ، كتابا في الفروسية والمناصب الحربية،ويسجل له انه عني بالبحث في طرق تنقية البارود .

في غمرة هذا الاضطراب عدت الى نص الكتاب عساه يكشف لي عن هوية الكاتب ؛ ومن النص تبين لي ما يلي :

ليس المؤلف هو نجم الدين الأحدب،كما يظن حاجي خليفة وبروكلمان ومارتن ؛ ففي النص صفحات ينقلها المؤلف عن كتاب لنجم الدين يسميه كتاب البنود ، ويذكر انه أخذها عن نسخة لناصر الدين محمد الرماح ، وان ناصر الدين هذا قد عارض نسخته بنسخة لعز الدين بن عبد العزيز الرماح بقلعة دمشق . ثم يذكر المؤلف ما يجد من فروق بين نصوص هذه النسخة ونصوص نسخ أخرى لكتاب نجم الدين ، ويضيف بنودا من عنده تكمل ما يذكره نجم الدين الى المئة .

ويلي كتاب نهاية السؤل في مجموعة المكتبة البريطانية كشف يسرد فيه المؤلف ، بدر الدين بكتوت الرماح الخازندار الظاهري ، ما ألف من كتب ورسائل . ويلي ذلك رسالة قصيرة في علم

الفروسية وعلاج الخيل . « تصنيف بدر الدين بكتوت الرمـــاح ؛ وكان ابتداء تأليفه في حصار عكا في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف ، ولد مولانا السلطان الملك المنصور . . . قلاوون ، وذلك في شهور سنة ٦٨٩ » .

وفي الحالين يتباهى المؤلف بفروسيته ومهارته في ركوب الخيـــل، والمبارزة بالسيف والرمح .

فالى أن نعثر على ادلّة جديدة أرى أن نعتبر :

أولا،أن كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعليم أعمال الفروسية ألّفـــه بدر الدين بكتوت الرماح ، لا نجم الدين ايوب الأحدب .

ثانيا أن بدر الدين هذا خدم الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وابنـه الأشرف ؛ وقد يكون توفي سنة ٧١١،ولكن لا يُعقل انه كان عندئذ فـــي الثلاثين من عمره ، ذلك انه كان سنة ٦٨٩ في سنٍّ تُمكّنه من وضع كتاب في الفروسية وعلاج الخيل .

ثالثا أن محمد بن عيسى بن اسماعيل،المعروف بنجم الدين ايـــوب الأحدب،لا بد أنه عاش قبل بكتوت بأكثر من نصف قرن ، وربما بأكثر مـــن ذلك بكثير .

٢ ــ النسخة والناسخ

ليس هناك ذكر للناسخ ولا لتاريخ النسخ ؛ ولكن الخط ، في صفحات المجموعة كلها ، واحد ، وهو على نمط خطوط القرنين السابع والثامـــن الهجريين ، سواء في ترتيب النص وفي الارقام . فقد لا تكون النسخة متأخرة كثيرا عن تاريخ التأليف . ولكنّ ثمّة دلائل على أنها منقولة عن نسخـــــة سابقة . والخط واضح والاشكال مرسومة باتقان بالغ . الا أن الناسخ ، على طريقة عصره ، لا يراعي دقة التنقيط ، ويندر أن يضع الهمزة ، وهو لا

يرقم الصفحات ولا الأوراق .

ويبدو ان الناسخ كثير السهو ؛ ولعل اشنع اخطائه في موضع يجري فيه الكلام عن « الرمي بلا فوق » ، اي بلا تصويب ؛ فاذا بالكلام ينتقل فجأة ، في وسط السطر والجملة ، الى تعليم فنون الرماية للمبتدىء . ونستطيع ان نقدر ان الناسخ أراد هنا ان يقلب ورقة من الأصل الذي ينقل عنه فقلب ورقتين ومضى ينسخ بلا تفكير .

ومثل هذا النقص في النص نجده في موضعين آخرين في الميكروفلم الذي حصلنا عليه من المكتبة البريطانية ، ولكننا فيهما لا نستطيع أن نجزم على من يقع اللوم .

أول هذين الموضعين هو الورقة الأولى من كتاب نهاية السؤل ، فهي مفقودة . ولكننا نستطيع أن نقدر ان المؤلف يبداها بحمد الله والصلاة على نبيه الكريم ، ثم يذكر سبب وضعه لكتابه ولمن وضعه ؛ ولعله هنا ، كشأنه في مخطوطتيه الاخريين ، يتباهى بفروسيته ومهارته في ركوب الخيل والمبارزة بشتى أدوات الحرب .

والموضع الثاني الذي ينقطع فيه النص يأتي في أواسط المخطوطة ، حيث يمضي الكلام عما ينبغي على الآمر أن يصنع عند عقد الجيش وعرض العساكر ، فاذا به ينتقل فجأة الى جدول اختيارات ، اي ايام الاسبوع وما يصلح لها وتصلح له من اعمال . وتأتي هذه النقلة مع انتقالنا من ورقة الى ورقة ، مما يبعث على الترجيح بأن ورقة على الأقل من المخطوط قد تخطاها التصوير ، او سقطت من الأصل .

٣ ــ المحتوى

يشتمل الكتاب على مقدمة واثني عشر فصلا يسميها المؤلف تعاليم ،

وهذه التعاليم متباينة في الطول،يملأ أكبرها ٦٦ ورقة في المخطوط،في حين أن اثنين منها لا يتجاوز كل منهما ورقة واحدة . وقد لا يصعب تبرير هذا التفاوت بين الفصول . الا ان مما يلاحظ على المؤلف ان تقسيمه لموضوعاته لا يجري على نسق مميز ؛ فهو قد يقسم الموضوع الى أبواب ، والباب الى فصول ، ثم يقسم الفصل ايضا الى أبواب .

الا أن المؤلف ، رغم هذه الهنات الشكلية ، قد نجح في تحديد هدف واضح وفي تحقيق هذا الهدف : انه محارب خاض غمار حرب صليبية واكتوى بنارها ، فهو يكتب للحرب وفي الحرب . ولذا فهو يستهدف الحض على الجهاد في سبيل الله،ثم يمضي في تعليم المجاهد كل ما يفيده عن آلة الحرب وفنونه .

اما الحض على الجهاد في سبيل الله فقد وفّاه بمقدمة عرض بها كل ما ورد في القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف من آيات وأحاديث تتعلق بالجهاد ، ثم اتبع ذلك بما رواه الرواة من قصص وأبيات شعرية عن المجاهدين والشهداء .

وقد لا تكون الأبيات الشعرية التي يوردها خير ما في الأدب العربي، وقد يكون كل ما فيها من أخطاء من صنع الناسخ،الا اننا قد يتعذر أن نجد كتابا واحدا يضم بين دفتيه كل هذا القدر من الأحاديث والروايات عن الجهاد والمجاهدين . ان مقدمته تملأ ٢٤ ورقة في المخطوط ، ثم هو يضيف جديدا عن الجهاد عند الكلام عن الخيل ورباطها في سبيل الله ، ويضيف جديدا ايضا كلما وجد الى ذلك سبيلا،حتى يصل الى التعليم الحادي عشر، فيجمل فيه الأحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد وأسرى الحرب ، مَن يُسْلِم منهم ومن يبقى على دينه . ان ناحية التوعية في الكتاب وافية تكاد تدفع القارىء للجهاد دفعا .

واما تعليم الفروسية واعمالها، الذي هو الموضوع الرئيسي،فتتضح ابعاده من البيان التالي عن تعاليم الكتاب :

التعليم الأول عن رماية النشاب وما يتعلق بالقوس والوتر، وكيفية الرمي ، وكيف تختلف القوس باختلاف تركيب الرامي نفسه ، وما قد يلحق به الرمي من ضرر بدني،وكيف يعالج الضرر،وكيف يتوقاه .

وفي هذا يورد المؤلف مذاهب ينسبها الى اصحابها،ومن الأسماء التي يوردها : طاهر البلخي،ومحمد بن الحسن الهروي،وابو هاشم الماوردي،وابو موسى السرخسي ... وهو يقتبس نصا من شخص يسميه محمد بن بركات، المعروف بابن القاضي الاصلاطي،ونصا آخر من سعيد بن خطيف . ويملأ هذا التعليمُ في المخطوطة حوالي ١٤ ورقة .

التعليم الثاني هو اطول فصول الكتاب،ويملأ ٦٦ ورقة ، ويشمل الحديث عن الرماح والخيل وركوبها،يبدأ بمقدمة دينية تتعلق بالرمح واستعماله،ثم يذكر ما يجب على المعلم في تعليمه وما يجب على المتعلم ؛ وهو يرى أن عليه ان يتعلم استعمال الرمح كما وصفه الشيخ نجم الدين ايوب المعروف بالأحدب،وذلك في كتابه عن البنود ، والبنود،على ما يبدو، اشبه برقصات حربية يجريها الفارس والرمح في يده ؛ والمؤلف يصف ٧٣ بندا ، نقلا عن الشيخ نجم الدين ، ثم يعيد وصف هذه البنود ثلاث مرات اخرى ، نقلا عن نسخ اخرى من كتاب الشيخ نجم الدين . ولكن وصفه في هذه الحالات كلها هو عندي اشبه بالغاز ؛ وقد كنت اعزو السبب في ذلك الى أن الكاتب انما يصف فنونا مضى زمانها ، غير أني وجدته هو نفسه يذكر ان في هذه البنود كلمات زائدة وكلمات ليس لها معنى .

ثم هو لا يكتفي بذلك،وانما يذكر بنودا اخرى يقول انه وجدها للشيخ نجم الدين،ويكملها ببنود من عنده حتى يصل مجموعها الى المئة .

وهذا مثال :

« البند الأول ، وهو بند الحرب ، تبطيل يمين وتبطيل شمال، ونقل استواء، وتسريح مقور، وقربصة، ونشل، وطعن، ودخول وخروج، ونزول شمال، وضرب زندية » .

بعد صفحات على هذا المنوال ينتقل المؤلف الى التكلم عن الركوب، ويخصص لذلك مقدمة وثلاثين بابا، يشتمل آخرها على ١٦ فصلا . واليك أمثلة على هذه الأبواب ، بنص المؤلف نفسه :

« باب فيفضل الخيل واقسامهاورباطها في سبيل الله تعالى »

« فصل في المسابقة بين الخيل على عرض جائز » اي حيث يجوز تغريم الخاسر

« فصل في اختلافات الدواب »

« باب في ابتداء تعليم الرمح والفرس التي تصلح لذلك »

« باب في الركوب وأنواعه »

« باب في ابتداء الخروج الى الميدان »

« باب في ذكر الميادين » ، (نقلا عن اهل العلم ، ومنهم الشيخ نجم الدين . يذكر خمسة ميادين مختلفة ويميز كلا منها باسم خاص ويفرد له بابا خاصا، ويبدو أنها تختلف بعضها عن بعض باختلاف خطوط سير الفارس في حلبة الجري) .

ومن ذلك أيضا باب في الكر والفر والدوران ، باب في المواجهة ، باب في المطاردة ، باب في الضرب بالمقرعة ، باب في العمل بالرمحين ، باب في العمل بالسيف والرمح .

فصل في رمي الفارس ، فصل اذا تبعك فارسان ، فصل اذا تقابلت

مع خصمك ... الخ

التعليم الثالث : في العمل بالسيف وما ورد فيه ـــ ٣١ ورقة

بعد وصف العاب مختلفة بالسيف ذات أسماء متميزة، يقدم المؤلف فصولا في ما يحتاج اليه العامل بالسيف ، وفي وزن السيف وجهازه ، وفي العمل بالسيف والدرقة والترس .

ومن ذلك عمل بالسيف يذكر انه من تاليف منصور المعروف بالمصطنع؛ والعمل بالسيف على الفرس، وفصل بهز السيف والضرب به . ثم يورد بابا في السيوف وانواعها وسقاياتها ، وهو رسالة أبي يوسف يعقوب بن اسحق الكندي للمعتصم بالله .

التعليم الرابع : في الترس وما يرد حوله من مسائل .

التعليم الخامس : في العمل بالعمود ؛ والعمود على ما يبدو قضيب معدني يستعمل في الهجوم والضرب .

التعليم السادس : في صناعة الجنود والفرسان . خمسة ابواب في سبع ورقات :

الباب الاول في منافع السرج واللجام .
الباب الثاني في الخفة والوثوب على الفرس والرمي عليها .
الباب الثالث في تعليم الفروسية .
الباب الرابع في الصيد واحوالها .
الباب الخامس في طلب السباع والحذر منها على اختلافها .

التعليم السابع : في الأسلحة ومسائل تتعلق بها : سبعة ابواب في ٣٢ ورقة :

الباب الأول في سلاح الرسول صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني مقسم الى فصول منها لبس الأسلحة ، وأين يضعها الرجل من نفسه ، وماذا ينبغي أن يكون مع كل منها ، وما ينبغي من حذر وتثبت ، وقطع الأنهار والكباري بالأسلحة .

الباب الثالث في رجاحة الفارس على اقرانه .

الباب الرابع في لقاء الفارس الفارس .

الباب الخامس في لقاء الفارس الراجل .

الباب السادس في لقاء الراجل الفارس

الباب السابع في لقاء الراجل الراجل .

التعليم الثامن : في عقد الجيوش وجمعها وآلاتها وأمرائها وقوادها واجنادها، ١١ ورقة،يبحث في واجبات الرئيس والمرؤوس كل نحو الآخر ؛ ومن ذلك تحديد أوصاف مميزة للجنود وخيولها،وطرق صف الجيش وتعبئته، ووضع الكمين .

التعليم التاسع:في تعبئة الصفوف للقتال،وفي الأنواع المختلفة للصفوف، وينتهي بباب للمبارزة ، اللعب منها والجد ، مع قصص عن مبارزة الصحابة عليهم السلام — ٢٠ ورقة .

التعليم العاشر : في المكايد الحربية،يتكلم في اربع ورقات عن ثماني مكايد،منها تسليط النيران،واستعمال النفط في الهدم بما يشبه القنابل والقذائف،ويتكلم ايضا عن اطلاق أنواع من الدخان يتسرب من الثقوب فيقتل من يشمه .

التعليم الحادي عشر : في قسمة الغنائم والأحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد . في ٣٥ ورقة،يبحث في أمور مثل حكم الغنائم والانفال وقسمتها،والأمان،

والموادعة، والمصالحة، واحكام الاسير ، والمستأمن ما يُصْدُق فيه ومـــا لا يصدق ، والمعاقدة، والمعاملة مع اهل الحرب، واحكام المرتدين من الخوارج والبغاة .

التعليم الثاني عشر: في امور يحتاج اليها المحارب وغـيره ، في ثماني ورقات، يبحث في وجوه الفال، وعلامات تظهر في اذناب الخيل ، وفي نبـــات النيروز ، والأصوات .

وفيه باب في تدبير المسافرين، وآداب الراحلين، وباب في معالجـــة الجروح والذرور والمراهم .

٤ ــ كلمـة تقييم :

بدأت أطالع كتاب نهاية السؤل وأنا في القدس أشبه بمرابط أعزل يواجه العدو بالايمان بحقه والثقة بعدالة ربه ؛ فتملكني شعور غامر يربطني بالكتاب ومؤلفه، ويدفعني الى تحقيق الكتاب ونشره، ايمانا بأن حاجتنا للجهاد اليوم كحاجتنا اليه بالأمس .

ولكن اذ مضيت في دراسته تزايدت قناعتي بأنه يتكلم عن فنـــون ومهارات مضى زمانها .

وان آلـــة الحـــرب اليوم تحتـــاج الى علـم ودربـــــة وامكانيات أكثر مما تحتاج الى فروسية . حتى الجانب الرياضي ، جانب المباريات من فروسية الأمس، ذهب من بيننا نسيا منسيا في غضون أعصار من الاستعباد .

فهل أُنَحّي الكتاب جانبا ؟

ان فيه ما يستحق النشر، لأسباب تهم دارس تاريخ العلم؛ فرسالة

الكندي للمعتصم بالله عن سقاية السيوف ، وما يتضمنه الكتاب من صفحات عن هدم الحصون بما يشبه قنابل اليوم وقذائفه،ومن كلام عن حـــــرب الغازات وحرب السموم ، كل هذا قد يتضمن كشوفا جديدة في تاريـــخ الحروب . ولكنّ في الكتاب أيضا صفحات كثيرة لا أستطيع فهمها،لأنها تصف مهارات ذهبت من بيننا طيّ النسيان ، بكلمات كانت مألوفة في عصرها لا تحتاج الى تبيان ؛ هذا بالاضافة الى مواطن محدودة تَعَمّد المؤلف تعمقة الكلام فيها لأنها تقع في اطار الأسرار الحربية .

لهذا رأيت مُكْرَهاً أن اكتفي بالتعريف بالكتاب، عسى أن يجد غيري الدافع القوي لتحقيقه . أما أنا فسأختزنه عندي كما يُخْتَزَن الأثر الذي لا يقدر بثمن .

ويبقى بعد ذلك صفحات احببت أن أشرك بالاطلاع عليها من تهمهم العربية من المجمعيين وأمثالهم،ومن يهمهم الاطلاع على نواحي مجهولة من الحياة الادارية في الاسلام .

ملاحظـــــة : مع مراعاةٍ لحرمة النصوص ، أَثْبَتّ الهمزة وقسمت النص الى فقرات ؛ وحيث اضطررت الى اضافة كلمة وضعتها بين قوسين، وحيث تَعذّر عليّ قراءة كلمة عن يقين جعلتُ مكانها ثلاث نقط متتابعة .

الباب الأول من التعليم الثامن
فيمـــا يجـــب على الملـــك

أن ينظر في أمر الجيش،وان يولي أمرهم قائدا يكون أميرا مقدما جلدا بصيرا ذا تجربة ، فيقلده عرض الجيش . فليكن هذا الأمير تام النهضـــة ، كافي الجلادة ، سريع الاقدام ، قليل المحاباة ، غير مهمل لقليل يجب النظر فيه ؛ فالقليل من الاهمال في حق المعارض فساد لجمهور الجيش ، لأنـــه

متى ساهلهم في شيء من العدد ، وربما أعاد بعض الأمراء أصحابه مرتين او ثلاثة ، وربما حاباهم بالضعيف وبالفرس الأعجف ، وغير ذلك مما يجب الاهتمام به ، فسبيل الأمير على هذا يكون غير مساهل في شيء منه وان صغر . وينبغي أن يكون قائد الجيش كما قال بزر جمهر : —

لا يصلح لقود الجيش وتدبير الأمور الا رجل تكاملت فيه خلال اربع ، وثلاث،واثنتان،وواحدة ؛ أما الأربع فحزم ، وحلم يحجب عن التهور في المشكلات الا مع امكان فرجها ، وشجاعة لا تقضها الملمات بتواتر جوائحها، وجود يهوّن جلائل الأموال عند سؤالها .

والثلاث سرعة مكافأة الاحسان الى صالح الأعمال ، وثقل الوطأة على اهل الزيغ والعدوان ، والاستعداد للحوادث اذ لم يثق بأمان الزمان .

والاثنتان ، اسقاط الحاجب عن الرعية ، والحكم بين القوي والضعيف بالسوية .

والواحدة : التيقظ في الأمور مع ترك تأخير عمل اليوم الى غد .

فاذا كانت فيه هذه الخصال،حفظ الجيش حفظا تاما .

وليكن معه كاتب شهم جلد عارف بالحلىّ والثياب .

ويحتاج الأمير الى عرض الجند في ثلاثة مواضع : احدها عند ابتداء عقد الجيش ، والثاني عند ابتداء اللقاء للحرب ؛ وهذا عرض يختص فيه الترتيب ؛ والثالث عرض عند تمام الفتح ، ويتبعه ايضا قسمة الغنيمة .

ويحتاج ايضا الى الفراسة في الجند .

ونحن ذاكرون فصولا من ذلك تكون معونة لقائد الجيش وكاتبه .

الباب الثاني من التعليم الثامن

فيما ظهرت به اللغة واتصل به العرف ، واهمل من ذلك غريب اللغة فيه ؛ ونحن ذاكرون على رسومهم ذكرا يشتمل على استبقاء في اقتصار .

فمن ذلك الصفات الدالة على الأسنان :

فيقال في حق غير البالغ **صبي** ، فان كان قد راهق قيل **امرد** ، فان علا موضع شاربه شعرات سود قيل : **حين طرّ شاربه** ، بفتح الراء ، ويقال : **بقل شاربه** ، والأول أجود؛فان ظهر مثل ذلك في عارضيه وذقنه قيل : **حين بقّل وجهه** ، بتخفيف القاف . فان اسودّت لحيته بالاتصال قيل : **حين اتصلت لحيته** . فان تم شعر وجهه قيل : **شاب** .

فان ظهرت في لحيته شعرات بيض يسيرة،قيل : **حين وَخطه الشيب.**
فان زاد حتى يستوي البياض والسواد ، قيل : **مجتمع** ، وقيل:**كهل.**
فان زاد البياض على السواد ، قيل : **أشيب**

فان استكمل البياض قيل **شيخ** . وليس يكتب في ديوان الجيوش شيخ لقلة ذلك فيهم .

فصل في اللحى :

فان كان شعر لحيته موفرا من جميع الجهات قيل : **ألحى** . فان كانت موفرة الطول قيل : **طويل اللحية** ، وبعضهم يكتفي بقوله : **ألحى.**وان كانت موفرة الذقن ، خفيفة في العارضين قيل : **خفيف العارضين** . فان قَلّ الشعر في الذقن والعارضين قيل : **كوشج** . فان قلّ شعره حتى يكون متفرقا جدا ، قيل : **سناط** . فان عري وجهه عن الشعر قيل : **شط و أشط** . وان كان شعره يعلوه **شقرة** ، قيل : **أشقر** . فان زاد على ذلك حتى احمرّ ،قيل: **أصهب** . فان كان سدل الشعر قيل: **سبط الشعر** . فان كان بخلاف ذلك ،

قيل : **جعد الشعر** • حين يكون متفرقا جدا •

ثم ينظر في اللون : فان كان ابيض فان العرب يكتبونـــه : **ابيض** : والمتأخرين : **تعلوه سمرة** ؛ واتفق الجمهور انهم يكتبونه : **اسمر** • **وكذلك** لا يلقون (بالا) الى اصفر اللون ، لان هذا مما يدخله لبس بزواله ... ، الا ان يكون اصليا ، فله اسم يخصه :

فان كان الرجل ابيض يعلوه حمرة قالوا : **اسمر مشرب بحمرة** •

فان كان عليه سمرة مشرب بحمرة ، فان كان عليه سمرة خفيفة قيل: **أدم** ، فان زادت قليلا قيل : **أدم ظاهر الادمة** ، فان زادت كثيرا قيـــل : **اصفر** ، فان اظلم لونه : قيل : **اسود** •

ثم ينظر في الشعر المتصل من الراس بالجبهة : فان تحاصَّ على أعلى جبهته قيل : **أنزع**،فان كان قليلا قيل : **خفي** ، وان كان كثيرا قيل : **بـيِّن** • فان كان بذلك المكان اثر ، قيل : **وبنزعته أثر**،ويذكر مكانه ، ان كان بجانب اليمين او اليسار . فان كان أكثر من نزع... قيل : **أجلح** • وكان علي ابن ابي طالب ، رضي الله عنه ، كذلك . فان استوعب مقدار الراس قيـــل : **اصلع** •

ثم ينظر (الى) الجبهة : فان كانت واسعة ، قيل : **واسع الجبهـة** ، وان كانت بخلاف ذلك ، قيل : **ضيِّق الجبهة** • فان (كان) جلدها متكسرا ، قيل : **بها غضون** ، فان كان بها اثر ، يذكر صفته من جانب كذا وكذا . فان اتصل بشعره ، قيل ، **متصل بقصاص شعره** • فان اتصل بحاجبه الايمن او الايسر ، ذكره وقيل : **مقترن بحاجبه** • وان كان بها خـــال ، قيـل : **بها خال** ، **خفيّ** او **بيِّن** ، من جهة كذا .

ثم ينظر في حاجبيه : فان اتصلا قيل : **مقرون الحواجب**،**بيّن** او **خفيّ**.

فان كان بينهما خط من انثناء . قيل : **مقرون بينهما خط** او **خطان** ، ان كان مستطيلا . فان كان معترضا قيل **بينهما انثناء** . وان كان بينهما خال ذكره . ثم يذكر كثرة شعرهما ، ان كان ، او قلّته فيقول **مقرون الحاجبين، غليظهما، او دقيقهما** . فان انفصل ما بينهما من الشعر ، قيل : **أبلج** ويقال : **ابلد وأفرق** . فان رقّ الحاجب في لطافة ، قيل : **أزج** . في اللغة : مُزجَّج . فان كان شعره كثيفا زايدافهو **أوطف** . فان سبغ وانعطف فهو : **أقوس** ، فان رق وخف في نبته فهو : **انمص** ، فان غلظ من قدام ودق من أخر فهو **ادمص** ، فان ذهب شعره كله فهو **امرط** .

ثم ينظر في الأنف : فان طال قيل : **طويل الأنف** . فان علا قيل : **اقنى الأنف** وبعكسه : **قصيره** . فان كان علوه من قبل آخره فهو **أشمّ** ، فان غلظ قيل **غليظه** ، وبعكسه **دقيقه** . فان اقبل طرف انفه على فمه ، قيل : **أورد الأرنبة** . فان انبسط منخراه قيل : **منتشر المنخرين** ، فان عرض وسطه قيل : **أفطس** . فان انخفض آخره قيل : **اخنس** . فان مال الأنف الى أحد الجانبين قيل : **أورد** ، فان كان في طرفه قطع فهو **اجدع** ، فان كان في أحد الناشرين فهو **اخرم** ، فان كان صغيرا مليحا قيل : **أدلف** . . . فان كان قصيرا قبيحا قيل : **ادلف اكزم** فان اشتدت فطسته قيل : **أفطح** . فان زاد على ذلك حتى صار كانف البقرة قيل : **أختم** ، فان كان مرتفعا في ملاحة فهو **أشم** . فان اشتد اقبال طرفه على فيه ، الشفة ، فهو **احجن** . فان مال ذلك منه الى أحد الجانبين فهو **أفغم** . فان ارتفعت ارنبته نحو القصبة فهو **اقنى** .

ثم ينظر في الشفة فان كانتا غليظتين قلت : **غليظ الشفتين** ، وبالعكس دقيقهما فان كانت الشفة العليا منقلبة قيل لها : **قالصة** . وان كانت قصيرة قيل : **منشمرة** ، فان انقلبت السفلى قيل : **هدلاء** ، ويقال : **دالعة** . فان

كان في العليا شق قيل : **أعلم** . فان كان في السفلى قيل : **أفلج** . فان كان في وسط العليا نثرة فهي **طرماء** ، فان كانت النثرة في السفلى قيل : **ترفاء** .

ثم ينظر الى بشرة الوجه فان كان مضطمس الخدين قيل : **مضموم الخدين** . فان كان بأعلاهما نتوء قيل : **ناتىء الوجنتين** . فان كان بوجهه اثر جدري قيل : **مجدور ، بيّن** او **خفيّ** . فان كان في مواضع متفرقة قيل : بوجهه **نبذ جدري** . ثم يذكر خالا ان كان به ، وصفته في أي موضع منه كان ، ويقول لونه ، ويذكر لونه فيقول : **أحمر** ، ان كان ، او **أسود ، بيّن** . ويذكر ما في الوجه من نمش او اثر مستطيل او معترض،او ضربة او غير ذلك .

ثم ينظر الى الأسنان فان كان بينها انفراج قيل : **افلج او مفلج الثنايا،** ان كان مختصا بها ، والرباعيات والنياب السفلى والعليا ، او كلتيهما ، او اليمنى او اليسرى ،او كلتيهما . فان سقط منها شيء ذكرته وذكرت موضعه ، وما هو ، قيل : **ساقط كذا وكذا** ، السفلى والعليا ، اليمنى او اليسرى . وان اخضرّ لونها ، او لون بعضها ، قيل : **فاسد ذلك منه** . فان انسحج طرفها فهو **كشّ** ، **بيّن** او **خفي** . فان انسحج حتى يستوي مع الميت قيل : **أدود** . فان انكسر قيل : **أهتم** . فان ذهبت اسنانه وبقيت اسنأخها فهو **ألطع** .

ثم ينظر الى اذنيه : فان كان صغيرهما قيل **أصمغ** ، فان كان مثقوبهما قيل : **مثقوب الاذنين** ، فان كان في احديهما ذُكِرْتُه . وكذلك يذكر ان كان مقطوع الاذنين ، احداهما ، او بعضهما .

ثم ينظر الى ظاهر كفيه وساعديه وباطنهما،فان كان به اثر من ضربة او نار او غير ذلك يقال : **في يده كذا وكذا** .

فهذا مختصر ما جرت به العادة في ديوان الجيوش .

الباب الرابع من التعليم الثامن
في شيـــات الخيـــل

اول ما يبدأ به فيقال فرس أو شهري او برذون ، والانثى منها حجر، ويقال له بغل او بغلة ، ثم يذكر اللون : فان كان اسود قيل **ادهم** ، فان عَلَته من الدهمة زرقة قيل : **ادهم يشبه اخضر** ، فان اشرب اسود او ظاهر حمرة في باطنه تلي الصفرة قيل **ادهم أحوى** . فان كان حلوا في اللون فهو **كميت** . ولون الكميت لون المسك، فان كان أصفر من ذلك قيل : **فاقـــع الصفـــرة** . فان كان اصفى من ذلك قيل **كميت يشبه اصفر** ، وان شيت : **اشقـــر يشبه كميتًا** . وكذلك كل لون اشكل اعتمد فيه على الاقوى وشبه الاخر . ومـــن هذا يقولون **ادهم يشبه كميت** ، **وكميت يشبه ادهم** . والكميت يكون اسود العرف والذنب ، فان كان احمر العرف فهو **اشقر** ، فان كان اصفر العرف والذنب والجلد فهو **اصفر** . وان (كان) اصفر اسود العرف والذنب والجلد قيل **سمور** . فان كان ادغم اللون ، كلون البغال ، فهو **اخضر** ، نكتبه فـــي كتاب العرض ، وبعض الناس يكتبونه **ادغم** . فان كان اشقر يميل الـــى الصفرة فهو **ورد** ، والأشقر اشد صفرة من الورد . فان كان اشقر تعلوه زرقة او ظلمة فهو **اصدى** . وهو ان يكون شعره بيضا مُنافِدة للدهمـــة والكتمة، فهو صافي، فان كثر الشعر المنافد في احد اللونين واشتد ظهوره فهو **اشهب** احمر بسواد او حمرة . فان كان اشهب الا ان في الحمرة آثـــارا سودا مباينة لجملة اللون فهو **زرزوري** اللون . فان كان ناقصا عن الكتمة وزايدا على الشقرة فهو **أحمر** . فان كان ناصع البياض فهو **قرطاســـي ولباج** والعرب تسمي اللون الواحد **بهيما** ، وتسمي الاشهب والضبابـــي **اشيم وأحم** . فان اجتمع فيه لونان ، وكل واحد من اللونين نكتة مفردة عن الآخر فهو **مدبر** . ثم انظر في شية الراس : فان ابيضّ اعلى راسه فهـــو **اصقع** ، وان ابيضّ اصل ناصيته فهو **اقنف**، وان كان في اذنيه شعرات بيض

فهو **أدرا** ، فان ابيضّ ما بين اذنيه الى البطن فهو **موشح** . فان ابيض أكثر راسه فهو **أرخم** ، فان شمل البياض راسه فهو **أغشى** .

ثم ينظر في شيةّ الوجه : فان كان في وجهه بياض صغير ، كالدرهم ، فهو **أفرح** ، فان كان أكثر من ذلك فهو **أغر** ، فان كان شديد البياض فهو **أغر موجح** . فان سالت غرته فهو **أغر سايل** . فان دقت وجللت الخيشوم فهو **شمراخ** . فان سالت الغرة الى احد شقي وجهه فالذكر والانثى **لطيم**. فاذا اخذت الغرة احدى العينين فهو **أشعل**،فان شملتهما فهو **مغرب** ، فان ابيضّت شفته العليا فهو **أرقم** ، فان ابيضّت السفلى فهو **ألمظ** ، فان تعدى الى ناصيته البياض فهي **قرعاء** و **مقرعة** . فان عمها فهي **بشغاء وفاشغة** . فان ابيضّ راسه وعنقه فهو **أدرع** ، فان ابيضّ ظهره فهو **ارجل** ، فان ابيضّ عجزه دون مقدمه فهو **أذرف** . **فان** ابيضّ جنبه او كلاهما فهو **أحصف** ، فان ابيضّ بطنه ولم يبلغ الجنب فهو انبط ، فان بلغهما فهو **أجوز ويجوز** ؛ فان جاوز جوزه ، وهو وسطه ، الى الظهر فهو **أرح** ؛ فان ابيضّ ظهره وبطنه فهو **مبطن** . فان كان في ظهره اثر سجح السرج ونبت شعر ابيض فهو **موفغ** . فان اعتدل السواد (والبياض) فيه نصفين او ما يتقاربان فيه فهو **ابلق** . فان كانت قوايم الفرس بيضا ، قَلَّ او كَثُر ، الى نصف الرضيف او ثلث منها ، فهو **محجل** . فان بلغ البياض ركبته وعرقوب الرجل ، او الى الركبتين او العرقوبين ، فهو **محجّل محبب** . فان جاوز ذلك الى فخذيه وعضديه فهو **مسرول** . فان (كان) البياض في رجل واحدة فهو **أرجل** . فان كان البياض في رجل ويد فهو **مشكول** ، وهو الشكال،فان كان محجل يد ورجل من احد شقيه فهو **متميل الايامن مطلق الأياسر** . والامساك والاطلاق ما ليس به بياض . فان كان البياض في يديه دون رجليه فهو **أعصم** . وقد قيل : يكون (في) احدى اليدين دون الأخرى ، فان كان البياض في يديه دون رجليه ، وبلغ مرفقيه فهو **اقفر**،وكذلك اذا كان البياض

باحدى يديه كان بقوائمه شعرات بيض فهو **مختّم وبه خاتم** ، فان زاد قليلا فهو **منعّل** ، فان استدار برجليه دون يديه فهو **اخدم ومخدوم** ، فان كان ذلك باي رجليه فهو **ارجل** ، فان ابيضّ ذنبه (فهو ــ **اصبع**) فان ابيضّ بعض ذنبه فهو **اشعل** ، فان كان على ذنبه بَرَش فهو **موقف** . فان كان بـــــــه سِمَة في فخذه ذُكر ذلك، وان لم يكن (به) سمة قيل : **غطل** .

فهذا (ما) في الشيات ، لا بد لكاتب الجيش من ذلك .

الدكتور احمد سعيدان

●★★●

إزدواجية اللغة

للدكتور محمد راجي الزعول

جامعة اليرموك

تعتبر مشكلة ازدواجية اللغة العربية من اهم المشكلات اللغويـــة الاجتماعية التربوية التي تواجه الوطن العربي . ولطبيعة هذا الموضوع الحساسة من الناحيتين القومية السياسية والدينية فانه لم يلقَ عنايـــة موضوعية كافية،أو بحثا مستفيضا في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة التطورية والمقارنة منها . في هذا البحث سأتناول قضية الازدواجية بالتعريف، واربطها بالوضع اللغوي العربي، شارحا أربعة أنماط للعربية تحدَّث عنها الغربيون،وتبعهم العرب في الحديث عنها ؛ ثم فكرة الدعوة الى العامية،مبيّنا ثلاث مراحل تاريخية هامة لتطورها.ومن ثم سأناقش هـذا الوضع في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة،لاخلص بنتائج واقتراحات آمل ان تكون موضع المناقشة والتنفيذ . ونظرا لان جذور المشكلة تكمـــن في الاهتمام الذي ابداه الغربيون بها ، فسأورد في كثير من المواقع استشهادات مما قاله بعض مفكريهم في الجوانب المختلفة لهذه القضية .

ان كلمة « ازدواجية » ترجمة للاصطلاح الانجليزي "Diglossia" . يُعتَقَد ان اول من تحدث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الالماني كارل كرمباخر

في كتابه المشهور **مشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة** (١) عام ١٩٠٢، اذ تطرّق الى طبيعة هذه الظاهرة واصولها وتطورها ، واشار بشكل خاص الى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص الى نتائج تفسر كثيرا من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي ، اذ اقترح على اليونانيين ترك « ازدواجيتهم الشرقية » واللحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية، كذلك دعا العرب الى ترك فصيح لسانهم وتبنّي احدى اللهجات ــ مفضلا المصرية ــ لغة قومية . لكن الراي العام المقبول في ادب هذه الظاهرة اللغوية هو ان العالم الفرنسي وليم مارسيه اول من نحت هذا الاصطلاح (بالفرنسية La Diglossie) وعرّفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام ١٩٣٠ بقوله :

« هي التنافس بين لغة ادبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث»(٢) وبعد ثلاثة عقود من الزمان ، وعلى جهة التحديد عام ١٩٥٩، وفي مقالة تُعَدّ من اشهر ما كتب عن الموضوع ــ لانه قلما تجد باحثا في الازدواجية لم يرجع اليها ــ قدّم اللغوي الامريكي شارلز فيرجسون هذا الاصطلاح الى الانجليزية، اذ بحث اربع حالات لغوية تتميز بهذه الظاهرة، وهي: العربية واليونانية والالمانية السويسرية، واللغة المهجنة في هايتي . كما قدّم فيرجسون تعريفه المعروف لهذه الظاهرة :

« حالة لغوية ثابتة نسبيا، يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطا محددا او انماطا مختلفة باختلاف الاقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف ، عالي التصنيف (وفي غالب الاحيان أكثر تعقيدا من الناحية القواعدية) فوقي المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، او لجماعة سالفة، ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية ، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه

لا يستعمل من قبل اي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية » (٣)

دعا فيرجسون هذا النمط « المرتفع » وهو الفصحى ، وقارن استعماله « بالمنخفض » وهو النمط العامي واعطى نموذجه التالي لاستعمالات كل منهما لتوضيح الفروق المذكورة : (٤)

الحالة	عال	منخفض
١ ــ الوعظ في المسجد (أو الكنيسة)	×	
٢ ــ التعليمات للخدم والعمال والكتبة		×
٣ ــ الرسائل الشخصية	×	
٤ ــ الخطبة في مجلس الأمة ، الحديث السياسي	×	
٥ ــ محاضرات الجامعة	×	
٦ ــ الحديث مع الأصدقاء والزملاء وافراد العائلة		×
٧ ــ اذاعة الأخبار	×	
٨ ــ التمثيليات الاجتماعية في الاذاعة		×
٩ ــ افتتاحية الصحف ، أخبار الصحف والعناوين	×	
١٠ ــ التعليق على الكاريكاتير		×
١١ ــ الشعر	×	
١٢ ــ الأدب الشعبي		×

ويمضي فيرجسون في المقالة نفسها ليتنبأ بما ستكون عليه الحالة اللغوية في اللغات الأربع المذكورة بعد القرنين القادمين وعلى وجه تقديره عام ٢١٥٠ . والجزء الخاص بالعربية جدير بالذكر هنا ، ويفسر لنا أيضا بعض الاتجاهات والدعوات في العالم العربي . يتوقع فيرجسون أن يكون هناك تقدم بطيء نحو تطور مجموعة من الانماط اللغوية يرتكز كل منها على

احدى العاميات مع مزيج مركز من مفردات الفصحى . وهناك بناءً على توقعه ثلاثة انماط رئيسية : أولها العربية المغربية،وترتكز على عامية الرباط أو تونس ؛ وثانيها المصرية،وترتكز على عامية القاهرة ؛ والثالثة ما أسماه المشرقية،وترتكز على عامية بغداد . ويضيف فيرجسون مكملا توقعاته انه بناء على تطورات سياسية واقتصادية غير متوقعة،فلربما نشأ نمط جديد للعربية في سوريا،مرتكزا على عامية دمشق،وآخر سوداني يرتكز على عامية أم درمان أو الخرطوم ، أو انماط اخرى على حد قوله . (٥)

ودعا فيرجسون في ختام مقالته المختصين لدراسة هذه الظاهرة بشكل أوسع،وقد تم ذلك بالفعل،وخاصة بين علماء اجتماع اللغة . يقول دل هايمز (٦) اللغوي الاجتماعي الأميركي تعليقا على مقالة فيرجسون إن الازدواجية مثال ممتاز لتعايش نظامين غير متبادلي الفهم (ويقصد هنا الفصحى والعامية،وصعوبة فهم الفصحى على العوام) وترابط كل من هذه الأنظمة بمفاهيم وقيم مختلفة ، وكمثال لضرورة الرجوع الى الجماعة المحلية للتحكيم لتجنب اي تحريف أو تشويه قد ينشأ بحالة الاتصال . وكذلك تعرّض لهذه الظاهرة بالدرس كل من جمبيرز Gumperz وفشمان Fishman ؛ فقد أضاف جمبرز في أعماله الكثيرة ذات العلاقة بهذه الظاهرة (٧) أن الازدواجية ليست حصرا في المجتمعات المتعددة اللغات، التي تعترف رسميا بعدة لغات ، ولا في المجتمعات التي تتكلم أنماطا عامية وفصحى،ولكن في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة ، أو أساليب مختلفة،أو اي أنماط أخرى تخدم وظائف مختلفة . كذلك بحث النماذج الاجتماعية التي تحدد استعمال نمط دون آخر . أما فشمان (٨) فقد لخّص ما قدّمه لدراسة هذه الظاهرة بأنه تناول استمرارية الازدواجية وتحليلها على المستوى القومي والاجتماعي . وحاول ربط الازدواجية ببعض الاعتبارات النفسية وما يختص منها بثنائية اللغة bilingualism

بشكل رئيسي،ودرس نماذج من الجماعات التي تتميز بالازدواجية والثنائية، وبالازدواجية دون الثنائية،وبالثنائية دون الازدواجية ، والجماعات التي لا تعاني من الازدواجية أو الثنائية . وقبل سنوات قليلة ، تناول الن كي(٩) A. Kaye تعريف الازدواجية بشكل مختلف،اذ انتقد تعريف فيرجسون لها،ووصفه بأنه « انطباعي »،ونظر الى وضع الازدواجية كوضع لا يميل الى الاستقرار والثبات كما فهمه فيرجسون ؛ كذلك فهم الفرق بين النمطين الأساسيين للعربية الفصحى والعامية بأنه الفرق بين نمط معرف " well defined " ، وهو العامية،وغامض التعريف " ill defined " وهو الفصحى . فالعامية في رأيه نمط معرف ، لأن الطفل يتعلمها لغة أولى،أما الفصحى فانها نظام غامض التعريف لأنها لا تكتسب لغة أولى،بل يتعلمها الطفل فيما بعد في المدرسة . وفي اعتقاده انه لوجود تفاعل مستمر بين النظامين ، لا يمكن أن نستنتج بأن الوضع الازدواجي يميل الى الثبات ، بل على العكس هو متغير .

- لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في اية لغة انه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة ؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقا للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي . يقول الباحث سوتيرو بولص(١٠) الذي تناول بالتفصيل الوضع القائم باليونان،حيث كان لأمد قصير التنازع بين الفصحى والعامية كلغة للبلاد (لقد حلت المشكلة في اليونان قبل بضعة اشهر بتبني العامية « ديموتيكا » لغة رسمية للبلاد،وترك الفصحى « الكاثارفوسا » بناء على قرار حكومي) في وصف انعكاسات الازدواجية اللغوية .

... « وان تكن الازدواجية ، وبشكل موضوعي ، أداة بارعة للضرورة،فانها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية

التعليم والاتصالات وأجهزة الاعلام لعائق . بالاضافة الى ذلك ، اذا اعتبرنا إن وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب، وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية ، فان وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محددة، بل معقدة لقوتها التعبيرية . الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي ».

هل يُصدُق هذا على العربية ؟ ان كان الحال كذلك فكيف الطريق لتجنب تلك العوائق ؟ هل للعربية وضع خاص يختلف عن غيرها من اللغات ؟ سأحاول الاجابة عن هذه الاسئلة بعد أن أحدد المشكلة في سياقها العربي . لذلك سأبدأ ببحث أربعة أنماط للغة العربية ، يعرف منها العرب الفصحى والعامية ؛ أما النمطان الآخران فقد ابرزهما كتّاب غربيون أو عرب تعلموا بالغرب وبأمريكا خاصة . ولو وضعنا الأنماط الأربعة على خط مستقيم لوجدنا الفصحى على طرفه الأيمن ، والعامية على طرفه الأيسر، وقارب كل من النمطين الجديدين أحد الطرفين . والانماط الاربعة هي العربية الفصحى ، العربية الحديثة ، عربية المثقفين والعامية . سأبحث تلك الأنماط مبينا بعض الاتجاهات نحو الأنماط، مناقشا ومبيّنا بعض آراء الدارسين الغربيين لظاهرة الازدواجية في اللغة العربية .

١ ــ العربية الفصحى، وهي ما يسميه الغربيون Classical Arabic أو Fusha Arabic. وما سماه فيرجسون بالنمط العالي أو « المرتفع » .

الفصحى بالدرجة الاولى هي لغة القرآن ولغة الاسلام، وهي الوسط الذي انتشر به الاسلام دينا وثقافة . والعلاقة بين العربية الفصحى والاسلام علاقة عضوية حميمة . قال تعالى : « انا انزلناه قرآنا عربيا »، وقال « بلسان عربي مبين » . ولا غرو أن يكون هذا السبب الأول في

احتفاظ العرب على اختلاف مآربهم واهوائهم عبر التاريخ ورغم كل ما بذله الغازون والمستعمرون عبر التاريخ العربي الاسلامي من جهد في سبيل تحويرها او تحريفها او ابدالها بلغة اخرى . ولا بد من نظرة عميقة في هذه العلاقة بين العربية والاسلام التي تنعكس في آراء المسلمين في بلاد منها الصين وبورما وافغانستان وروسيا السوفيتية وغرب افريقيا وفي آراء ومعتقدات العرب منهم خاصة حتى ندرك قيمة هذه اللغة ومدى تمسك المسلمين بها . وقد حاول عدد من المفكرين المسلمين أن يشرحوا او يبينوا هذه العلاقة وللفكر الغربي بالذات ، وللمستغربين في تفكيرهم . فعلى سبيل المثال يقول الشيخ عناية الله الاستاذ في جامعة البنجاب في مقالة نشرتها مجلة Islamic World في توضيح هذه العلاقة (١١) :

« العربية ذات اهمية عظمى كونها اللغة الدينية للمسلمين الذين يكوّنون خمس الجنس البشري ... ويتم التأكيد في القرآن الكريم مرارا وتكرارا على حقيقة ان كلمة الله قد أوحي بها باللسان العربي . ومن طرف العالم الاسلامي الى الطرف الآخر ، ومهما كانت لغة المسلم سواء كانت بربرية أم حوساوية ام بشتو ام فارسية ام تركية ام جاوية ام ملاوية، فان الصلوات تقام خمسة اوقات بالعربية يوميا . أما الكلمات الأساسية في العقيدة الاسلامية ــ لا اله الا الله محمد رسول الله ــ فانها تهمس في اذن الوليد ومن بين أولى الجمل التي يعلم الطفل أن ينطق بها ، وينبغي ان تكون هي الكلمات الاخيرة على شفاه الميت » .

ويستطرد الشيخ عناية الله :

« بدون العربية يكون فهم الاسلام ناقصا ولاي فهم للأفكار المؤثرة بطريقة حياة المسلمين وعقائدهم التي يعتبرونها اكثر الاشياء قدسية ومبادىء دينهم واخلاقهم التي ينشأون عليها ، علينا ان نعود للعربية

فهي الأداة الأصيلة لكل العلوم الدينية في الاسلام » .

من هنا نبع الاعتقاد بقدسية اللغة العربية بشكلها الفصيح،وقد اثر هذا الاعتقاد تأثيرا واضحا باتجاهات العرب نحو لغتهم . يقول انور شحنة (١٢) في كتابه المعروف في الغرب عن اللغة العربية واهميتها في التاريخ واصفا اثر هذا الاعتقاد :

« ان الايمان بقدسية القرآن فيما يتعلق بمعانيه وكلماته،وحتى ادق تفصيلاته،اصبحت تشمل وتحتوي اللغة العربية بكليتها . ان مسألة كون العربية اعطية الله - وبناء عليه فهي فوق اللغات جميعا بجمالها وثروتها ونبلها - قد استحوذت بعمق على اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الاسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم » .

ان ما لا يفهمه الغربيون والمستغربون من اعداء امة العرب هي هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الاسلام والعربية،وما لها من انعكاسات على تفكير المسلمين ، ومنزلة هذه اللغة بانفسهم . وعلاوة على ذلك كله ما تركته هذه اللغة من آثار على استمرار الخط الحضاري المتماسك للعرب والمسلمين . فبالاضافة الى كونها لغة الاسلام ، فقد كانت اللغة التي سُجّلت بها الحضارة العربية الاسلامية وحُفظت . ولا نستطيع ان نعطى هذه النقطة حق قدرها الا اذا امعنا التفكير فيها،ووضعنا الفرضيات المختلفة فيما لو كان الحال غير ذلك . دعني هنا اقتطف بعض ما قاله المستشرق كاشيا في تبيان توضيح هذا الأمر ؛ يقول كاشيا :

« فوق ذلك كله فان الفصحى هي مفتاح تلك الكنوز الضخمة من الماضي ... ثباتها لم توازه اية لغة،وفي هذا اليوم يستطيع اي عربي في المرحلة الثانوية من تعليمه ، ان كان مهتما وقادرا على بذل قليل من الجهد، ان يعبر الى (ويكون في متناوله) السجل الكامل للألف وثلاثماية عام

الماضية » (١٣)

هل يستطيع الانجليزي أو الفرنسي أو الاسباني عمل ذلك ؟ هل يستطيع التركي أو الطلياني عمل ذلك ؟ هل يستطيع أي شاب من تلك الجنسيات أن يقرأ تراث أمته كما كتب لفترة ما قبل الف عام مثلا ؟ وحتى خمسماية عام ؟ تتمنى الأمم أن يكون ابناؤها قادرين على دراسة تراثها لهذه الفترة الزمنية . ان الانجليزي، على سبيل المثال، لا يستطيع أن يقرأ أي شيء من تراثه بشكله الأصلي مما يزيد تاريخه على خمسماية عام، وحتى ذلك من الصعوبة بمكان . اننا لن نستطيع ادراك اهمية ذلك الا اذا أدركنا قيمة الاستمرارية الحضارية على المستوى الانساني وبشكل شامل .

بالاضافة الى هذه العلاقة مع الاسلام فان علاقة العربية بالقومية العربية والوحدة العربية ليست أقل من ذلك بمكان ؟ فهي عماد القومية العربية، واحد اهم مكوناتها، كما أوضح ذلك عدد كبير من كتاب العالم العربي وادبائه، من بينهم ساطع الحصري في معظم كتاباته في هذا الميدان . (١٤) كذلك ما زالت العربية بشكلها الفصيح اكبر قوة موحدة في عالم عربي تتنازعه قوى التفتت، بعد الاسلام . وهنا أود أن أقتطف بعض ما قاله الأستاذ السابق في الجامعة الأميركية في بيروت ريتشارد يوركي في مقدمة لمحاضرة القاها في قاعدة لاكلانز الجوية الأميركية، بمجموعة من العسكريين الاميركيين الذين يدربون مبعوثي بعض الجيوش العربية في أميركا . يقول يوركي :(١٥)

« وعلى اختلاف تلك الدول وتشعبها ، هناك قوة موحدة عظيمة واحدة : العربية الفصحى ؛ هذاالنمط من العربية الذي تحمّل وثبّت لالف وخمسماية عام خلت ، والذي يعتبر لغة القرآن المقدسة، ويحترم تراثه الادبي الهائل . بشكل رئيسي ، لم تتغير هذه النوعية من العربية منذ عهد محمد، وهي تراث عام يوحد جميع العرب : ذلك العربي الفرنسيّ

الثقافة في المغرب ، وذلك الكاتب الانجليزي التعليم في فلسطين، وذلك البدوي الذي ما زال متنقلا في الحجاز ، جميعهم يتقاسمون احتراما شبه أسطوري لفصاحة ومرونة العربية، وبشكل خاص ما دعاه المستشرق البريطاني جب « لغة الأدب الثمينة، والمزينة بخيال غالبا ما يكون ساحرا ومترامي الاطراف » .

بالرغم من تلك الوظائف التي تؤديها، وأدّتها، العربية الفصحى ، الا انها وصفت وتوصف من قبل أبنائها أحيانا واعدائها احيانا اخرى بالجمود والاصطناعية والصعوبة المتناهية، خاصة من قبل الداعين الى العامية .

كذلك يعتبرها عدد من الباحثين لغة « غير طبيعية »، لأنه ليس هناك من يتعلمها لغة أولى، بل يتعلمها الطفل لغة ثانية في المدرسة . وهذا الكلام ، ولا شك ، نابع عن جهل، اذ ان الكثير من اللغة العربية الفصحى يتعلمه الطفل اثناء اكتسابه لعاميته . أما صعوبتها وصعوبة تعلّمها فيتذرع الداعون لذلك بصعوبة نحوها الذي كتب قبل ما يقارب الف عام، وقلما تغيّر بعد ذلك . بالرغم من ذلك فانه يشهد لها كواحدة من أغنى ، ان لم تكن أغنى ، لغات العالم بمفرداتها. ورغم أن فيرجسون، في مقالة ثانية عما دعاه خرافات عن اللغة العربية، يدرج هذه كاحدى الخرافات، الا انه يدعمها كحقيقة بقوله إن ذلك ناتج عن الاستمرار الطويل في استعمال الفصحى، ودوام اثرائها من اللهجات وطرق النحت الاخرى . (١٦)

٢ ــ العامية أو المحكية أو الدارجة، وهو النمط الذي يسميه الباحثون الغربيون Colloquial Arabic او Spoken Arabic .

في الكثير من الأبحاث المنشورة عن العربية ، هناك تركيز على الفكرة القائلة بأن اللهجات العامية تطورت عن الفصحى، بعد اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية، واتصال الشعوب العربية بشعوب أخرى

بالاضافة الى توزيعهم الجغرافي . لا داعي هنا لمناقشة هذا الراي ، لكن هناك الكثير من الدلائل التي تشير الى أن اللهجات العربية قديمة قدم اللغة العربية نفسها،وما الفصحى مقارنة بتلك اللهجات الا لغة أدبية مشتركة،كتّب بها الشاعر الشمالي والجنوبي والشرقي والغربي،على اختلاف لهجاتهم المحلية تبعا لاختلاف لهجات قبائلهم .

كذلك كانت هذه اللغة الأدبية هي أداة التفاهم في اللقاءات والأسواق الادبية . يخلص الدكتور محمود حجازي في كتابه "اللغة العربية عبر القرون" (١٧) الى نتيجة أنه انطلاقا من وجود هذه اللغة الأدبية فانه « من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم بلسان عربي مبين »،وأن لا يكون محليا في التعبير بلهجة ما،بينما الاسلام دعوة الى تجاوز المحلية القبلية الى أفق عالمي أرحب . وقد اعتبر عدد من الباحثين أن هذه اللغة الأدبية هي لهجة قريش،وقد تبنى من بين المحدثين الدكتور صبحي الصالح في كتابه « دراسات في فقه اللغة » وجهة النظر هذه ودافع عنها . (١٨) بالرغم من ذلك فان اللغويين العرب لم يبدوا اهتماما باللهجات ودراستها ؛ ومردّ ذلك غلبة التشابه بين هذه اللهجات من جهة،وبينها وبين اللغة الأدبية من جهة اخرى،وسهولة التفاهم أو وجود ما يسمى بالنظرية اللغوية الحديثة « الفهمية المتبادلة » (Mutual intelligibility) بين هذه اللهجات واللغة الأدبية . بالرغم من عدم الاهتمام الفائق ذلك،فان هناك اشارات للمزايا البارزة لكل من هذه اللهجات واختلاف بعضها عن بعض ، اورد الكثير منها ابن جني في الخصائص (١٩) . ومن الطبيعي أن يكون التركيز على المزايا البارزة،وخاصة في حقل الأصوات،وهو حقل يثير الاهتمام والملاحظة . وجملته المشهورة تلخص بعض الخصائص البارزة لتلك اللهجات حين قارنها بلهجة قريش « فقد ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة،وكسكسة هوازن،وتضجع قيس،وعجرفية

ضبة، وتلتلة بهراء » ، كما ورد المزيد منها في المزهر (٢٠) كالفخفخة في لغة هذيل، والعجعجة في لغة قضاعة، وشنشنة اليمن، ولخلخانية اعراب عمان، وطمطمانية حمير ... الخ .

لكنه باتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية، ومخالطة الاعاجم، والاتصال بلغات مختلفة ومتعددة الأصول والفروع، أخذت الفوارق تزداد بين تلك اللهجات من جهة، وبينها كمجموعة وبين الفصحى من الجهة الأخرى . وبالرغم من اتساع الفوارق، الا أن انتشار الفصحى لم يتوقف، اذ كانت هي الأساس، وأصبحت لغة العلم والسياسة والابداع والتاليف والترجمة فيما بعد . ثم أخذت في الركود في العصور المتأخرة، حتى كان الحكم العثماني ومحاولات التتريك، ثم الاحتلال الفرنسي ومحاولات الاحتواء والضم بالقضاء على العربية ، والاحتلال الانجليزي ومحاولات التجزئة بضرب الفصحى . وهكذا زاد اتساع الشقة بين اللهجات والفصحى بزيادة استعمال اللهجات، وقلة استعمال الفصحى، حتى وُصف بعضهم الفصحى بانها لغة ثانية ، وأصبح الاعتقاد الشائع أن الفهم المتبادل بين اللهجات ضعيف .

ينظر العربي بشكل عام للهجته بالنسبة للفصحى على انها ليست ناقصة وحسب، بل انها تشويه للغتنا المقدسة ، لغة الفصاحة والأدب. وقد وُصفت العاميات بأقذع الألفاظ من قبل الأدباء والكتاب العرب، فهي مصاحبة للجهل والسوقية، كما قال عبد الملك (٢١) لغة السكارى والخدم ... فوضوية ولا قواعد لها، كما يقول مبارك (٢٢) علامة للجهل والامبريالية، كما يقول ناصيف (٢٣) ، لا تستحق أن تسمى لغة، ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية، كما يقول طه حسين (٢٤) ، ينشرها ويحبذها الأميون، كما يقول فهمي (٢٥) ... الخ . وبعض هذه الاوصاف مبالغة في الاتهام وتنقصه العلمية ؛

فللعامية قواعد، وتستطيع كتابتها ان كان ذلك ذا جدوى؛ وهي تميل الى التبسيط في النحو، اذ تلغي الحركات وتقلّ الأوزان والتمييزات ؛ ولكن هناك اسسا أمتن من ذلك للحكم على العامية وتفضيل الفصحى . وبالرغم من هذه الاتجاهات السلبية نحو العامية في العالم العربي، فان العامية تقوم بوظائف جديدة في عالمنا، ربما تستمر ولردهة من الزمن، وذلك لارتفاع نسبة الامية . يقول صالح الطعمة في كتاب نشرته جامعة هارفارد في أميركا واصفا هذه الوظائف (٢٦) :

« ان تطور اشكال جديدة من الادب والدراما، والاستعمال المكثف لوسائل الاعلام، قد زود العامية بوظائف مهمة في بعض الحالات، كما في الفنون المحلية، كالأغاني، والسينما، فانها تخدم كلفة اساسية . وفي اشياء اخرى، كالدراما والقصص، فقد أخذ استعمال العامية يزداد ويركّز عليه، وخاصة في الأعمال الموجهة للمشكلات الاجتماعية » .

لا شك في ان العامية تميل الى التبسيط، وخاصة في القواعد؛ اذ على سبيل المثال تختفي صيغة المثنى تقريبا، وينقص عدد الضمائر ، وتختفي معظم أوزان الجمع، وصيغ الأفعال، وكذلك تختفي حركات الاعراب . . . الخ. لكن هذا التبسيط هو ولا شك على حساب القدرة على التعبير، ويتناسب طرديا مع تضييق الآفاق لا توسيعها. كذلك فان العامية قاصرة عن ان تفي بالتعبير عن الامور الثقافية والفكرية والفلسفية ؛ وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود الى الفصحى ليمزجها بتراكيب العامية، ان اراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة .

هناك بين هذين النمطين، الفصحى والعامية ، نمطان آخران من ابتداع دارسي العربية والمهتمين بالظواهر اللغوية في الغرب؛ وهما ما يسميان بعربية المثقفين Educated Arabic والعربية الحديثة

. Modern Standard Arabic (M.S.A.)

٣ ــ عربية المثقفين Educated Arabic . عربية المثقفين اسم جديد لنماذج العاميات الاقليمية، وداخل الاقليم الواحد، مع الفصحى في كلام المتعلمين من اقليم عربي واحد، او من أقطار عربية مختلفة حينما يجتمعون . وقد قام بدراسة تحليلية لهذا النمط عدة باحثين، أخص بالذكر منهم ثلاث دراسات قام بها «حاييم بلانك»(٢٧) عندما حلل كلام أربعة من الطلبة العرب القادمين الى امريكا (١٩٦٠) ؛ وشعبان (٢٨) الذي حلل كلام ستة من الطلبة العرب (لبناني ، وسعودي ، وعراقي ، وعماني، وتونسي)؛ وزغول (٢٩) الذي حلل كلام عشرة من الطلبة العرب (سعودي ، ومصريان ، وعراقي ، وجزائري ، وأردنيان ، وسوداني ، وعماني ، ومغربي) .

اتفقت نتائج هذه الدراسات الثلاث على أن ترتيب الكلام يبقى عاميا؛ كذلك يبقى النحو والصرف عاميا، ولكن هناك ميلا لاختيار الألفاظ من الفصحى؛ كما أن هناك ميلا لاستعمال أصوات الفصحى، وخاصة الصحيحة منها . لكن هناك انتقالا للاصطلاح الاجنبي في كثير من الأحيان . ان هذا النمط خليط من العامية وبعض جوانب الفصحى، لكنه يبعد عن الفصحى كثيرا . يقول بلانك مثلا في ختام دراسته :

« انه الاستثناء وليس القاعدة أن تجد اي كلام متواصل في اي من الأنماط المشار اليها (الفصحى أو العامية) ؛ اذ يميل المتكلم الى التنقل من نمط لآخر، وفي داخل الجملة الواحدة » .

ويستنتج شعبان : « تبقى عربية المثقفين بغالبيتها تحت سيطرة العاميات وخصائصها، خاصة في مجالي الأصوات والقواعد ؛ والركون الى الفصحى يعتمد على الموضوع المثار، وبلد المتكلم، ومعرفته باللهجات

الأخرى » .

٤ ــ العربية الحديثة او ما يسمى في الغرب Modern Standard Arabic (MSA) او Neo-Classical Arabic .

لقد تطور هذا النمط من العربية بنمو الصحافة وتطورها وانتشار وسائل الاعلام ؛ ويقصد به تلك النوعية من العربية التي تكتب بها الصحف وتذاع بها نشرات الأخبار والبرامج الثقافية في الاذاعة والتلفاز . يختلف هذا النمط قليلا عن الفصحى ، وما هو الا تبسيط للفصحى من بعض الجوانب،وذلك ليكون الكلام مفهوما لأي عربي يجيد القراءة والكتابة . وهذا كذلك ما سماه الأدباء العرب قبل حين « لغة الجرايد » . للمثقف العربي ليست هناك فروق واضحة ، اذ ما تزال أصوات الفصحى نفسها تستعمل وكذلك قواعد النحو والصرف نفسها .

والفرق الوحيد الذي يستحق الذكر هو الميل الى استخدام الشائع من الالفاظ والبعد عن الاغراب ، والمرونة الزائدة أحيانا تجاه استعمال العبارات المترجمة (مثل يلعب دورا هاما ، في الجانب الآخر ، الخ) والالفاظ المستعارة من اللغات الأجنبية .

ان مفهوم ما يسمى بالعربية الحديثة غريب عن العالم العربي؛والكل يفترض ان هذا النمط هو الفصحى بعينها. ومن غير المتخصصين الذين تلقوا تعليمهم في بريطانيا أو اميركا ، هناك القليل ممن يعلمون بوجود هذا النمط إن وجد فعلا . بالرغم من ذلك فان بعض الباحثين قد بالغ في تقدير هذا النمط خطوة نحو تحديث العربية وتسهيلها. وآراء الباحث جارسلوف ستيتكيفتيش (٣٠) التي ضمنها في دراسة من أوسع الدراسات عن العربية الحديثة،والتي نشرت في كتاب في الانجليزية،جديرة بالعرض والتمحيص لاهميتها وحتى خطورتها في بعض الأحيان . يقول ستيتكنفتش في خلاصة

كتابه عن هذا النمط من العربية (٣١) :

« ان المفهوم الخادع بأن هذا النمط من العربية غير مطعم لموجود ؛ اذ نادرا ما سيكون القاموس ذا فائدة في تتبع آثار الابتعاد عن الفصحى . والتوسعات في المعنى الواردة واسعة وشفافة لدرجة أنها لا تعيق استيعابا مرضيا . توسيع الصفات يدعمه السياق التشبيهي ، والانطباع العام هو ان تلك لغة واضحة ودقيقة بحيث لا يتردد الشعراء والكتاب في استعمالها ، ونادرا ما يركز النقاد على خصائصها . وفي الحقيقة فان الانطباع المتزايد هو أنه لا يبدو ان هناك ما يميز ما يختص بهذا النمط . وهي ليست « بلغة الصحفيين » كما كانت تسمى قبل خمسين عاما . كذلك فانها ليست اختراعا جديدا أو صرعة . لقد غمر الوضوح الطبيعي في هذا النمط المصطلح المستعار، حتى أصبح من الصعب التمييز بأن هذا النمط غريب او خارج عن العربية الفصحى . وفي الوقت نفسه فان قليلا من مستعملي هذا المصطلح العربي الجديد يعلمون مدى قربهم من آفاق لغوية جديدة . يستطيع المترجمون الآن دون عناء ، وبسهولة فياضة أن ينقلوا العربية المعاصرة للغات الحديثة الأخرى، والعكس بالعكس .

كذلك تظهر المحبة والالفة اللغوية على التباين الذي ساد سابقا . كذلك يجد العرب اللغات الأجنبية أسهل، والآخرون يرون العربية أسهل كذلك » .

ويمضي ستيتكيفتيش بعيدا في استنتاجاته ليصل الى نتيجة أن قواعد اللغة العربية الحديثة لم تبدأ بالابتعاد وحسب عن العربية الفصحى ، لكنها بدأت تتسبب في غربنة ديناميكية التفكير في العربية ؛ وأن العربية كلغة قد تعدت حدودها من الوجهة السلالية، من لغة سامية لتدخل مجموعة اللغات الاوروبية الحديثة الفوق سلالية . ونتيجة ستيتكيفتش

التي ينهي بها كتابه جديرة بالتمحيص، خاصة من الهيئات المشرفة على التخطيط اللغوي في العالم العربي . يقول ستيتكيفتش : (٣٢)

« من خلال مفرداتها (الغربية) الجديدة ، وسياق صقل التفكير الذي تقوم به المفردات ، وأخيرا وليس آخرا من خلال تلك الثروة العظيمة والتنويع لتلك النماذج الإصطلاحية المستوعبة، وأشباه الجمل الأدبية المستعارة، فان العربية الحديثة قد تعدت حدود سلالتها النسقية، وانها قد دخلت بصلة الفة مضمارا لغويا حضاريا مع عائلة جديدة فوق سلالية من اللغات الأوروبية الحديثة . اما عملية استيعابها في الغرب فقد بدأت حديثا، لكن تهيئتها ثابتة وخطاها بالطبع سرية . تستمر العربية الحديثة من ناحية صرفها لغة سامية، والى حد بعيد ما زالت الفصحى في هذا المجال؛ لكن بقاءها ضمن هذا التعريف سيكون غلطة . فجلّ تركيب نحوها الآن يتمشى مع ديناميكية تفكير غير سامية الى حد بعيد . فالعقل العربي الحديث يتحول الى فرع للعقل الغربي الحديث، ويحتفظ بالقليل القليل من صلابة ديناميكية التفكير السامية . والعقل العربي الحديث يتحول الى استمرار للعقل الغربي، ولهذا فانه يحتفظ بالقليل من عادات التفكير السامية المتصلبة، وكذلك بالقليل من القوالب الكلاسيكية والخصائص التركيبية، وان روحا لغوية ثقافية حديثة مشتركة تتطور الآن لتكون العامل المعرف للعربية الحديثة » .

لا شك في أن ستيتكيفتش يبالغ في نتائجه بتأثير اللغات الأوروبية على العقل العربي، وطريقة التفكير العربية من خلال التأثير اللغوي، لكن تلك الاستنتاجات لا تخلو من الكثير من الصحة . يعارض هذا الرأي لستيتكيفتيش نجم بزرقان، أستاذ الأدب العربي والفلسفة السابق في جامعة تكساس بأميركا، في مقالة له اذ يقول بأن هناك تيارا جديدا في الكتابة العربية

وهو يمثل الميل الى الكتابة بأسلوب مشابه لأساليب الكتّاب العرب في الفترة الوسطى . ويستشهد بزرجان بكتابه **مصير** لسركيس وكتاب **عبد الله** لكرم كأمثلة لهذا التيار . كذلك يقول بزرجان بأنه رغم التغييرات التي اعترت العربية الحديثة في نحوها واسلوبها فهي استمرار للفصحى، ولذلك فانها « تشهد بانتصار دعاة الفصحى على خصوم ابطال العامية في المعركة التي استعرت في نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت للعقود الثلاثة الأولى من القرن الحالي » . (٣٣)

ان الجانب التاريخي لقضية الازدواجية يقدم بعض العمق لتفهم تلك المشكلة وجوانبها المختلفة . كذلك فان هذا الجانب يقدم تفسيرا للكثير من الدوافع لبعض الدعوات في العالم العربي . وفيما يلي سأعرض لما اسميته مراحل **ثلاثا** لهذا التطور التاريخي .

١ — مرحلة الاهتمام الغربي

كان أول من ابرز الفصل بين العامية والفصحى بعض المدارس الأوروبية التي اسست برامج لتدريس العامية فيها .

لقد بدأت تلك البرامج في ايطاليا عام ١٧٢٧ — مدرسة نابولي للدراسات الشرقية — وفي النمسا عام ١٧٥٤، وفي فرنسا عام ١٧٩٥، وفي روسيا عام ١٨١٤، وفي بريطانيا عام ١٨٥٦. وقد استخدمت تلك المدارس عربا لتدريس العامية وكتابة قواعدها . اما الأوروبيون الذين عاشوا في العالم العربي، وهم موظفو الاستعمار البريطاني والفرنسي في البلاد العربية، فلم يخفوا كيدهم للفصحى ابدا ؛ وقد أبدوا اعجابهم بالعامية، وقاموا بحملات صليبية لاظهارها واحلالها محل الفصحى . من اشهر هؤلاء مهندس الري البريطاني وليم ولكوكس . في سلسلة من المحاضرات والمقالات نُشر بعض منها في مجلة الازهر ، شنّ ولكوكس هجوما لا مثيل له على الفصحى في

اشهر اثنتين من محاضراته : واحدة بالعربية « لماذا لم يكن للمصريين قوة الاختراع »والثانية بالانجليزية وعنوانها « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطا يتكلمون القرطاجية لا العربية »عزا فيهما ولكوكس اسباب تأخر المصريين،ونقص الاختراعات عندهم،وقلة الأصالة في تفكيرهم،الى استعمال الفصحى التي نعتها بأنها لغة ميتة .

أما القاضي ويلمور فقد جدد الدعوة لتبنّي العامية وكتابتها بالحروف اللاتينية . وتعاقب كثيرون بعد هؤلاء . (٣٤)

٢ ــ مرحلة الاقليمية ردا على القومية العربية

بعد ثورة عام ١٩١٩ في مصر ، برزت مجموعة من الكتّاب يدعون لما نسميه الفرعونية المصرية،أو الاقليمية الضيقة،ولم يكن الاستعمار البريطاني مشجعا للفكرة وحسب،بل متبنيا لها . وقد علق محمد حسين على هذه الحركة بأنها حركة استعمارية انفصالية كان وراءها الانجليز (٣٥) .

وقد دعت هذه الحركة الى «مصرنة» اللغة والفن والادب،واستعمال العامية المصرية كوسط لهذه الاشكال الادبية . في هذه الفترة دعا احمدلطفي السيد الى ما أسماه « التسامح اللغوي »وما قصده بذلك هو اصلاح الفصحى باستعمال الفاظ من العامية،بالاضافة الى الالفاظ المستعارة الاخرى في الكتابة (٣٦) . أما محمد تيمور وسلامة موسى فقد دعوا الى النهوض بالعامية لتكون لغة قومية . وفي تلك الاثناء وفي عام ١٩٤٣ فاجأ عبد العزيز فهمي مجمع اللغة العربية بالقاهرة باقتراحه أن تكتب العربية بأحرف لاتينية ؛ لكن هذه الدعوة التي سبقه اليها سلامة موسى ماتت بموته .

ومما يثير الاهتمام هنا هو أن أي دعوة انفصالية اقليمية تتسلح

بسلاح تجزئة اللغة العربية بالدعوة الى استعمال العامية . وعكس ذلك، اي الدعوات الاتحادية التي يهمها أن تبقى على وفاق تام مع العروبة والاسلام، فاننا دائما نجد الدعوة الى وحدة اللغة احد اهم اركان الدعوة . ويصدق ذلك على أجزاء كبيرة حاول الاستعمار أن يقتطعها كليا من الوطن الام، اذ تعرضت لجميع صنوف الاضطهاد الفكري واللغوي والحضاري بقصد الضم الى الدول الاستعمارية ، الا وهي أقطار شمال افريقيا . وهذا تأييد مطلق للفرضية القائلة إن أولئك الذين يطمحون للانفصال يدعون للتجزئة، واولئك الذين يدعون للوحدة والتماسك يتمسكون بالعربية ووحدتها . يقول شحنه في بحث الوضع اللغوي في شمال افريقيا (٣٧) :

كان الاهتمام الشمال افريقي بالعربية يتركز على الاعتراف بها كلغة للشعب والدولة، ودون تأكيد على عمليتها كأداة للاتصال ؛ اذ أن عددا من قواد الحركات الاستقلالية كان أكثر طلاقة وقدرة في التعبير في الفرنسية لا بالعربية ــ وهذا الوضع كان محرجا لبعضهم ــ وقد قام أحمد بن بلّا رئيس الوزراء السابق للجزائر، بتأمين مدرس خصوصي في العربية حتى يستطيع استعمالها في جزائر مستقلة » .

لقد توقعت دول شمال افريقيا العربية أن تواجه صعوبات جمة في التعريب، وخاصة الجزائر وتونس ومراكش، لكن الجهود تظافرت وما زالت تتظافر بكل حيوية واندفاع نحو التعريب الشامل . يقول شحنه (٣٨) في هذا الصدد :

« لم تضعف جهود الشمال افريقيين في سبيل تحصيل تعريب تام وكامل . فحال حصول تلك الدول على الاستقلال أعيد تأسيس العربية كلغة رسمية وشعبية، واتّبعت جميع الطرق لاعادة حيوية اللغة، بتأسيس مدارس متعددة، وبنشر الدوريات والكتب . وفي السنوات القليلة الماضية أصبح

الشمال افريقيون واعين للمشكلة اللغوية، ودابوا في المحاولة لايجاد الطرق لحلها، كما يثبت ذلك المؤتمر العربي المنعقد في الرباط عام ١٩٦١ » .

وعلى النقيض من ذلك فان الطريق الى « غربنة » العرب تبدأ بكتابة لهجاتهم وتطويرها، أو ما يسمى « النهوض بها »، الى لغات قومية . ومن اروع الأمثلة لمثل هذا التحول هو مثال الجماعات الناطقة بالعربية في الاتحاد السوفيتي : فباسم جعل العربية لغة ديمقراطية كتبها السوفييت بأحرف سيرلية (العامية طبعا) وبهذا انجز السوفييت، كما تقول باتيسون في كتابها « تشعيب هذه المجموعات، وقطعها تماما عن القومية العربية، وعن نصيب من الثراء الثقافي القديم والجديد » (٣٩) .

٣ ــ مرحلة الوعي العربي :

تبدأ هذه المرحلة بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، اذ بدأت الدول العربية تأخذ استقلالها ولو شكليا من الدول المستعمرة. لقد واجهت تلك الدول مشكلات جمة، منها مشكلة ازدواجية اللغة لعلاقتها المباشرة في التعليم . وفي هذه الفترة أعيد طرح بعض المقترحات القديمة بالدعوة الى العامية ؛ ثم لبست هذه الدعوة ثيابا جديدة ، فطرح أنيس (٤٠) في عام ١٩٦٠ تعميم احدى اللهجات العربية ــ المصرية ــ كلغة قومية ، وكذلك طرح فريحة (٤١) عام ١٩٥٥ نمطا عاما يتكلمه المثقفون العرب . لكن الاهتمام بدأ ينصب على ما يسمى اصلاح اللغة وتيسير قواعدها . وفي هذه الفترة أيضا نشطت المجامع اللغوية العربية، واجتمعت في دمشق عام ١٩٥٧؛ وكان هناك شبه اجماع على رفض الدعوة الى العامية رفضا باتا، واتخذت التوصيات لتسهيل العربية والرقي بها، ونشرت تلك التوصيات في حينه في مجلة مجمع اللغة العربي السوري (٤٢)

أستطيع القول وبكل ثقة ان الدعوة الى العامية الآن لا تقابل بأكثر

من الاستهزاء في الوسط الثقافي العربي ، ولا اظن أن هناك عربيا يمتلك شيئا من الولاء للعروبة او الاسلام او كليهما يتفوه بتلك الدعوة وذلك لخطرها على الأمة العربية ووحدتها ووحدة تراثها واستمرارية تأثير ذلك التراث . وان كانت الدعوة قد تلبس اثوابا جديدة كثوب اللغة الوسطى او عربية المثقفين فان عمقها معروف وبالتالي لا تختلف عن العامية شيئا وقد ايقن المثقف العربي من ذلك .

والمبدأ العام هو أن كل ما يعارض لغة القرآن وتراث العرب فهو موجه لضرب وحدتهم والتشكيك في هويتهم. ولو نظرنا في الدوافع النفسية للدعاة الى العامية والكتابة باللاتينية لايقنّا اي غيرة تدفعهم للسير في هذا الاتجاه . دعنا ننظر لبعض ما كتب سلامة موسى مثلا تبريرا للدعوة للكتابة بالأحرف اللاتينية ؛ وهذا مقتطف قصير من مقالة نشرتها مجلة شؤون الشرق الأوسط بالانجليزية يقول سلامة :

« لن يفاجأ الكاتب إن طالب العرب في يوم من الايام بالأحرف اللاتينية لكتابة لغتهم . هذا الانتقال ، ان تحقق فلن يؤثر بحياتنا الثقافية والأدبية وحسب ولكنه سيكون علامة لتغيّر في اتجاهاتنا النفسية . سنرحب بالحضارة الصناعية الحديثة بقيمها الأخلاقية والثقافية والروحية . والمشاكل التي تبدو الآن صعبة الحل ستكون اسهل .لن نرفض استعمال الكلمات الاوروبية لكن نتعلق حينها بتراثنا الماضي وكأنه الدعم الوحيد لحياتنا ... » (٤٣)

هل نحن بحاجة لقيم واخلاق وثقافة وروح الحضارة الصناعية الحديثة ؟ هل غيّر اليابانيون لغتهم أو دينهم او مُثل اخلاقهم عندما اصبحوا ينافسون اميركا صناعيا ؟ حتى لو كنا بحاجة لذلك فهل يتم ذلك إن غيّرنا الطريقة التي تكتب بها لغتنا ؟ انه تفكير لا ينقصه شيء من مهارة اخفاء

دوافع أخرى لا يجوز المجاهرة بها .

ان هناك مما اثبتته النظرية اللغوية الحديثة ما يجعلنا نتمسك بفصيح لغتنا، بتضييق الشقة بينها وبين عامياتنا ؛ كذلك هناك في الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة ما يحتم علينا أن نتمسك بالفصيح، والا كُتب لنا التفرق والضياع ، وذلك كله بجانب العوامل الدينية والقومية . وفي هذا الجزء من هذا البحث سأبحث العاملين السابقين وانعكاساتهما على الوضع اللغوي العربي .

لا شك في أن اللغة الواحدة، إن أمكن ايجاد مثل تلك اللغة للكتابة والحديث في البيت والشارع والمدرسة والمكتب، لهو وضع مثالي . لكن هل يمكن ذلك ؟ ان ذلك شبه مستحيل ، اذ ان كل لغة في العالم تواجه وضعا ازدواجيا بشكل او بآخر . لنضرب مثلا في الانجليزية : هل يتكلم الاميركي في تكساس بالطريقة نفسها التي يتكلم بها الاميركي في ماساشوستس مثلا ؟ او الطريقة التي يتكلم بها الاميركي في اوهايو او شيكاغو ؟ ماذا نسمي كلام السود في اميركا مقارنة بالمستوى الكلامي العام للرجل الأبيض الحاكم ؟ ماذا نسمي كلام الكوكني والسكوتلانديين مقارنة بكلام الملكة في بريطانيا ؟ اليس ذلك أشبه بالفصحى والعامية ؟ الا يستطيع الاميركي معرفة مواطنه من اي بقعة في اميركا عندما يتكلم ؟ ان ذلك يحصل في اميركا، البلد الذي تستطيع فيه أن تتكلم من الساحل الشرقي الى الساحل الغربي ببضع ثوان ، وان تراقب نفس البرنامج التلفزيوني الذي يُبث للشعب الاميركي كاملا، وتنتقل اينماشئت دون سؤال او جواب او هوية او جواز سفر او تأشيرة او تصريح . هل يستطيع الأبيض من الطبقة الوسطى في اميركا ان يفهم مواطنه الاسود اكثر مما يستطيع العربي من اليمن أن يفهم العربي في تونس ؟ ان كلام الملكة في بريطانيا، وكلام الرجل الابيض البروتستانتي

الانجلوسكسوني في أميركا ليسا سوى مثيل للفصحى في لغتنا مع فارق العاملين الديني والقومي . وما اللغة الفرنسية التي ينطق بها التلفاز والمدرس في الجامعة والنخبة المثقفة من الفرنسيين الا اللهجة الباريسية التي فرضتها الثورة الفرنسية اثر بيان ثوري واتخذت قرارا باستعمالها والقضاء على العاميات التي كانت تسمى « الباتواز » . لكن هل انتهت « الباتواز » ؟ لا ، لقد بقيت وستبقى لكن المثقف الفرنسي يأبى التحدث بها ليتحدث باللهجة الباريسية عنوان الثقافة الفرنسية .

فالجانب الازدواجي طبيعي اذن وبأية لغة ؛ لئن كان هناك أي فرق بين ازدواجية اللغة العربية واللغات العلمية الاخرى كالانجليزية والفرنسية ، فانه فرق كمي اذ ربما كانت الفجوة وما زالت أضيق بين الفصحى والعامية في تلك اللغات مما هي في العربية . وما ذلك الا بسبب عمل القوانين الطبيعية للتغير اللغوي .

من طبيعة اللغة أن تتغير إن تُركت دون ضوابط . وهذا التغير قد يؤدي بفعل عوامل متعددة الى خلق لغة جديدة . وهذا كان من الممكن أن يحصل للعربية لولا العوامل الدينية والقومية السالفة الذكر التي احتفظت بالفصحى وبوحدة اللغة . وهذا الاحتفاظ قد زاد اثراءها وسعة ثقافتها ودوام عطائها للوحدة، وهذا جانب تحسدنا عليه الشعوب الأخرى . ولأوضح هذه النقطة دعني أسأل هذا السؤال :

تُخيَّلْ ماذا كان يمكن أن يحصل لو رفعنا اللهجات لمستوى اللغات القومية وكتبناها ؟ وللاجابة عن هذا السؤال أود أن أستشهد بعبرة تاريخية يجب أن تبقى في أذهاننا كلما طلع صوت ناشز ينادي بالعامية في وطننا العربي .

ومثالي هو اللغة اللاتينية واللغات الرومانية Romance Languages

وكانت اللاتينية هي لغة الأدب والعلم والثقافة والدين في أوروبا في أول الامبراطورية الرومانية ؛ ومن لم يلق نصيبا من العلم في هذه اللغة يبقى علمه ناقصا، بالتغاضي عن حقل تخصصه أو وظيفته أو مكانته الاجتماعية. وبمرور الزمن تطور نمط اخر من اللاتينية يتكلمه العامة وعساكر الرومان، فأصبح الوضع موازيا للعربية، اذ كان هناك اللاتينية الفصحى Classical Latin والعامية المسماة Vulgar Latin ، (والاسم لا يعني العامية فقط بل يتضمن معنى السوقية وعدم الصقل) . وبالرغم من أن اللاتينية ذات أثر كبير دينيا، الا انها لا تملك قدسية العربية في نفوس الناطقين بها ؛ كما لا تلعب دور العربية بوحدة متكلميها ؛ لذا ترك الأمر لتطورها الطبيعي . وباختلاط جنود الرومان ، متكلمي العامية، بالشعوب الأخرى الذين يتحدثون لغات مختلفة ، أو لهجات من لغات مختلفة، تطور من العامية ــ وهذا نسق طبيعي ــ لغات جديدة تعتمد على الجذور اللاتينية كأساس، والمؤثرات اللغوية الأخرى كعوامل مكونة . وهكذا كانت ولادة الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والطليانية والرومانية . وان قلّ الضبط عن اي من تلك اللغات فلا يستبعد ، بل من الطبيعي أن ينشأ عنها لغات جديدة . وهذا حتما ما كان سيحصل لأي لهجة عربية لو كُتبت او اصبحت لغة قومية .

في الحقيقة لقد حصل ذلك التحول باحدى اللهجات العربية، وهو مثال حي أمام أعيننا وقلما نفكر بجدّيته وعقبى نتائجه ؛ وهو مثال مالطا : فقد كان أهل مالطا يتكلمون العربية، ونظرا لانسلاخها دينيا وقوميا عن جسم العالم العربي، فقد كتبت هذه اللغة بالأحرف اللاتينية، وفتح باب الاقتراض على مصراعيه من اللغات الأوروبية، وخاصة الطليانية والانجليزية، وتطورت هذه اللهجة العربية الى ما يسمى اليوم اللغة المالطية ، التي تتحدى اي عربي أن يفهمها، رغم أن جل الكلام فيها عربي الجذور . كيف نتعامى عن مثل

هذه النتائج الحتمية ؟ هل يعرف دعاة العامية أمثلة من هذا النوع ؟ هل درسوا أو اطلعوا على النظرية اللغوية والتغير اللغوي قبل أن ينصبوا أنفسهم مصلحين ؟اني استبعد ذلك .

اذا كان وضع الازدواجية طبيعيا في معظم لغات العالم ، فلماذا يكون هذا الوضع «غيرطبيعي» أو عائقا للتقدم في بلادنا العربية؟باعتقاديان ذلك يعود لسببين رئيسيين : أولهما ازدياد الفجوة بين الفصحى واللهجات نتيجة العوامل التاريخية السالفة الذكر حتى أصبحتا وكأنهما لغتان مختلفتان في أعين كثير من الباحثين ؛ ومع المبالغة بذلك الاختلاف أصبح الكثير يعتقد أنهما مختلفتان فعلا . وثانيهما أنه رغم استقلالنا كدول وتبني اللغة العربية رسميا وشعبيا ، الا أن اعتمادنا على اللغات الأجنبية في القطاعات المختلفة ما زال واسعا . وسأعرض لهذين السببين بمزيد من التفصيل .

لقد بالغ كثيرون من الذين كتبوا عن العربية في الغرب بالاختلافات بين الفصحى والعامية حتى أن كثيرا من التعميمات التي نشرها بعض باحثيهم المحترمين علميا تثير الاستغراب بل تشكك بنوايا ومقدرة هؤلاء الباحثين.

فاللغوي الاجتماعي جمبيرز (٤٤) على سبيل المثال يساوي بين دور العربية الفصحى في المجتمع العربي ودور اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى والسينسكريتية في جنوب آسيا ويعطي اللغات الثلاث ــ بما فيها العربية ــ « كمثال للغات مميزة ليس لها علاقة بالكلام الشعبي (اللهجات) ... وان الطقوس المفصلة والمراسيم التي تحيط استعمالها لا تُكتَسب الا بعد سنين عديدة من التدريب الخاص . التعليم بها متوفر فقط بواسطة المدرسين الخاصين ومحدود لأصحاب الامتيازات القلائل الذين يملكون الجاه الاجتماعي والموارد المالية . نتيجة ذلك ، فمعرفة تلك اللغات في المجتمعات التقليدية حصر لجماعة مختارة محدودة نسبيا » .

هل يصدق هذا التعميم على العربية كما يصدق على اللاتينية والسينسكريتية ؟ هل يدلّ هذا التعميم على اي اطلاع على العربية ؟ دعنا نقارنه بما يقول اللغوي الاميركي مايكل بريم (٤٥) الذي درس العربية واجادها وكتب اطروحته عن صوتياتها كما سجلته أمهات الكتب العربية. يقول بريم :

« ان المدعي بأن الفصحى نمط اصطناعي (بمعنى أنه غير طبيعي من ناحية ان الطفل لا يتعلمه كلغة أولى) فانما يكشف عن جهله . ان الاختلافات التي تفرق بين الفصحى والعاميات المختلفة قد بولغ فيها . في الحقيقة ،ان المشكلة الحقيقية الصعبة الوحيدة التي يواجهها العربي في الفصحى هي مشكلة تزويد الحركات في اواخر الكلمات للأسماء ونهايات الافعال، لانه من المفهوم ان ليس من تلك الحركات شيء في لهجته » .

كيف بنا ان نرد الاعتبار الى فصيح لغتنا ؟ وكيف بنا ان نضيّق الفجوة بين فصيحنا وعامياتنا، وبذلك تقترب عامياتنا من بعضها البعض ومن الفصحى ؟ في الجزء التالي من هذا البحث سأجيب ولو جزئيا عن هذين السؤالين، واتركهما مفتوحين للاجتهاد لكل من دعاه واجبه للنهوض بالعربية.

لا ريب في ان اهم مسببات اتساع الفجوة بين العامية والفصحى، بل من اهم اسباب ازدهار العامية، هو ارتفاع نسبة الأمية في مجتمع ما . والرقم في مجتمعنا العربي معيب اذ يقارب ، ان لم يتجاوز، ٧٠٪ . وبعكس ما اشار اليه بعض الباحثين أمثال الن كي (٤٦) ووكسلر (٤٧) : لا نستطيع ان نعزو ارتفاع نسبة الأمية في الوطن العربي الى الازدواجية ، بل نستطيع ان نستنتج أن ارتفاع نسبة الأمية زاد الفجوة اتساعا بين الفصحى والعامية، وليس بأي حال نتيجة له . ان هذه النسبة العالية في عالمنا العربي هي نتيجة مباشرة لخمسة قرون من الاهمال تبعها فترة من

الاستغلال الاستعماري البشع كان هم المستعمر فيه تجهيل الشعوب العربية . لكنه بعد الاستقلال ، وبهذه الواردات المادية التي تفوق تخيل الانسان فانه لم يعد هناك مبرر لمثل هذا الرقم المعيب من الأميين في العالم العربي . وعلى حكوماتنا العربية ان تبدأ بحملات واسعة النطاق لازالة الأمية في وطننا من شرقه الى غربه . وجدير بالذكر أن من أنجح الحملات التي بدأت فعلا هي تلك التي تقوم بها الحكومة العراقية حاليا والتي يظن أنها ستقارب أنجح الحملات العالمية لازالة الأمية كالحملة في كوبا وتركيا . ومن المنتظر أن يكون عطاء الدول المنتجة للنفط أكبر مماهو عليه الآن في هذا السبيل . وجميع الدول العربية بأمس الحاجة لتلك الحملات ، لكن أحوج تلك البلاد الآن هي السعودية ، واليمن ، وعمان ودول الخليج ، والسودان والمغرب .

منطلقنا الثاني يجب أن يكون المدرسة العربية . لن نحقق اي تحسن في هذا السبيل الا اذا التزم المدرس العربي بلغته ؛ والتزامه يحتم عليه أن يستعمل الفصحى في محاضراته ، وأن يشجع تلاميذه للسؤال والمناقشة بالفصحى ان كان الدرس دينا أو فيزياء أو رياضيات أو جغرافيا . كذلك يجب التركيز على المراحل الأولى من تدريس الفصحى وآدابها وذلك بتدريب معلمين اكفياء لتدريس مختلف المهارات اللغوية من استماع وكلام وقراءة وكتابة . ولا يتسنى ذلك الا اذا تعاون البيت مع المدرسة ، والمؤلف مع المدرسة والمجمع اللغوي مع المدرسة .

كما انه لا يكفي لعمل ذلك أن تصدر القرارات ، بل يجب ان تراقب الهيئات المعنية مختلف مراحل تطبيقها وتنفيذها .

ولا يقلّ عمل أجهزة الاعلام اهمية عن المدرسة والبيت . لا نريد أن نحرم قطاع عامة الناس من فهم تلك الاجهزة ، ولكننا نطالب بأن يقل

استعمال العامية في الصحف والمجلات، وان توجه لعامة الناس برامج الاذاعة ، والتلفاز بلغة فصيحة سليمة سهلة . وكلما قل استعمال الكلمة العامية في تلك الأجهزة ، وكثر استعمال الفصيح، اعطينا مجالا أوسع لانتشار الفصيح واضمحلال العامية على المدى البعيد .

اما المجامع اللغوية العربية فعليها، بالاضافة الى نشاطها في التعريب، وخاصة تعريب المصطلحات، ان تراقب استعمالها في أجهزة الاعلام والمدارس والجامعات ، وان تستمر بتفاعلها المباشر مع المجتمع ومع المؤسسات التعليمية في البلاد العربية، لتكون مراكز تخطيط لغوي لمجتمعنا ومؤسساتنا، وان تستمر بتقديم يد العون وتقديم المشورة الى وزارات التعليم ومختلف الهيئات التي تطلبها .

ان ما قدمته تلك المجامع يستحق التقدير ، لكن المزيد من العمل مطلوب . نقطة أخيرة ؛ فان زيادة التنسيق بين هذه المجامع يجعلنا نتجنب اعادة بعض الأبحاث، ويزيد من فعاليتها بشكل عام .

اما تسهيل الاتصال ، وبمعناه المطلق، في العالم العربي فليس مدعاة لوحدتنا العربية وحسب، بل مدعاة لتماسكنا السياسي والاجتماعي . وتسهيل الاتصال يتم بتطوير أجهزة الاتصال الحديثة، من الشبكات التلفزيونية، الى البث التلفازي والاذاعي الموجه للعالم العربي بأسره ؛ كذلك بتسهيل تنقل المواطن العربي من بلد لآخر، وفتح أبواب التبادل ثقافيا واقتصاديا على مصراعيها . هدف اللغة هو الاتصال، ووحدة متكلميها تتم بتسهيل اتصالهم بعضهم ببعض .

من أهم الأسباب التي ادت الى ازدهار تعلم اللغات الأجنبية في العالم العربي، وبشكل خاص الانجليزية والفرنسية، لا شك اسباب تتعلق بفرص العمل . اذ انه لسوء حظ المواطن العربي ، يصعب عليه حتى في عقر داره أن يجد

عملا جيدا، خاصة في القطاع الخاص، اذا لم يكن يجيد الانجليزية او الفرنسية. لماذا نجعل لتلك اللغات تلك القيمة على لغتنا طيعين مختارين ؟ لماذا نجعل تلك اللغات علامة الرفعة الاقتصادية والاجتماعية، وتؤثر بذلك باتجاهات ابنائنا النفسية لتلك اللغات وللغتنا بالمقارنة بها ؟ فجعل العربية عاملا اساسيا في التوظيف والترقية يولّد دوافع جديدة للاقبال على تعلمها واجادتها، ويخلق تأثيرات نفسية جديدة نحن احوج الناس اليها . لا اقصد ان اقلل التشجيع على تعلم اللغات الأجنبية ، لكن يجب أن نخفف اعتمادنا عليها ونجعل نظرتنا لها متواضعة بعض الشيء .

يرتبط هذا العامل بعامل آخر وهو ما أسميته « الغربة الحضارية » عند المواطن العربي ؛ فبالرغم من الاحداث الجسام التي تعيشها امتنا العربية، وبالرغم مما قاست وتقاسي من الغرب ودوله وثقافته و«حضارته»، الا اننا ان اردنا ان نصارح انفسنا وجدنا أن قطاعا كبيرا من شبابنا يقاسي من غربة حضارية مريرة، تتجلى بتهافت شبابنا على « الغربنة » المتمثلة بالنظر للغرب على انه النموذج الذي يحتذى . كذلك تتجلى هذه الغربة بنظرة مجتمعنا العالية لمن يجيد احدى اللغات الغربية، وبتهافتنا على استعمال الاصطلاح الأجنبي في حديثنا العادي وفي صحفنا واجهزة اعلامنا. ان ذلك ما أسماه ابن خلدون في مقدمته تقليد المغلوب للغالب . لكن اما آن الاوان لأن تتوقف هذه الظاهرة، ونبدأ كشعوب نعتز بلغتنا وحضارتنا ! .

العربية تستصرخ ابناءها لمزيد من البحث والتأليف والنشر، وخاصة في حقل المعاجم ؛ اذ يأسف المثقف العربي أن لا يكون في العربية حتى الآن قاموس واحد بجودة وشمول ووضوح وسهولة استعمال «وبسترز» في الانكليزية مثلا . كذلك حتى هذه اللحظة لا توجد دائرة معارف واحدة بمستوى دائرة المعارف البريطانية او الأميركية. لذلك تحتاج العربية

الى مجموعة شاملة واضحة حسنة التصنيف من معاجم المترادفات والمتناقضات والمكنزات والمواد المرجعية الأخرى . وقد قام سلفنا بالبحث وحصر المعلومات، وما علينا الا أن نصنف تلك المعلومات ونطبعها . انه وضع مؤسف .

أما تعريب التعليم الجامعي ، فليس ضرورة ومطلبا قوميا فحسب ، انما هو خدمة نزجيها للعربية، بل لأبنائنا الواقعين الآن بين نارين ، نار جهلهم بلغتهم، ونار صراعهم مع اللغة الأجنبية التي لا يجيدونها، ومع ذلك عليهم أن يتعلموا بها . ليس هناك على وجه الأرض دولة ذات قيمة تدرّس أبناءها بلغة غير لغتهم . فمن البديهيات في التعليم أن الطالب يستوعب بشكل أفضل، ويفكر بشكل اسلم في لغته الأم لا بلغة فرضت عليه، ولا يتم ذلك الا اذا بدأنا به وبالحال ؛ اذ سيبقى دعاة استعمال الأجنبية يبرزون الحجة تلو الحجة لتأخير التعريب، وسيجدون دائما حججا مقنعة ما لم نبدأ بالتعريب . كيف يمكن أن يكون هناك مصادر علمية بالعربية ما لم نخرّج جيلا عربيا تعلّم بالعربية كي يبحث وينشر بها ؟ لماذا لم نبدأ بحملة ترجمة شاملة للكتب المدرسية العلمية، وهي بالواقع محصورة العدد وليست بذلك الحجم البالغ الذي يصوره بها اعداء التعريب ؟ اذا أخذنا الكيمياء مثلا ، فانك تجد كتابا واحدا مشهورا عالميا ككتاب مدرسي، ويستعمل في مستوى معين ــ كالسنة الأولى أو الثانية مثلا ــ وفي كثير من الأحيان نجد ان هذا الكتاب قد أعيدت طباعته مرات ومرات، وبتعديلات طفيفة تستطيع اضافتها لترجمتها سنويا. ان الكلام سيطول عن التعريب، وسنبقى نعاني نفس المشاكل التي نتحدث عنها ما لم نبدأ وبالحال بتحضير جيل يتعلم في الجامعة وفي أعتقد العلوم بالعربية . والتجربة السورية ، وكذلك التجربة العراقية الجديدة جديرتان بالاعجاب والتقدير .

في ختام هذا البحث ، أود ان أوجه الدعوة الى المثقفين العـــرب ، والمختصين منهم أو العاملين في حقل اللغويات وتدريس اللغات بشكل خاص، لابداء آرائهم وتوجيه بحوثهم نحو مزيد من الاقتراحات العملية الممكنة التنفيذ، التي تهدف الى اعادة الاعتبار للغتنا العربية لغة رسمية وشعبية للعالم العربي، لا بالاسم بل بالفعل .

يقول العقاد (٤٨) في مقالة له عن الفصحى والعامية ، وفي ما يقـــول عمـــق بالتفكير، وملخص لكثير مما قيل ويقال عن هذا الموضوع، لولا بعض كلام عن العامية تنقصه العلمية (كقلة القواعد) :

« ان في كل أمة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل أمة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال، وفي كل أمة كلام له قواعد وأصول ، وكلام لا قواعد له ولا أصول. وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتمايـــــزون في المدارك والأذواق . فلن يأتي اليوم الذي يُكتَب فيه فردوس ملتون بلغة العامـــــل الانجليزي ، وفلسفة كانت بلغة الزارع الالماني، ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين، ويختلج في ضمائـــر النفوس، ويتردد في نوابـــــغ الأذهان، فالفصيحة باقية والعامية باقيـــــــة مدى الزمان !

الدكتور محمد راجي زغول

المصـــادر العربيـــة

المصادر الاجنبيـــة

1 - Karl Krumbachen. **Das Problem der modern griechischen Schriftsprache.** Munich, 1902.

2 - William Marçais "La diglossie arabe" **L'enseignement Public,** Vol. 97, 1930.

3 - C. Ferguson. "Diglossia."

٤ ــ المصدر نفسه ، ص. ٣٢٨

٥ ــ المصـــدر نفسه .

6 - D. Hymes. "Introduction to Social Structure and Speech Community." In D. Hymes (ed.), **Language in Culture and Society.**New York: Harper and Row Publishers, 1964, 385-390.

7 - J. Gumperz. " Types of Linguistic Communities"

اخص بالذكر منها :

------- "Linguistic and Social Interaction in. Two Communities"

------- "On the Ethnology of Linguistic Change"

------- "The Speech Community"

بحث فشمان ظاهرة الازدواجية في مؤلفات كثيرة أخص بالذكر منها :

8- a - J. Fishman etal (eds.) **Language Problems in Developing Nations**

b - -------**The Sociology of Language**

c - -------**Language and Nationalism**

d - ------- **Readings on the Sociology of Language**

9- A. Kaye. "Remarks on Diglossia : Well - defind Vs. III - defined"

وله مقالة اخرى جديرة بالدراسة هي :

------- "Modern Standard Arabic and the Colloquials."

10- Sotiropoulos. "Diglossia and the National Language Question in Modern Greece", **Liguistics,** 197 (1977) pp-5-31.

11- Inayatullah "Arabic as the Religious Language of the Moslems."

12- A. Chejne. **The Arabic Language :** Its Role in History p.9

13- P. Cachia "The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature.", p.12

١٤ ــ ذكر الحصري وركز على هذه الناحية في معظم مؤلفاته واخص بالذكر منها **آراء واحاديث في اللغة والادب** و**ابحاث مختارة في القومية العربية** .

15- R. Yorkey. "Practical EFL Techniques for Teaching Arabic Speaking Students" p. 59.

16- C. Ferguson "Myths About Arabic" p.377

١٧ ــ د. محمود فهمي حجازي . **اللغة العربية عبر القرون** ، ص ٤٣ ــ ٤٤

١٨ ــ صبحي الصالح ، **دراسات في فقه اللغة** ص ١٠٩ ــ ١١٦

١٩ ــ ابن جني ، **الخصائص** ج ١ ص ٤١١

٢٠ ــ السيوطي ، **المزهر** ج ١ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٤

21- Z. Abdel-Malek. "The Influence Diglossia on the Novels of Yusif Al-Sibai" p. 132

٢٢ ــ مازن مبارك ، **نحو وعي لغوي** ص ٤١ ــ ٤٤

٢٣ ــ علي ناصيف ، **من قضايا اللغة والنحو** ص ٤٩

٢٤ ــ طه حسين ، **مستقبل الثقافة في مصر** ص ٢٣٦

٢٥ ــ مصطفى فهمي ، **النظرية العامة للقومية العربية** ص ١٥٠

26- S. Al-Toma. **A Comparative Study of Classical and Iraqi Arabic,** p. 114.

27- H. Blank. "Stylistic Variation in Spoken Arabic: a Sample of Interdialected Conversation," 1960

28- K. Shaaban. "Code Switching in the Speech of Educated Arabs,: 1978.

29- M. Zughoul "Diglossia in Arabic: Investigating Solutions", 1979.

30- J. Stetke cych. **The Modern Arabic Literary Language : Lexical and Stylistic Development,** 1970.

٣١ — نفس المصدر ص. ١١٤

٣٢ — المصدر نفسه ، ص ١١٩ — ١٢٠

33- N. Bezirgan "Language and Reality in The Arab World" p.24

٣٤ — لمزيد من التفصيلات راجع كتاب نفوسة سعيد ، **تاريخ الدعوة الى العامية وآثارهـا في مصر** ، فهو كتاب شامل وموثق في هذا المجال .

٣٥ — محمد حسين ، **الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر** ص ١٢٤ — ١٤٤

٣٦ — أحمد لطفي السيد ، **المنتخبات** ص. ٢٤٦ — ٢٥٠

37- A. Shej ne **The Arabic Language : Its Role in History,** p. 109

٣٨ — نفس المصدر ص. ١٠٩

39- M. Bateson. **Arabic Language Handbook**

٤١ — ابراهيم أنيس ، **مستقبل اللغة العربية** ، ١٩٦٠

٤١ — أنيس فريحة ، **نحو عربية ميسرة** ، ١٩٥٥

٤٢ — مجلة المجمع العربي مجلد ٣٢ ، عددا ، ١٩٥٧

43- S. Moussa. "Arabic Language Problems" p. 44

44- J. Gumperz "The Speech Community", p. 222

45- M. Brame, **"Arabic Phonology"** p. 1

46- A. Kaye. "Modern Standard Arabic and the Colloquials".

47- Wexler. "Diglossia, Language Standardization and Purism".

٤٨ — العقاد ، **ساعات بين الكتب** ص. ١٤٥ — ١٤٦

وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة

للدكتور عدنان الخطيب

انعقد مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته السادسة والاربعين،في المدة الواقعة من الثلاثين من ربيع الآخر ، الموافق ١٧ من آذار (مايس) ، حتى الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٣١ من آذار (مايس) سنة ١٩٨٠ م ؛ وعقد خلالها ثلاث عشرة جلسة ، منها جلستا الافتتاح والختام .

وفي ما يلي عَرضٌ موجز لأهم ما دار في المؤتمر من ابحاث واتُّخذ من مقررات :

اولا : جلسة الافتتاح

كانت جلسة افتتاح المؤتمر علنية ، حضرها جمع من رجال الفكر والادب ومحبي العربية ، والقيت فيها كلمات ترحيبية ، كما عُرضت اعمال المؤتمر في الدورة السابقة ، وتطلعاته في هذه الدورة .

وتضمنت كلمة رئيس المؤتمر الدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس المجمع، الخطوط العريضة لمنهج المؤتمر . وكان مما قاله : « **لقد قيل من قديم ان المجمعيين حماة اللغة، وظُنَّ خطأ ان هذه الحماية تقضي بان يقفوا عند القديم وحده** ، ولا يفسحوا المجال لشيء سواه . وهذا دون نزاع زعم باطل ؛ ذلك لأن للغات حياة تسير بسير الزمن ، وتسد حاجات العصر .

ونحن نتحدث عن أدب معاصر ، وهذا التعبير نفسه خير شاهد على هـذه الحياة .. »

وتحدّث الأستاذ الرئيس عن الأدب المعاصر ، مبيّنا السمات التـي تميّزه عن أدب العصور الخالية؛ ثم قال : « **يتابع مجمع اللغة العربية سير أدبنا المعاصر** ، ويرقب حركاته ؛ ويسّر له وسائل النهوض والتقـدم ، ويشجّع الشباب على الاقبال عليه والعناية به ، بما يقترح من موضوعات بحث ، وما يُمنَح عليها من جوائز ؛ ويُعنى عناية خاصة **بلغة العلم والحضارة**، لأنها لغة الحاضر والمستقبل ، ويسهم اسهاما واضحا في تعريب التعليـم العالي والجامعي . وفي وسعنا أن نقرّر أن ليس ثمة هياة علمية أخـرى عنيت بالمصطلح العلمي العربي عنايته . وهو يقدم منها كلّ عام في مؤتمـره زادا يفيد منه الدارسون والباحثون ؛ **وليست عنايته بمستحدثات الحضارة بأقلّ من عنايته باللغة العلمية ..** » .

ثم تحدّث الدكتور مهدي علام ، الأمين العام للمجمع ، عارضا صورة عامة عن النشاط المجمعي منذ إنتهاء المؤتمر السابق ، ومعددا ما تمكّن المجمع من اصداره من معجمات ومجموعات مصطلحات ومطبوعات أخرى ، مؤكدا على « ان لغتنا العربية الخالدة لغة علم وحضارة ، بل في طليعـة اللغات العالمية القادرة على استيعاب الحضارة المعاصرة، والتعبير عنها في مختلف المجالات . ولا عجب في ذلك ، فالتاريخ نفسه خير شاهد على أن لغتنا ظلّت لها السيادة والريادة ، بوصفها لغة علم وأدب وفن ، عدة قرون » .

ثم قال: « فلغتنا ــ في هذا العصر ــ لا تبدأ من فراغ ، **وانما تستعيد حيويتها ، وتسترد مكانتها ، وتستانف مسيرتها الحضارية** ، فمجدها الحاضر المعاصر يضرب بجذوره في أعماق ماض مجيد عريق . انها أطول لغة ظلّت

حيّة على مدى حقبة متواصلة، لم تعش مثلها اية لغة أخرى مهما كانت قديمة » .

ثانيا ــ المصطلحات العلمية

درس المؤتمرون وناقشوا ، خلال جلساتهم اليومية ، المصطلحات العلمية والفنية التي رفعتهاالى المؤتمر اللجان المختصة عن طريق مجلس المجمع ، فأقرّ المؤتمرون غالبيتها مجمعين ، وبعضا منها بأكثريتهم ، كما اقروا بعضا آخر بعد تعديله .

وبلغ عدد المصطلحات التي عرضت على المؤتمرين (١٢١٧) مصطلحا ، موزعة بين العلوم والفنون كما يلي :

١٤٠ مصطلحا في الفيزياء (الفيزيقا)
٩٥ مصطلحا في المياهيات (الهيدرولوجيا)
٩٤ مصطلحا في القانون التجاري
١٢٨ مصطلحا في الكيمياء والصيدلة
٦٦ مصطلحافي علم الرياضة
١٥٠ . مصطلحا في علم التربية
٤٢ مصطلحا من الفاظ الحضارة الحديثة
١١٣ مصطلحا في فلسفة التاريخ
١٠٢ مصطلح في النفط
١٣٦ مصطلحا في علم الحيوان
١٥١ مصطلحا في فني السينما والتمثيل .

ثالثا ــ البحوث والدراسات

استمع المؤتمرون ، خلال مدة انعقاد المؤتمر ، الى عدد من البحوث والدراسات المتخصصة، القاها بعض الاعضاء . وفي ما يلي عرض موجز

لها، مع اهم ما دار حولها من مناقشات او تعليقات :

١ ــ الأدب العربي المعاصر

بحث للأستاذ محمد خلف الله أحمد (١) ، وقد حدّد للمعاصرة مدة قرن من سنة ١٩٥١ حتى ٢٠٥٠ م ، عرض فيه واقع الأمة العربية من خلال ادبها الحديث ناقدا محلّلا ؛ ثم تطلع الباحث الى المستقبل والآمال المرجوّة له ، وما يجب أن يكون عليه الأدب العربي ، موجها ، باذلا جهده وما لديه من نظرات عميقة وخبرات طويلة .

وشكر المؤتمرون للباحث دراسته القيمة وتطلعاته المستفيضة ، وتوجيهاته النافعة . وكان من اهم التعليقات على البحث تعقيب الأستاذ اسحٰق موسى الحسيني ؛ وقد ايد **ضرورة العناية بدراسة النصوص** ، وكان مما قاله : « وبحسب تجربة لي خاصة ،اذ كنا نحمل الطلاب على قراءة كتب اضافية على البرنامج المقرر ، وندعو الطلاب الى ان يشترك كلّ واحد منهم سنويا بتقديم كتاب يختاره ، وتكون حصيلة هذا « **مكتبة خاصة بالصف** » يقراها الطلاب في تلك السنة . **والنصوص ليست مصدرا للغة فحسب ، بل للقواعد أيضا ، كما قرر ذلك ابن خلدون** » .

٢ ــ اللغة الصامتة

بحث الدكتور اسحٰق موسى الحسيني ، وكان ممتعا طريفا، تناول الأدب العربي والتراث الشعري بخاصة ، وما تَضمّنه من رموز واشارات ذات دلالة معينة، كالتحيّة، او التذكير بوعد حينا ، او تدلّ على الموافقة او الرفض حينا آخر ، وعلى الحب او الكره تارة ، وعلى الرغبة في شيء، او الاشمئزاز من شيء تارة أخرى .

واثارت شواهد البحث واطرافه، تعليقات طريفة من قبل الزملاء

الأساتذة : الدكتور ابرهيم مدكور ، ومهدي علام ، وعبد السلام هارون ، ومحمد عبد الغني حسن ، وعز الدين عبد الله ، وتمام حسان ؛ **وقد تداعت على السنتهم شواهد مماثلة فيها كل الطرافة والجمال في التعبير .**

٣ ــ بين « مرضعة » و « منفطر » في القرآن الكريم

بحث القاه الأستاذ علي النجدي ناصف ، في تعليل المسالتين التاليتين:

١ ــ ورود علامة التأنيث في كلمة « مرضعة » في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ (٢) ﴾ **والقاعدة النحوية لا توجبها في الأوصاف الخاصة بالنساء .**

٢ ــ ورود كلمة « مُنْفَطِر » بصيغة التذكير في قوله عز وجل : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ (٣) ﴾ **خلافا للقاعدة التي توجب مطابقة الوصف للموصوف** ، والسماء اسم مؤنث (٤) .

وعرض الباحث أقوال مختلف العلماء والمفسرين في تعليل هاتين المسالتين ، رافضا ذهاب بعضهم الى التعلل بالرخصة المتضمّنة في القواعد النحوية واللغوية ، أو القول بأن التذكير محمول على تاويل أن السماء بمعنى السقف . وأكد الباحث بأن القرآن الكريم حين يقول : ﴿ وإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا (٥) ﴾ فانه لا يقوله ترخّصا ؛ والتعليل الصحيح للأمر ، **يحتاج الى بحث دقيق وعميق في التفسير** : فالمراة التي تباشر الرضاعة **لا توصف الا بكلمة « مرضعة »** (٦) ، والوصف بمنفطر من باب الوصف باسم الفاعل من فعل مطاوعة يحمل كل معاني الانفال والتصدع ، **والتذكير فيه أولى .**

وجرت تعليقات موسّعة ومهمّة حول هذا البحث ، اشترك فيها الأساتذة : تمام حسان ، ومهدي علام ، وشوقي ضيف ، ومحمد عبد الغني

حسن ، مجمعين على شكر الباحث وتقدير دقته وتعمقه في البحث .

٤ ــ من كناشة النوادر (٧)

بحث ألقاه الأستاذ عبد السلام هارون ، ويتضمن نظرات مستأنية وطرفا مستملحة، جمعها خلال مطالعاته الطويلة في كتب اللغة والأدب ، وفي ما يلي نماذج منها :

ا ــ **الإمَّعة** : كلمة اصلها جاهلي ، وكانت تطلق على من كان يتبع الناس الى طعام لم يُدْع اليه ، وهو الطُفَيْلي ؛ وهذه كلمة اسلامية (٨) ، اما اليوم **فهي لا تطلق الا على من لا راي له** ، ويقول لكل واحد : انا معك .

ب ــ في حاشية الدمنهوري ورد ان **لسيبويه كتابا باسم (القوافي)** ولـــم يذكر هذا الكتاب في المصادر التي أوردت ثبتا بمؤلفات سيبويه .

ج ــ « ايوه » في عامية اهل مصر (٩) لها **جذر فصيح هو : اي والله** .

د ــ في وفيات الأعيان لابن خلكان خبر طريف يدل على مبلغ العناية بعلوم اللغة العربية في دمشق ؛ فقد الزم احد الذين تُرْجِم لهم ابن خلكان نفسه **بدفع مئة دينار لكل من يستظهر كتاب « المفصل »** للزمخشري .

هـ ــ **سورية** : في معجم البلدان لياقوت ما صورته : « سورية ، موضـــع بالشام بين خناصرة وسلمية ، والعامة تسميه سورية » . هـــذا ما كان في القرن السابع ، ولكن المسعودي ، المتوفى سنة ٣٤٥ ، يذكر في « التنبيه والاشراف » ص ١٥٠ ما نصه : « والروم يسمون بلادهم أرمانيا ، ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشام والعراق سوريا ، والفرس الى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية ، فيسمون العراق والجزيرة والشام سورستان ».

وفي معجم البلدان في رسم (سورستان) يقول ياقوت : « وقال ابو الريحان : والسريانيون منسوبون الى سورستان ، وهي أرض العراق وبلاد الشام .. غير أن هرقل ملك الروم ، حين هرب من انطاكية أيام الفتوح الى القسطنطينية ، التفت الى الشام وقال : « **عليك السلام يا سورية** ، سلام مودع لا يرجو أن يرجع اليها أبدا » . وهذا دليل على أن سورستان هي بلاد الشام » .

ويقول صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ : ان « **سورية ، مضمومة مخففة ، اسم للشام** (١٠) » فيعقب عليه الزبيدي ، المتوفى بعده باربعة قرون ، أي في سنة ١٢٠٥ ، بقوله : « في القديم » ثم يقول: «والكلمة رومية (١١) » .

وانهى الباحث عرضه قائلا: « وهكذا لا نجد في القديم الا اضطرابا في دلالة هذه التسمية ، التي استقرت الآن في **احد أقاليم الشام بوضع جغرافي وسياسي معين** ، بعد أن ظلت ردحا من الزمان كورة من كور الشام ، التي تشمل أجناد قنسرين ، ودمشق ، والاردن ، وفلسطين ، وحمص ، بخلاف الثغور ، وهي المصيصة ، وطرسوس وأذنة وانطاكية،وجميع العواصم . **ثم صارت الى لبنان وفلسطين والأردن وسوريا (١٢)** » .

وشكر المؤتمرون للباحث امتاعهم بنوادره المنتقاة من مختلف كتب التراث ، وافادتهم بنظراته الثاقبة فيما وراء السطور ، وعلق الأستاذ محمد عبد الغني حسن قائلا : « عرفنا في الزميل **المحقق البارع** وكشف لنا اليوم في كتابته عن شخصية **المنقّر الرائع** » .

٥ ــ وقفة امام قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

قصيدة القاها الدكتور حسن علي ابراهيم،استاذ الجراحة في كلية

الطب،بمناسبة عودته من زيارة الروضة الشريفة في المدينة المنورة ، وهي في ثلاثة وستين بيتا ، وهذه مقاطع منها :

مَشيتُ وفي قلبي وجيبٌ ورهبةٌ ... الى خير قبر ضَمَّ خير رُفاتِ
وحولي من الاقوام حشدٌ ميمَّم ... الى حيث يثوي منبع البركاتِ
وفي النفس ما فيها من الحب والتقى ... وفي النفس ما فيها من الحسراتِ
وعادت بي الذكرى دهورا سحيقة ... الى فجر دينٍ عاطر النفحاتِ
هنا أَكْمَلَ الروح الأمين رسالة ... اضاءت فلاةَ البدو والعَرَصاتِ
وشعَّت وراء الأفق حبًّا ورحمةً ... لتغشى بلاد الأرض والجَنَباتِ
اذا أمتُحِن الاسلام حينا بشدّة ... فقد عَمَّ بالايمان والعزَماتِ
وقد سار من نصرٍ لنصر مؤزَّر ... فأحيا نفوسا في عميق سباتِ
هنا شَرَعَ الإسلام فرضا وسنَّةً ... بما انزل الرحمٰن من كلماتِ
وقدقام بالتفصيل والشرح أحمدٌ ... بفعلٍ وقولٍ ضَمَّ جَمَّ عِظاتِ
ولما دنا وقتُ الرحيل وأُزْلِفَت ... لعينيه انوارٌ من الجَنّاتِ
دعا ربَّه همسا ليأوي بمنزل ... رفيقا لعالٍ مانحٍ الخيْراتِ
بحبّك يا خير الأنام جميعهم ... وهَدْيِكَ إني قد ملأتُ حياتي
ويا رَبِّ عفوًا من لدنك ورحمةً ... لعبدٍ دعا في اقدَس الحرماتِ
لجأتُ الى الرحمٰن أطلب عفوه ... وربي غفور واسع الرَّحماتِ
فيا رَبِّ أَلِّفْ بين عُربٍ تَفرَّقوا ... وَوَحِّدْ خُطاهم بعد طول شتاتِ
مشيتُ ثقيلَ الخَطو في القلب حسرةٌ ... لِتَرْكي مقامَ الأعظمِ العطراتِ
عليكَ سلامُ الله ما أَشْرَقَ الضحى ... وما لاح نور البدر في الظلماتِ

وهنا المؤتمرون زميلهم الطبيب الشاعر بعودته الحميدة،مشيدين بشاعريته وبقصيدته الرائعة .

٦ ــ كلمة (أريسيين) في كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) الى هرقل ــ

ما الصواب في نطقها وفي معناها ؟

بَحْثٌ القاه الدكتور احمد الحوفي، عرض فيه لما هو ثابت في كتب الحديث والسيرة واللغة من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بعث الى هرقل ملك الروم ، بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام قائلا له : **(.. وان توليت فان عليك اثم الأريسيّين (١٣))** .

وفَصَّلَ الباحث اقوال رواة الحديث في ضبط كلمة **« أريسيّين »** ؛ فقد اختلفوا ان كانت بياء واحدة أو بياءين بعد السين ، وقال بعضهم بكسر همزتها بينما نطقها آخرون ياء ؛ كما اختلفوا حول تشديد الراء وحول حركتها ، وقد تداخلت الروايات وتعدد بعضها (١٤) ، **مما كان له أثر كبير فيما اثبته علماء اللغةفي المعجمات (١٥)** .

وعرج الباحث على المراد من كلمة « الأريسيّين »،فقد اختلف العلماء حوله على اقوال ، اشهرها: انها تعني : « الاكاريين »،اي الفلاحين والزارعين ؛ وقد جاءت كلمة « الأكاريين » في بعض روايات النص نفسه (١٦) ، كما وردت كلمة « الفلاحين » في رواية أَثْبَتَها صاحب كتاب الأموال (١٧) » .

ثم ذكر صاحب البحث قول بعضهم : ان المراد بالأريسيين هم : اتباع عبد الله بن اريس،الذي تنسب اليه فرقة الأروسية من النصارى ، ويقال لهم « الأروسيون (١٨) » .

وانتهى الباحث الى أن المراد بكلمة « الأريسيين » هم أتباع اسقف اسكندري يدعى « آريوس arius (١٩) » كان ينكر الوهية السيد المسيح،فتبعه خلق كثير من النصارى،وانتشر اتباعه في بقاع كثيرة، كانت منها بلاد الشام ؛ وعرفوا بالأرسيين وعقيدتهم بالأروسية

(٢٠) . ARIANISME

وشكر المؤتمرون للباحث طرافة موضوعه وجهوده في استقصائه؛ وعلّق بعضهم مؤيدا أو مستفهما أو مشيرا الى بعض ما جـــاء في كتـب التاريخ (٢١) .

٧ ــ توحيد المصطلح العلمي في التعريب

بحث للدكتور شوقي ضيف ، ضمّنه عرضا **للموضوع القديم الـذي لا تَبْلى جِدّته** ؛ مبيّنا تاريخ المصطلح العربي عند العلماء المسلمين والعرب ، وواقعه اليوم في مختلف الاقطار العربية ، متطلعا الى الغد المأمول يـــوم تصبح اللغة العلمية فيه واحدة في العالم العربـــي ، مشـــيرا الى **ان المصطلح العلمي لا يوحده مثل وحدة السلطة التي تشرف على وضـــع المصطلحات** ، ومدى نفوذها في مختلف المؤسسات والادارات ذوات العلاقة بهذا الموضوع .

ولم يخل البحث من نقاط جديدة استثارت تعليقات قيّمة من الأساتذة ابرُ هيم الدمرداش،وعز الدين عبدالله،وتمام حسان ؛ وقد عرض كل منهم خبرته في الموضوع مؤيدا الباحث في تطلعاته وآماله .

وشكر الرئيس الدكتور ابرٰهيم مدكور للمحاضر آراءه المفيـــدة ، وطمأنه بأن البلاد العربية في طريقها الى الهدف الذي ينشد ، **معتمدة علـى المعلم المُحْسَن تأهيله** ، مشيرا الى واجبات كل من اتحاد مجامع اللغـــة العربية،واتحاد الجامعات العربية،ومؤتمرات التعريب التي تُعِدُّهـــا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٨ ــ تأصيل بعض الدخيل من أسماء الملابس والأطعمة في كتاب الجبرتي

بحث القاه الدكتـــور احمد السعيد سليمـــان ، مقدّما له بالكلام على

اثر الوضع السياسي في بلد ما على الفاظ الحضارة فيه ، وكيف تتاثر هذه الالفاظ بتبدل الدول ؛ مبيّنا كيف ازاحت المصطلحات التركية في يوم من الأيام في مصر المصطلحات المملوكية وحاولت طردها نهائيا ؛ ثم اوضح كيف وجدفي تاريخ الجبرتي مصدرا من اهم المصادر في دراسة اسماء الملابس والاطعمة وما تدلّ عليه ، وان هذا البحث استهواه،وهو في سبيله الى وضع معجم لالفاظ الحضارة في عهد الجبرتي .

وعلّق بعض الأعضاء على طرافة الموضوع شاكرين للباحث جهوده فيه .

٩ ــ يزيد بن محمد المهلبي

بحث للشيخ محمد رفعة فتح الله،عرض فيه لسيرة شاعر عربي كبير من بني المهلب بن ابي صفرة، **عاش في القرن الثالث الهجري** ، واتصل بالمتوكل العباسي،ونادمه حتى اذا مات رثاه بقصيدة من عيون الشعر، أوردها المبرد في الكامل .

لقد اغفل مؤرخو الادب العربي سيرة هذا الشاعر الكبير (٢٢) ، حتى لم يبق منها الا متفرقات في مختلف الكتب،جمعها الباحث فكانت طريفة حلوة ممتعة .

رابعا : المحاضرات

تتضمن جدول اعمال المؤتمر في هذه الدورة محاضرتين عامّتين عن الادب العربي المعاصر ، فُتِحَ المؤتمر فيهما امام جمهرة الحضور من رجال الفكر والبحث والتعليم باب الحوار والنقاش العلني .

وكان الموضوع في المحاضرتين هو :

الأولى : لغةالمسرح بين العامية والفصحى

القاها الدكتور شوقي ضيف،عارضافيهاتاريخ المسرح في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، يوم كان مسرحا للدمى المتحركة (خيال الظلّ) . وكان هذا المسرح قد عُرِف في مطلع القرن الثالث الهجري ، ونال بعض عنايةالدولة الفاطمية،ثم استمر في عصر المماليك الى العهد العثماني بعدئذ ، **وكانت العامية لغته ولغة الأغاني فيه .**

وبدأ المسرح في مصر يحاكي المسرح الأوروبي في النصف الثاني من القرن الماضي ، على يد بعض السوريين واللبنانيين ، **وكانت لغته تتفاوت بين العامية والفصحى،تبعا لموضوع التمثيل،واختلاف الفِرَق التي تقوم به.**

وبَيَّن المحاضر اثر اشتراك اعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، أمثال شوقي وتيمور وأباظة ، فيتزويد المسرح بمؤلفاتهم على لغته ، ثم خصّ اثر توفيق الحكيم على هذه اللغة،راسما الخط البياني لِلُّغة التي كتب بها مسرحياته ، **بدءا من لغته في مسرحياته الذهنية،وهبوطا الى لغته في مسرحياته الاجتماعية** ؛ وشرح المحاضر الأسباب التي تؤدي الى توسع انتشار الكتابة باللغة العامية بين مؤلفي المسرحيات ، تَقَرُّبا من اهلها وَمَلَقًا لهم .

ثم أفاض المحاضر في الحديث عن **اللغة الثالثة** التي دعا اليها توفيق الحكيم في تقديمه مسرحية الصفقة سنة ١٩٥٦ ، ناقدا لغة هذه المسرحية ، **مؤيدا الكتابةبلغة ثالثة،شريطة الارتفاع بها لتصبح فصحى مبسطة بمستوى مقبول عربيًّا .**

واعقبت المحاضرة مناقشات حامية بين الأساتذة المهتمين بلغة المسرح ، وكان اغلبهم **من انصار الفصحى .**

الثانية : قضايا حول الشعر العربي

القاها الشاعر الأستاذ محمد عبد الغني حسن، عرض فيها المشاكل التي يثيرها الشعراء ، **مذ كان الشعر وكان للشعراء خصوم وأعـــداء يتتبعون زلّاتهم وسقطاتهم** ، أو يهاجمون تحلّلهم من قيود الشعر، أو مخالفتهم القواعد المتعارف عليها جهلا أو اهمالا .

وعرض المحاضر **للشعر المنسوب لغير قائله** ، والى طرائف ناجمة عن أوهام بعض المؤلفين أو المحققين .

وأعقب المحاضرة حوار وتساؤل حول بعض القضايا التي اثارهـــا المحاضر .

خامسا : المعجم الكبير

عُرِضت على المؤتمرين الموادّ التي انهى مجلس المجمع دراستها مـن المعجم الكبير، وهي **المواد المبتدئة من أول حرف الجيم والراء وما يثلثهـا الى نهاية حرف الجيم والزاي مع الراء .**

واستمع المؤتمرون الى الملاحظات التي قدمها الزملاء الأساتذة : علي النجدي ناصف، وعبدالسلام هارون، وعدنان الخطيب ، وقرروا احالتها الى اللجنة المختصة لاعادة النظر في مواد المعجم في ضوئها .

سادسا : أعمال لجنة الأصول

نظر المؤتمرون في ثماني موضوعات اقرتها لجنة الأصول، ورفعت اليهم بموافقة مجلس المجمع . وفيما يلي موجز عن تلك الموضوعات، وما انتهـــى اليه المؤتمر بشأنها :

الموضوع الأول : جواز مجيء المصدر الميمي واسمي الزمان والمكـــان

من الفعل الثلاثي المعتل بالياء على (مَفعل) بالفتح

كانت لجنة الأصول بعد مناقشة الموضوع اتخذت القرار الآتي :

« يجوز أن يجيء اسماالزمان والمكان ــ كالمصدر الميمي ــ من الفعل الثلاثي الأجوف اليائي على المَفْعَل بالفتح ، **فيقال مثلا المسار لمعنى السير أو مكانهأو زمانه** ، وكذلك يقال طار مطارا والآن مطاره وهنالك المطار » .

وشرح مقرر اللجنة الأستاذ شوقي أمين الدافع الى القرار بقوله : لو جرينا وراء القاعدة الصرفية المألوفة لكانت كلمة المطار وكلمة المسار في استعمالهما بمعنى المكان وخطة السير خطأ لا يغتفر ؛ ولما كان بعض العلماء قال : **ان شِئتَ فَتَحتَ وان شِئْتَ كَسَرتَ في الاسم والمصدر** ، وفي هـــذا رخصة وتيسير للمصدر الميمي واسمي الزمان والمكان ، مما دفع اللجنة الى اتخاذ هذاالقرار .

وبعد مناقشة قصيرة **وافق المؤتمرون على قرار اللجنة بالاجمـاع .**

الموضوع الثاني : الحاق تاء التانيث بمِفْعِيل ومِفْعال ومِفْعَل صفة المؤنث

كانت لجنة الأصول،بعد دراسة هذا الموضوع،انتهت الى القـــرار التالي : « يجوز أن تلحق تاء التانيث صفة مِفْعِيل ومِفْعَـــال ومِفْعَـــل، **سواءأُذكِر الموصوف أم لم يُذكَر** ؛ مثل : مسكين ومسكينـــة ، ومعطـــار ومعطارة » .

وشرح مقرر اللجنة الأستاذ شوقي أمين الدافع الى هذا القـــرار فقال : ان هذا الموضوع يتعلق بعقبات في اللغة والاستعمال ؛ فقد كان نقاد اللغة يُخَطِّئون قولهمفخورة وغيورة ، وعالج المجمع مثل هذه العقبات وحلّ منهاالكثير؛ وقد وجدت اللجنة من كلام العلماء **ما يؤيد دخول التاء دلالة على التانيث** في هذه الصيغ .

وبعد مناقشة الموضوع **وافق المؤتمرون على قرار اللجنة بالاجماع .**

الموضوع الثالث : جواز المطابقة في توكيد المثنى بالنفس والعين

بعد مناقشة الموضوع انتهت لجنة الأصول الى القـــــرار الآتي : « يجوز الافراد والمطابقة والجمع على أفعل في توكيد المثنى بالنفس والعين، فيقال : **جاء الرجلان نفسهما ونفساهما وأنفسهما** » .

وشرح مقرر اللجنة الأستاذ شوقي أمين الدافع الى اتخاذ هـــذا القرار ، فقال: جمع كتب النحو التعليمي تقول في توكيد المثنى بالجمع على أَفْعُل : جاء الرجلان أنفسهما؛ وهذا يخالف طبيعة الكلام ، اذ أنه يجـب أن يؤكد المثنى بصيغة المثنى والجمع بصيغة الجمع ؛ عندما درست اللجنة هذا **وجدت في آراء أئمة اللغة سندا لجواز المطابقة في التوكيـــد بالنفس والعين للمفرد والمثنى والجمع** ؛ وهذا أبو حيان قد نص على أن المطابقـة هي الأصل ؛ ونحن نقول بمجرد الاجازة .

ولم يعترض احد على ما انتهت اليه اللجنة فأجيـز .

الموضوع الرابع : ضوابط رسم الهمزة

اولا : تقوم هذه الضوابط على الدعائم التالية :

١ ــ **تَتَجَنَّب الكتابة العربية توالي الأمثال** ، فيُكتَب الحرف المضعَّف حرفا واحدا في « تَمَّم »،وكتب الحجازيون قديما : (داوود) و (رووس) و (شووون) بواو واحدة هكذا (داود) و (روس) و (شون) .

٢ ــ **تُعَدّ من الكلمة اللواصق التي تتصل بآخرها**،مثل الضمائر،وعلامـات التثنية والجمع،والف المنصوب ؛ ولا يُعَدّ منها ما دخل عليهـا مـن حروف الجر،والعطف،وأداة التعريف،والسين،وهمزة الاستفهام،ولام القسم .

٣ ــ الحركات والسكون في الكلمة ترتب من ناحية الأولوية ترتيبا تنازليـا على النحو التالي : **الكسرة، فالضمة، فالفتحة، فالسكون .**

ثانيا : تتلخص قواعد كتابة الهمزة بعد ذلك في القاعدة التالية : تُكتَب الهمزة في أول الكلمة **بالف مطلقا** ؛ أما في الوسط فانه يُنْظَر فيها **الى حركتها، وحركة ما قبلها** ، وتكتب على ما يوافق أَوْلَى الحركتين من الحروف .

فتكتب الهمزة على ياء في مثل : المستهزئين ، والمنشئين، وتطمئن، وافئدة، وفئة ، وجئتنا؛ لان الكسرة اولى من كل الحركات والسكون .

وتُكتَب على واو مثل: يؤز ، ويؤدي ، وسؤل ، واولياؤهـــم ؛ لان الضمة اولى من الفتحة والسكون .

وتكتَب على الف في مثل :سأل ، ويسأل ، وكأس ؛ لان الفتحة اولى من السكون .

اما في الآخر **فتكتب بحسب ما قبلها** ؛ فان كان ما قبلها مكسورا فتكتب على ياء مثل : برىء وقارىء ؛ وان كان مضموما كُتِبَت على واو مثل : جرؤ وتكافؤ ؛ وان كان مفتوحا كُتِبَت على الف مثل : بدأ وملجأ ؛ وان كان ما قبلها ساكنا تكتب مفردة مثل : بطيء وملء وشيء وجزاء وضوء وبطيء ومضيء .

ملحوظة : اذا تَرَتَّب على كتابة الهمزة على الف او واو توالي الأمثال في الخط ، كُتبت الهمزة على السطر مثل : يتساءلـــون ورءوس ؛ الا اذا **كان ما قبلها من الحروف مما يوصل بما بعده، فانها تُكتَب على نبـــرة** مثل : بطئا وشئون ومسئول) .

استثناء من القاعدة :

١ ــ اذا اجتمعت الهمزة والف المد في اول الكلمة او في وسطها **اكتُفِيَ بعلامة**

المد فوق الالف مثل : آدم، وآكل، واخر، والآن ، ومثل مرآة وقرآن .

٢ ــ تعد الفتحة بعد الواو الساكنة في وسط الكلمة بمنزلة السكون ؛ **ولذلك تُكتب الهمزة مفردة** في مثل : مروءة، وشنوءة، ولن يسوءك، وإن ضوءك .

كما تعد ياء المد قبل الهمزة المتوسطة بمنزلة الكسرة ، ولذلك **تكتب الهمزة على نبرة** في مثل : خطيئة وبريئة ومشيئة .

وتولى الأستاذ شوقي أمين مقرر اللجنة شرح أسباب تدوين هذه الضوابط فقال : ليس موضوع الهمزة جديدا على المجمع ، ولا على لجنة الأصول ؛ فقد عني المجمع بموضوع الهمزة ومشكلاتها حقبة طويلة ، وانتهى المجمع الى قرارات منذ ثمانية عشر عاما تقريبا في تيسير رسم الهمزة ؛ لكن جاءت قراراتها كثيرة الفروع والشعب، ولوحظ فيها التداخل؛ ورغم ابلاغ وزارة التربية والتعليم بما انتهى اليه المجمع في هذا الشأن فانها لم توضع موضع التنفيذ ، وكان قولهم : ان تعليم هذه القواعد الكثيرة شُقّة لا تتسع لها خطة التعليم . وقدم الدكتور رمضان عبدالتواب مشروعا **جعل لقوة الحركات الاعتبار الأول في رسم الهمزة** .

وتبين للجنة الأصول عند دراسة مشروع الدكتور رمضان انه منذ خمس وعشرين سنة قدم الى المجمع استاذ في المعاهد الازهرية يُسمّى الأستاذ الشيخ بشير سلمو ، ومعه مشروع لرسم الهمزة بعنوان : « **قاعدة الأقوى** » . وطوى الزمن هذا المشروع منذ ذلك الوقت، حتى عاد الحديث حول كتابة الهمزة ، وعَثَرْتُ انا عليها بعد جهد في البحث عنها، ثم جئت بقرارات المجمع القديمة وعُنِيت بعقد المقارنة بينها وبين ما تقدم به كل من الدكتور رمضان والأستاذ بشير سلمو ؛ وفي اثناء البحث هدى الدكتور مهدي علام الى **طريقة الأقوى** هذه، وكان يعلّمها بعض طلابه، وكان يجد تيسيرا كبيرا .

وطَبَّق المجمع القواعد التي وضعها متفقا مع ما جرى به العرف في الكتابة،الا في ضابطين اثنين هما : « بيئة وشئون » اذ كان يكتب الأولى همزة على الف ، والثانية همزة على واو ، الا أن هذا لم يجد قبولا ؛ وفي هذه الضوابط الجديدة نعود الى سيرة كتابة « بيئة وشئون » **فتكتب الهمزة على نبرة كما هو المألوف** (٢٣) .

وجرت مناقشات حول بعض الضوابط ، واختُلف على ضابط الثلاثي، وانتهى الامر **بالموافقة على تقرير اللجنة بالاكثرية** .

الموضوع الخامس : الالف اللينة

بعد مناقشة الموضوع وما قُدِّم فيه من مذكرات،انتهت لجنة الاصول الى القرار الآتي :

« تُرسَم الالف اللينة بصورة الياء (غير منقوطة) أما الياء فتنقط للفرق.

وترسم الالف اللينة في آخر الفعل على صورة الياء نحو : رمى وسعى وادعى واستوفى ؛ فان سُبِقَت بياء رُسِمَت بالالف نحو : أحيا واستحيا ؛ أما اذا كان الفعل ثلاثيا مضارعُهُ بالواو فتُرسَم الِفًا نحو : غزا ودعا .

وتكتب في آخر الاسم بصورة الياء اذا كانت رابعة فصاعدا،نحو : بُشرى ومنتدى ومصطفى ؛ فان سُبِقت بياء رُسِمَت الِفًا نحو : دنيا وخطايا؛ وان كانت الالف ثالثة جازت كتابتها بالالف مطلقا نحو : عصا ورحا وخطا ؛ ويجوز كتابتها بصورة الياء لمن يعرف الفرق بين موقعيهما نحو: رضا وهدى . وتُرسَم الفا في آخر الاسم الاعجمي مطلقا مثل : تسلا وسخا وشبرا، الا ما اشتهر بغير ذلك نحو : موسى وعيسى وكسرى وبخارى ومتّى (مشددة) ، وتُكْتَب في آخر الحروف بصورة الالف،ما عدا : الى وعلى وبلى وحتى ومتى »

وجرت مناقشات حادة حول بعض الضوابط اشترك فيها الأساتذة: شوقي أمين، وتمام حسان، وعبد السلام هارون، ومحمد رفعت فتح الله، وأحمد الحوفي، واسحٰق موسى الحسيني، ومهدي علام. وخص الدكتور عدنان الخطيب اللجنة بالشكر **لتفريقها بين الألف اللينة والياء باقرارها نقط الياء في آخر الكلمة**، ورجا أن يأخذ بذلك المسؤولون عن الطباعة في مصر، ليزول كل اختلاف املائي بين ما يُنشَر في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية

وانتهى الأمر بالمؤتمرين الى الموافقة على قرار اللجنة بالاكثرية .

الموضوع السادس : اقتران اسمين في تعبيرات محدثة

كانت لجنة الأصول اتخذت **بالأغلبية** القرار الآتي :

« اتفاقية سايكس ــ بيكو ؛ طيران مصر ــ السودان ؛ قطار دمشق ــ معان »

درست اللجنة هذه التعبيرات ، ورأت أن النمط الأول منها فيه المفاعلة لا يحتاج الى تأويل ، لأنه مكون من جملة فيها عامل ومعمولين .

اما النمط الثاني والثالث ففي تخريجهما وجهان :

الوجه الأول : **انها على تقدير حذف حرف العطف .**

الوجه الثاني : ان الاسمين المقترنين متضايفان »

وجرت مناقشة حادة من اجل اجازة **أمثال هذه التعبيرات المستعارة من غير العربية** ، أعيدت خلالها المناقشات التي جرت في اللجنة المختصة ، وقد لخصها الأستاذ علي النجدي ناصف فقال : ذهبت اللجنة في تخريج اقتران اسمين في بعض هذه الأساليب ثلاثة مذاهب : أحدها اضافة الاسم الأول الى الثاني ، والآخر تسكين أواخر كل من الاسمين اعتمادا على قرار للمجمع في هذا ؛ والثالث جعل الاسمين معطوفين بلا عاطف مذكور . ثم

اردف يقول : والاحظ أن القول باضافة الأول الى الثاني لا يمكن حين يكون الاسم الأول مقرونا بالألف واللام ؛ والاحظ على التخريج الثاني أن التسكين يمكن أن يؤخذ به حين تكثُر فيه الأسماء فحسب ، ويكون التسكين حينئذ للتخفيف . اما القول بالعطف مع حذف العاطف فهو الراي الأشبه باللغة ، وقد احتج له الدكتور شوقي ضيف بنصوص تجيز ذلك؛وأزيدُ على احتجاجه ، **الاحتجاج باسلوب واو الثمانية** (٢٤) ، وهي واو يتقدمها سبعة معطوفات ويجيء الثامن مقرونا بالواو ، وله ثلاثة امثلة في القرآن الكريم : الأول في سورة التوبة؛والثاني في سورة الكهف؛والثالث في سورة التحريم.

وسكتت المناقشات،وكاد المؤتمرون يُجمِعون على أن امثال هذه التعبيرات العصرية المترجمة عن الاعجميات ، **تخرج على سنن العربية** ، ولكن شيوعها اوجب البحث عن تخريج لها ؛ والقول بالعطف مع حذف العاطف اشبهها بالعربية . **وأعتُبِر قرار اللجنة مجازا .**

الموضوع السابع : جواز جمع فعل على افعال من كل اسم ثلاثي

انتهت لجنة الاصول بعد مناقشة هذاالموضوع الى القرار الآتي : « يجوز **اذا لم يسعف السماع** ان يجيء جمع التكسير على افعال من كل اسم ثلاثي؛بناء على ما قرره جمهور النحاة من أن (افعالا) يطرد في اسم ثلاثي لم يطرد فيه **(افعُل)** ، وعلى ما قرره المجمع من **اباحة جمع (فَعل اسما صحيح العين) على افعال** ، وهو ما استثناه النحاة من اطراد مجيء (أفعال) في الثلاثي » .

ووافق المؤتمرون **على اجازة القرار .**

الموضوع الثامن : وزن فُعالة للدلالة على نفاية الأشياء ومتناثراتها وبقاياها

انتهت لجنة الاصول بعد مناقشة الموضوع الى القرار الآتي :

« درست اللجنة صيغة فُعالة للدلالة على نفاية الشيء وبقاياه وما تناثر منه ، وتأسيسا على ما سجلته المعاجم وكتب اللغة الاخـــرى من عشرات الالفاظ على هذه الصيغة بهذه المعاني ، وعلى ما ذكره اللغويون مـــن ان **فُعالة يدل على فضالة الشيء وما تحاتَّ منه وبقي بعد الفعل** ــ كما في ديوان الأدب وغيره ــ يجيز المجمع ما ينشأ من كلمات على صيغة فُعالة بهذه المعاني ، سواء ما كان منها في **مصطلحات العلوم أم في الفـــاظ الحضارة** (٢٥) .

وأجمع المؤتمرون على اجازة هذا القرار .

الموضوع التاسع : تعليق على تيسير دراسة النحو في التعليم العام

أحيل الى لجنة الأصول تقرير عن دراسة النحو العربي في التعليـم العام ، فوكلت اللجنة الى الدكتور شوقي ضيف كتابة تعليق عليه ؛ فكتب تعليقا اجازته اللجنة ، وهو الآتي :

« من الواضح الجلي في التقرير ان ــ ما ادخلته مناهج اللغة العربية لتيسير النحو ــ **أُخِذَت فيه بطائفة من قرارات المجمع اللغوي في الـدورة الخامسة والاربعين وما قبلها** ؛ وهذا احصاء بها :

١ ــ اذا تَقَدَّم المعدود على العدد جاز تذكير العدد وتأنيثه .

٢ ــ اذا جُرّ المعدود بمِن جاز تأنيث ادنى العدد (٣ــ١٠) .

٣ ــ اذا كان العدد مضافا جاز تعريفه مع بقاء المضاف اليه منكَّرًا (الالف كتاب) .

٤ ــ المستثنى بإلاّ وخلا وعدا وحاشا منصوب دائما .

٥ ــ المستثنى بغير وسوى يُجَرّ بالاضافة وهما منصوبان .

٦ ــ الاستثناء المفرغ قَصْر لا استثناء .

٧ ــ لا يُقدَّر العامل في أساليب الاغراء والتحذير والاختصاص ، ويُكتفَى بعرض صورها .

٨ ــ يقال في « لا سيما » أنها للترجيح وما بعدها يُرْفَع أو يُنْصَب أو يُجَرّ . ولا يتعرض لتوجيه الاعراب في هذه الأحوال .

٩ ــ يُكْتَفَى في تعريف المفعول معه أنه اسم منصوب تالٍ لواو بمعنى مع، لا يشترك مع ما قَبْلَه في الفعل » .

وأضافت اللجنة الى هذه البنود البند العاشر التالي :

« ١٠ ــ في مصدر الفعل الأجوف واسمي الزمان والمكان منه ، يقال فيه بجواز الفتح والكسر ، مثل مسار ومسير ومطار ومطير ــ للمصدر الميمي واسم الزمان واسم المكان » .

وهذا البند من قرارات لجنة الأصول في الدورة السادسة والأربعين ؛ أما البنود التسعة السابقة فتلتقي مع قرارات المجمع في دورته الخامسة والاربعين وما قبل ذلك ، وهناك بنود صرفية أُخِذَ فيها بقرارات سابقة للمجمع .

وشكر المؤتمرون بعد اطلاعهم على هذا التعليق للجنة الاصـــول جهودها الكبيرة .

/ سابعا : اعمال لجنة الالفاظ والأساليب

نظر المؤتمر في اعمال لجنة الالفاظ والأساليب المحالة اليه عن طريق مجلس المجمع ؛ وفيما يلي عرض موجز لمناقشاته وما اتخذه من مقررات :

اولا : الالفاظ

١ ــ المعلن اليــه

قررت اللجنة ، بعد مناقشة الموضوع ، ما يأتي :

« مما يشيع في لغة اهل القضاء قولهم : المعلن اليه اي الشخص الذي يصل اليه اعلان بالحكم او بالقضية .

ويؤخذ على هذا التعبير ان لفظ المعلن مُعَدّى بالى مع ان فعله (اعلن) مُعَدّى بنفسه ، يقال : اعلن رأيه ، واعلن امره .

ولكن تعدية اعلن بالى امر جَرَت به اقلام بعض اللغويين منذ وقت طويل ، اذ فسر صاحبا القاموس واللسان : عالنه بقولهما : **اعلن اليه** . هذا مع امكان ان يكون الكلام **من باب التضمين** ؛ واذاً يكون اعلن قد عُدّي بالى لأنه بمعنى أوصل .

وعلى ذلك يكون التعبير القضائي صحيحا يجري على سنن العربية وضوابطها » .

وبعد مناقشة قصيرة **وافق المؤتمرون على القرار بالاجماع** ، مع اضافة الجملة التالية الى التعليل : « **فضلا عن ازالة الالتباس بين المعلن والمعلن** » .

٢ ــ التطويــع

ناقشت لجنة الالفاظ والاساليب الموضوع المعروض عليها وانتهت الى القرار التالي :

« يشيع بين المعاصرين استعمال (التطويع) بمعنى **الاخضاع والتذليل** في نحو قولهم : تطويع التلاميذ او تطويع القاعدة ، او تطويع

اللغة ؛ وقد يؤخذ على هذا الاستعمال ان المعجمات لم تثبت هذا المعنى لكلمة تطويع ، وانما اثبتت لها معاني أخرى كالتزيين والمطاوعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُه قَتْلَ أَخِيْهِ فَقَتَلَهُ ﴾ .

وفي اللغة طاع يطوع ، وطاع يطاع بمعنى : انقاد ؛ ويجوز **ان يُضَعَّف هذا الفعل الثلاثي اللازم ـ للتعدية ـ** فيصير : طَوَّعَ بمعنى : أخضع .

وإذاً يكون المصدر وهو التطويع من الفعل طَوَّع المتعدّي مؤدياً لمعنى الاخضاع والتذليل والتيسير ؛ ولا اعتراض على هذا لأن الفعل الثلاثي اللازم مُتَعَدٍّ بتضعيف عينه .

ولهذا ترى اللجنة ان لفظ التطويع صحيح في المعنى الذي يستعمله المعاصرون فيه » .

وبعد مناقشة سريعة **وافق المؤتمرون على القرار بالاجماع .**

٣ ـ الانضباط

انتهت لجنة الالفاظ والأساليب الى القرار التالي :

« يشيع في اللغة المعاصرة استعمال لفظ الانضباط مراداً به **حدوث الضبط والتزام القواعد او النظام العام** ؛ ويؤخذ على هذا الاستعمال ان امهات المعجمات العربية لم تثبته ، وانما اثبتت ضَبَطَه ضَبْطا وضَبَاطة. واذ كان الانضباط يمكن أن يكون مصدرا للفعل انضبط الذي هو مطاوع للفعل ضبط الثلاثي المتعدي ـ **والمطاوعة هنا تنطبق عليها الضوابط التي أقرّها المجمع في قياسية المطاوعة** ـ فان اللجنة تجيز لفظ الانضباط في المعنى الذي يستعمله المعاصرون » .

وقبل المؤتمرون هذا القرار بالاجماع ، بعد مناقشات حول طبيعة المطاوعة والتعدية والقياسية فيهما .

٤ ــ التصويب

انتهت اللجنة الى ما يلي :

« جاء في المعجم الوسيط : **صَوَّب الشيء : صحَّحه** ، على معنى انه عالجه بما يجعله صحيحا .

وهناك مَنْ تَوَقَّف في هذا ، بدعوى أن تلك الدلالة ليست في مسموع اللغة ، وانما المسموع : صَوَّب الشيء : رآه أو عَدَّه صوابا (٢٦) .

وترى اللجنة أن ما سجله المعجم الوسيط من هذا الاستعمال ، لـه سنده في فقه العربية ؛ **فان التعدية تحمل معنى الجعل والصيرورة** ، كما تقول : حقَّقْتُ الكتاب ، وصحَّحْتُ الحديث ، وذهَّبْتُ الاناء ؛ وعلى هذا تصويب الكلمة جَعْلُهاصوابا ؛ وذلك بادخال عنصر تصحيح عليها او بديل يجعلها جديرة بالحكم لهابالصواب ، وهذا تَصَرُّف مجازي سائغ » .

وبعد المناقشة اجاز المؤتمرون القرار بالاجماع .

٥ ــ تصويب كلمات مزيدة بالهمز

انتهت اللجنة الى ما يلي :

« يجري في استعمال الكُتّاب قولهم : عَمَلٌ مُرْبِك ؛ وقولهم:اشهار المزاد او البيع ؛ وقولهم : هذا التصرف يُضيره بضم الياء ، وقد أُضِرَّ في هذا الحادث .

وللناقد أن يتوقف في اجازة هذه الاستعمالات لأن المسموع في افعالها **انها ثلاثية متعدية بنفسها الى المفعول** ؛ واللجنة لا ترى مانعا من اجازتها على اساس ان **افعَلَهُ بمعنى فَعَلَه** وَرَدَ منه في اللغة عشرات من الكلمات . وان صيغة المزيد انما عُدِل اليها لما فيها من الاسراع الى افادة

التعدية ، ومن قياسية مصادرها ، ويسر الضبط لماضيها ومضارعها » .

ووافق المؤتمرون على اجازة القرار بالاجماع .

٦ ــ التصفيــة

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يشيع في اللغة المعاصرة قولهم : تصفية المشكلات ، وتصفيــة الخلاف ، وتصفية البضائع ، وتصفية الحساب، مرادا بها **الانهاء والحــلّ والازالة .**

وقد يبدو للناقد المتعجل أن استعمال هذا المصدر بهذا المعنى غير جارٍ على سنن العربية؛ لأن معنى الصفاء في اللغة هو الخلوص من الكدرة والخلاء مما يشوب ، فيقال : أَصْفَى الشاعر : انقطع شعره ، وأصفت الدجاجة : انقطع بيضها ، وأصفى الأمير الدار : اخلاها .

ولما كان الاصفاء والتصفية تجمعهما مادة واحدةهي (صفا)،فانــــه **يجوز قياس صفى على أصفى بمعنى ما تــــؤول اليــــه التصفيــــة ،** وهو الانهاء والاخلاء والازالة .

ولهذا ترى اللجنة أن التصفية في معناها العصري بمعنى الازالــــة والحلّ والانهاء صحيحة ، ولا مانع من تداولها في أساليب الكلام » .

وبعد مناقشة وجيزة اجاز المؤتمرون الكلمة .

٧ ــ الانشطة

انتهت اللجنة الى القرار الآتي :

« يشيع في اللغة المعاصرة استعمال « الانشطة » مرادا بها **الدلالــة على جملة الاعمال المتنوعة التي يمارسها المرء او الجماعة في الحياة العامة**

من رياضية واجتماعية وثقافية .

وقد يؤخذ على هذا الاستعمال أن الأنشطة جمع نشاط ، وهو مصدر، والأصل في المصدر الا يثنى ولا يجمع ، لانه يدل على القليل والكثير ، ثم ان جمعه في حالة جوازه على صيغة افعلة غير مسموع .

واللجنة ترى اجازة التعبير على اساسين :

الاول : ان جمهرة علماء اللغة **يجيزون جمع المصدر اذا تعـــددت أنواعه** ؛ والنشاط متعدد الانواع .

والآخر : ان جمهرة علماء التصريف **يجيزون فعالا على افعلة جمع قِلّة**؛ هذا وقد سبق للمجمع ان اصدر قرارا يجوِّز فُعالا على أَفعِلة جمع قلة » .

ودارت مناقشات انتهت باجازة القرار بالاجماع .

٨ ــ هذا عامل كسول

ناقشت اللجنة الموضوع واتخذت القرار التالي :

« يُخَطِّىء بعض الباحثين مثل هذا التعبير ، ويقولون ان الصواب فيه كَسِلٌ او كَسْلان ، لان المعجمات اثبتت لفظ الكسول بين اوصاف المؤنـــث دون المذكر .

درست اللجنة هذا ثم انتهت الى أن التعبير صحيح بدليلين :

(١) أن صيغة فعول **جاءت كثيرا مشتركة بين المذكر والمؤنث** مثل : غَيور وكَنود وعَضوب ؛ ولا مانع أن يكون « الكسول » مثلها، اذ الكَسَل في اصله من المعاني المشتركة بين الجنسين .

(٢) انه قد ثبت ورود لفظ الكَسول عينه **وصفا للمذكر في بيتين مـــن الشعر** وهما : قول الشاعر الجاهلي أُحَيْحَة بن الجُلاح (كما فـــي

الصحاح مادة زمل) :

لا وابيك ، ما يغني غنائي من الفتيان زُمَّيلٌ كسولُ

وقول الراعي في ملحمته :

طال التقلب والزمان ورابه كسل ويكره أن يكون كسولا

وعلى هذا يكون مثل قولهم : عامل كسول ، صحيحا لا مانع من استعماله » .

وبعد المناقشة **وافق المؤتمرون بالاجماع على اجازة القرار .**

ثانيا : الأساليب

١ ــ ما هي الأسباب ــ ما هو رايك ــ من هو مؤسس الدولة ؟

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يخطّىء بعض نقاد اللغة ما تجري به الأقلام في اللغة المعاصرة من امثال هذه التعبيرات التي يُستَعمَل فيها الضمير بعد (ما) أو (من) الاستفهاميتين ؛ وحجّتهم في ذلك أن الضمير لا مرجع له هنا بحسب الظاهر .

وقد انتهت اللجنة بعد دراسة المسألة الى انه يمكن تخريج هذه التعبيرات ونحوها باحد الأوجه الآتية :

١ ــ أن يكون **الضمير ضمير فصل** ليدل على أن ما بعده خبر عما قبله .

٢ ــ أن يكون الاسم الظاهر **بدلا من الضمير** قبله .

٣ ــ أن يكون الضمير **مبتدأ ثانيا** وما بعده خبر والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولهذا ترى اللجنة أن هذه التعبيرات المذكورة فيما يستعمله المعاصرون **صحيحة** » .

ووافق المؤتمرون على **اجازة القرار بالاجماع .**

٢ ــ دلالة الحرف (عن) في محدث الاستعمال

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يجري في الاستعمال مثل قولهم : تقرير عن مشكلة التعليم الأساسي ، ومحاضرة عن تربية الأسماك ، وحلقة اذاعية عن النقد الادبي .

ويلاحظ أن (عن) في هذه التعبيرات غير دالّة على **(المجاوزة) التي هي المعنى الأصلي للحرف** في ظاهره .

وقد استبان للجنة أن (عن) في هذه الاستعمالات ونحوها تدلّ على **معنى الاتصال والتعلق والارتباط ،** وقد نَبَّه فقهاء اللغة الى أن دلالة (عن) الأصلية على (المجاوزة) تتضمن معنى : (الالصاق) أو (السببية) أو (الظرفية) بمعنى (في) وقد فُسّرت بذلك شواهد من المنثور والمنظوم في فصيح الكلام .

فلهذا ترى اللجنة اجازة أمثال تلك الاستعمالات » .

وبعد مناقشات حول هذا القرار **اعلنت موافقة المؤتمرين على اجازته بالاجماع .**

٣ ــ تظريف كلمات في محدث الاستعمال

انتهت اللجنة بالمناقشة الى القرار التالي :

« يشيع في اللغة العصرية ايقاع كلمات موقع الظرفية المكانية ، **على حين أنها ظروف مختصة غير مبهمة ،** وذلك مثل : طيّ ، ضِمن ، باطن ، أدناه ، رُفق (بفتح الراء) ، وسُط (بفتح السين) فيقولون : **أرسلته طيّ**

كتابي ، قَدَّمْتُه ضِمنَ اوراقي ، رفق هذا مذكرة ، جلس وَسْط الدار .

ويرى بعض الباحثين أن هذه الاستعمالات لا توافق اللغة ، **لأنها** ظروف مختصة ، **لا بد أن تُسْبَق بحرف الجر** ، وقد بحثتها اللجنة وانتهت الى اجازتها بناء على أن النحاة قد أجازوا من قبل كلمات منها : جهة ، ووجه ، وناحية ، وداخل ، وخارج ، **على أساس انها شبيهة بالجهات في الشيوع**، وانها لا تخلو من الابهام وعدم الاختصاص ، على الاتساع ، سواء أكانت الاسماء مصادر أم كُنَّ غير مصادر » .

واجاز المؤتمرون هذا القرار بعد مناقشته ، وشكر الرئيس للجنة ولمقرّرها جهدهم الطويل .

ثامنا : اعمال لجنة اللهجات

عُرضت أعمال لجنة اللهجات على المؤتمر ، وكان مجلس المجمع أحالها اليه ، بعد تعديله بعض ما فيها وموافقته عليها .

وكانت لجنة اللهجات درست جملة من المسائل ، وانتهت الى قرارات؛ وفيما يأتي موجز لما تم فيها :

١ ــ الظواهر اللغوية للهجات العربية القديمة

كانت اللجنة قد عَرَضت على مجلس المجمع ومؤتمره في الدورات:٤٢، ٤٤ ، ٤٥ مجموعات من المصطلحات اللغوية في اللهجات العربية القديمة ، فوفق على طائفة منها ، **كالتَلْتَلة والشَنْشَنة والطُمْطمة** . ورات اللجنة الانتقال من مرحلة رصد الظواهر الجزئية ، الى مرحلة رصد الظواهر الكلية لقبيلة بعينها . . .

وقد قامت اللجنة **بجمع ما يتعلق باللهجات القديمة في لسان العرب** ونقل نصوصه في جزازات ، وصُنِّفت المادة المجموعة بطريقة تُيَسِّر الانتفاع

بها في البحث ؛ وكان التصنيف وفقا لمستويات اللغة بالترتيب الآتي :

ما يتصل بعلم الأصوات ، وما يتصل بعلم الصرف ، ثم ما يتصل بعلم النحو ؛ وفي هذا العام رجعت الى ما وجدته من تلك الجزازات . وشرعت في استخلاص **الخصائص** مستأنسة بما كُتب من دراسات وبحوث في القديم والحديث ...

وقد انتهت اللجنة الى قرارين في **لهجتي طيء وهذيل** ، مصحوبين بالمذكرات المقدمة من الدكتور رمضان عبدالتواب في خصائص لهجة طيء،والدكتور أحمد علم الجندي في خصائص لهجة هذيل .

أما القرارات فهي :

أ ــ الظواهر الصوتية في لهجة طيء هي :

١ ــ **الميل الى التخلص من صوت الهمزة** ، فتُبْدَل حرفا من جنس حركة ما قبلها مثل : يؤاخي ، ويؤاكل ، ويؤاسي فتصير : يواخي ، ويواكل،ويواسي ؛ أو يبدلونها هاء في بعض المواضع، يقولون : هِنْ فَعَلْتَ ، يريدون إن فعلت .

٢ ــ **جهر السين والصاد** ، بقلبهما زايا ، فيقولون في سَقَر وصَقْر : زَقَر وزَقْر .

٣ ــ **قلب الياء والواو الفا** ولو لم يكن ما قبلهما مفتوحا فيقولون : بَقَى وبَقَيْت مكان : بُقِيَ وبُقِيْت .

٤ ــ **قلب الف المقصور ياء** فيقولون : افعي وحبلي مكان : افعى وحبلى .

ب ــ الظواهر الصوتية في لهجة هذيل اهمها :

قلب الف المقصور ياء **عند اضافته الى ياء المتكلم** ، ثم تدغم الياء في الياء مثل : فتيَّ وهويَّ.وبعد قراءة المذكرات المشار اليها جـــرت بعض المناقشات حولها،ثم أعلن الرئيس الشكر للجنة على جهودها .

ب ــ ما بين الفصحى والعامية من الوحدة في الألفاظ

تُعنَى لجنة اللهجات بالحديث منها كما تُعنَى بالقديم ؛ وَقَدَّمت هذه السنة الى المؤتمر طائفة من الالفاظ العامية التي تجري في البيت والمصنع والسوق والحقل ، مستهدفة توثيق علاقتها بالفصحى ، والتنبيه الى انه لا وجه لاغفالها أو الترفع عنها في لغة الكتابة، وهي تُعايِش الحياة اليوميـــة في التفاهم والتحادث والخطاب .

وتأمل اللجنة أن تواصل دراستها لمجموعات متتابعة من الالفاظ،وَصْلًا لجهود الباحثين في مختلف البلاد العربية خلال قرن مضى في ابراز العروة الوثقى بين الفصحى والعاميات في أوطان العروبة .

وَقَدَّمت اللجنة قائمة بمئة كلمة عامية ، سجلتها معجمات الفصحى في مفرداتها ؛ وفيما يلي بعض منها :

المَيِّل : الولد
الشَّجِيْع : الشُجاع
الشبّ والشبّة : الشابّ والشابّة
السُّبوع : الاسبوع
الرِّيحـــة : الرائحة
حَرَّج : حَرَّم وضَيَّق
زَوَّق : زيَّن
المراجيح : الاراجيح

محصور : حابس البول

السُّفرة : المائدة

الزُّور : القوة والشدة

الجَرْسَة : الفضيحة وسوء السمعة

الأطرش : الأصم

حَوَّش : جمع

الشطّ : الشاطىء

بَيَّاع : بائع

حَوَّد : مالَ

الصيغة : المصوغات

الضَّنا : الولد والنسل

هَجَّ : شرد ونفر

وجرت مناقشات طريفة حول بعض الألفاظ ودورها في الشعر القديم؛ وشكر الرئيس للجنة جهودها آملا مواصلتهافي سبيل التقريب بين لغة الناشئين التي تمرسوا بها وما يُعْرَض عليهم في الكتب المدرسية في مرحلة التعليم الأساسي .

تاسعا : جلسة الختام

عقد المؤتمرون جلستهم الختامية صباح يوم الاثنين في الرابع عشر من جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ وفق الحادي والثلاثين من آذار (مارس) ١٩٨٠م، عَرَضَ فيها الدكتور مهدي علاّم،أمين المجمع،ما أنجزه المؤتمر خلال هذه الدورة ؛ثم تليت اقتراحات الأعضاء وملاحظاتهم حول الجهود المبذولة في سبيل تعريب التعليم الجامعي،وتوحيد المصطلح العلمي ، وحول مؤتمرات التعريب التي تدعو اليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ؛ وتساءل

بعض الاعضاء عما تم بالتوصيات السابقة للمؤتمر ، من أجل اعداد العاملين بالاذاعة المسموعة والمرئية ، وما يتعلق منها بلغة المسرحيات والتمثيليات والصحف ، والدعوة الى الاقتصار على **استخدام لغة فصحى** يسهل فهمها على العربي من مختلف المستويات وفي جميع اقطار العروبة .

وطالب بعض الاعضاء **ببذل جهود لتكوين هياة ذات سلطات نافذة** تقوم بالتنسيق مع اتحاد المجامع العربية بتوحيد المصطلح العلمي ونشره في انحاء العالم العربي .

وبعداقرار التوصيات النهائية للمؤتمر ، تقرَّر تبليغها الى سائر المجامع العربية،والى كل من اتحاد المجامع،والجامعات،وجامعة الدول العربية،والمنظمات الاخرى،ووزارات التربية والتعليم،والثقافة والاعلام في جميع البلاد العربية .

ثم تبادل عدد من الأعضاء كلمات وداعية ، مبدين أسفهم لافتقادهم وجوها كريمة من اعضاء المؤتمر غابت عنهم في هذه السنة .

والقى الدكتور عز الدين عبد الله كلمة واعية،ضَمَّنها الأسى لعدم التئام شمل جميع العاملين في خدمة العربية ، تبعا للظروف السياسية المؤلمة التي مَزَّقت كلمة العرب وشتَّتت صفّهم ؛ ورجا أن تتبدل هذه الظروف لتساعد جميع اعضاء المؤتمر على حضور المؤتمر القادم .

ووقف الدكتور اسحٰق موسى الحسيني ليشكر للقائمين على المؤتمر بالغ حفاوتهم ، وليشاطرهم الأماني في مستقبل مضيء،عسى أن يكون قريبا ؛ فاذا بأبيات من الشعر تنثال عليه فيقول :

في كل عام لنا في مصرَ مأدبةٌ
غنيةٌ بغذاء الروح والجسدِ

فلتبــقَ مصرُ على الايــام شامخةً
تزداد خيرا بــلا حــدّ ولا عــددِ
وليَبْــقَ مجمعنــا للعُــرب مئذنةً
تُذاع من فوقها الفصحى الى الابدِ

وقبل أن تلتهب الأكف بالتصفيق استحسانا ، لاحظ المؤتمرون دمعتين تتلألآن في عيني الدكتور الحسيني ، وهو يتطلع الى مقاعد ابناء الأقطــار العربية التي شغرت بغيابهم ؛ فكانت الدمعتان أبلغ من اي كلمة قيلت في حال الأمه العربية وما آل اليه من تشتت وفرقة في السياسة ؛ حال على بالغ سوئه ما كان ينبغي أن يبدو في مؤتمر لا هدف له الا خدمة لغة الذكــر الحكيم .

ثم أعلن الدكتور ابرٰهيم مدكور،رئيس المؤتمر،ختام الدورة السادسة والأربعين ، متمنيا للأعضاء كل خير،آملا اللقاء بهم في الدورة القادمة التي ستعقد ان شاء الله في الأسبوع الثاني من شباط (فبراير) سنة ١٩٨١ .

عدنان الخطيب

●✱✱●

(١) ألقى البحث الدكتور مهدي علام نيابة عن صاحبه ، وقد عاقته ظروف صحية عن متابعة اعمال المؤتمر .

(٢) الاية ٢ من سورة الحج ٢٢ .

(٣) الاية ١٨ من سورة المزمل ٧٣ .

(٤) وردت لفظة السماء في القرآن الكريم عشرات المرات ، وُصِفت كلها بمؤنـــث ، الا في موضعين ، أحدهما المسألة المبحوث فيها .

(٥) الاية ٩ من سورة الحجرات ٤٩ .

(٦) جاء في تفسير الامام النسفي في هذه المسألة : « وقيل (مرضعة) ليدل على أن ذلـك الهول اذا حدث وقد أُلْقِمَت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشـــة . اذ المرضعة هي التي في حال الارضاع ملقمة ثديها الصبي ؟ والمرضع التي شأنهـــا ان تُرضع وان لم تباشر الارضاع في حال وصفها به » انظر ص ٤٢٤ ، ج ٢ من مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٧) انظر القسم الاول من هذا البحث المتع في أبحاث مؤتمر الدورة الخامسة والاربعين ؛ وسبق للمجلة أن نشرت وقائع هذا المؤتمر في العدد المزدوج(٣ ــ ٤).

(٨) طُفَيل ، وزن زُبَير ، اسم ابن زلال الكوفي ؛ كان يدعى طفيل الاعراس ، لانه يأتـــي الولائم من دون دعوة (القاموس المحيط) .

(٩) ليست الكلمة في عامية اهل مصر فحسب ، فهي وأمثال لها في عاميات بلاد الشام وأقطار أخرى ؛ وهي وان بدا أنها مولّدة ، فقد جرت منذ القديم على السنة الفصحاء وعلى اقلام كبار الكتاب .

(١٠) من هذه النصوص يبين أن الرسم الصحيح لكلمة (سورية) الاسم الذي عرفت به بلاد الشام ، يكون بالتاء المربوطة ، وهي مضمومة السين مخففة الياء ، وهو الرســـم الشائع بين الكتاب في سورية نفسها . كما أن الحكومة السورية تلزم به دوائرها (بلاغ ٢١/٥/١٩٥٥ وتعميم ٦/١/١٩٦٢) ، خلافا لما جرى عليه الكتاب في مصر . وقد أشار المرحوم عبد القادر المغربي الى خطأ رسم سورية بالالف (انظر كتابه عشـــرات

اللسان ، دمشق ١٩٤٩) وكان الامير مصطفى الشهابي من المتعصبين الى كتابة سورية بالتاء المربوطة ، تبعا للسليقة العربية ، وتقيدا بقرار مؤتمر المجمع الذي يرجح الرسم الصحيح (انظر كتابه المصطلحات العلمية ، دمشق ١٩٦٥ — ومحاضر المؤتمر في دورته ٢٨) .

(١١) يقول فيليب حتي أن اسم سورية يوناني (أنظر تاريخ سورية ص ٦٢ ج ١ بيروت ١٩٥٨) ويربط هرتزفلد اسم سورية بكلمة آشور ، او اثورا (انظر مجلة مجمع دمشق مج ٢٢ ص ١٧٨) والمؤرخون السريانيون ينسبون سورية الى سورس ، أو كورش ، ملك فارس ومادي (أنظر كنيسة انطاكية للبطريرك يعقوب . دمشق ١٩٧١) .

(١٢) ورد اسم سورية في بحث الاستاذ هارون بلالف تبعا للرسم الشائع في مصر.ومما هو جدير بالتنويه أن الاستاذ وهيب دياب كان أشار في نقده معجم تهذيب اللغة للازهري، الذي حققه الاستاذ هارون ، الى هذا الامر (انظر « المجلة العربية » السعودية ، عدد ٥ سنة ٢ / ١٩٧٧) .

(١٣) هذا هو رسم الكلمة في النص الاكثر شهرة والاصح ، وهو المعتمد في كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة » ، لمحمد حميد الله،تحت رقم ٢٦ — القاهرة ١٩٥٦ . ومماهو جدير بالتنويه أن الحسين ملك الاردن اعلن في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٧ ان اصل كتاب النبي (ص) دخل في حوزته بعد ان عرضه على خبراء الاثار والمخطوطات العالميين واقرّوا بصحته . وفي رسمه اختلاف بيّن (انظر مجلة اكتوبر القاهرية عدد ٢٥ الصادر في ١٧ ابريل ١٩٧٧) .

(١٤) انظر جماع ذلك كله في شرح الامام النووي لصحيح مسلم ص ١٠٩ ج ١٢ القاهرة ١٩٣٠ — وجميع المصادر التي تضمّنت النص على اختلاف الروايات مشار اليها في كتاب حميد الله السابق ذكره .

(١٥) أنظر ما جاء في اللسان وما جمعه الزبيدي في التاج،بينما قال ابن فارس « الهمزة والراء والسين ليست عربية . ويقال أن الاراريس : الزارعون،وهي شامية ! » وأتى المعجم الكبير على ما ذكره ابن فارس،وعلى ما ورد في المعجمات الاخرى ، وكثير

منها تستلفت صحته النظر !

(١٦) اورد الطبري في تاريخه خبر كتاب النبي الى هرقل،واثبت نصه بصيغة : « وان تَقولَ فان اثم الأكارين عليك » انظر ص ٦٤٩ ج ٢ من طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

(١٧) جاء في الرواية التي اثبتها القاسم بن سلام : « .. وإلاّ فلا تُحلْ بين الفلاحين وبين الاسلام » ثم قال : « لم يرد الفلاحين خاصة ولكنه اراد اهل مملكته جميعا »، أنظر ص ٢٢ ج ١ من كتاب الاموال . القاهرة ١٣٥٣ .

(١٨) أنظر شرح الامام النووي السابق ذكره آنفا ــ وقارن مع ما أورده ابن منظور في اللسان عن الاروسية. وكان أبو الفتح الشهرستاني ذكر أن النصارى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة،وذكر اهم الفرق وما انشعب منها دون أي اشارة الى الاروسية ! غير انه نقل بعض أقوال آريوس قائلا: « وهذا اريوس قبل الفرق الثلاث ، فتبرأوا منه لمخالفتهم اياه في المذهب »،انظر كتاب الملل والنحل ص ٢٠٨ ج ١ القاهرة ١٩٥٦ .

والمّ محمد ابو زهرة بمختلف الفرق والمذاهب النصرانية،وبراي آريوس، مشيرا الى انتشار هذا الراي في مصر والشام ومقدونية . انظر « محاضرات في النصرانية » القاهرة ١٩٦١ .

(١٩) عاش القس آريوس في الاسكندرية في أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ، وأعلن اراءه في طبيعة المسيح حوالي سنة (٣١٨) ، فعارضه فيها كبير الاساقفة،ودعا الى حرمه ؛ غير أن أعوانه اختلفوا فيه ، وعرض الامر على الامبراطور قسطنطين بعد تنصّره،فدعا الى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، وانتهى المجمع الى حرم آريوس وأتباعه ؛ فنفاه الامبراطور ثم عفا عنه ؛ ويقال انه مات مسموما سنة ٣٣٦ (انظر ول ديورانت في « قصة الحضارة » ج ٣ مج ٣ القاهرة ١٩٥٥) .

ولما مات قسطنطين سنة ٣٣٧ خلفه على العرش في الشرق ابنه قسطنس ، وكان متعاطفا مع الاروسيين ، فازداد انتشار المذهب ورسوخه ؛ ولم يقتصر انتشاره على المشرق فحسب بل انتشر في الغرب ايضا ، وكان الخلاف حول الاروسية شديدا في اسبانيا قبيل فتح العرب لها (أنظر قصة الحضارة المرجع السابق ذكره ج ١ مج ٤)

(٢٠) حدث من عهد قريب أن أعلن رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) في وصية طريفة له أتّباعه آراء اريوس . انظر مجلة الحوادث البيروتية العدد ١٠٨٤ الصادر بتاريخ ١٩ اغسطس ١٩٧٧ . وانظر ماأعقب اعلان هذه الوصية من ردود وبحوث حول الاريوسية في مختلف المجلات العربية ـ وانظر ما علق به على هذاالموضوع انور الجندي في كتابه « صفحات مضيئة من تراث الاسلام » ص ٣٧١ القاهرة ١٩٧٩ .

(٢١) مؤرخو النصرانية في غالبيتهم يوجزون البحث في العقيدة الاريوسيةومدى انتشارهـا باعتبارها بدعة تناقض الايمان الكنسي لسنة ٣٢٥ م ؛ غير أن واحداً من كبار الاحبار المعاصرين اعترف في تاريخه بأن (الاريوسية التي نفذت الى الغرب باستيلاء البرابرة ، لم تكن راسخة شأنها في الشرق).انظر « الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة » للبطريرك برصوم ج ١ ص ٥٤٦ حمص ١٩٤٠ . وفي كتاب « تاريخ العالم » الذي نشره جون ا. هامرتن بالانكليزية،واشرفت على ترجمته الى العربية وزارة التربية بمصر بدءا من سنة ١٩٤٨،تجد تفصيلات هامة في هذا الموضوع ، كما تجد في كتاب « روما وامبراطوريتها »،لاندريه ايمار وجانين أوبويه،الذي ترجمه يوسف اسعد داغر وفريد داغر،تحليلات قيمة ، وهما يطلقان لفظة الآرّية على الاريوسية . بيروت ١٩٦٤.

(٢٢) ترجم الزركلي للشاعر في اعلامه وقال فيه : « كان فيه اعتزاز وترفع ، قال من ابيات يمدح بها اسحٰق بن ابرٰهيم :

ان أكن مهديا لك الشعر اني ... لابْنُ بيت تُهدَى له الاشعارُ

واشار الزكلي الى المصادر التي اعتمدها في الترجمة للمهلبي،وذكر الموشح للمرزباني وتاريخ بغداد للخطيب،وسمط الآلي،ورغبة الآمل،ويتيمة الدهر (الاعلام ج ١٠ ص ٢٤٢) .

(٢٣) تكاد تكون غالبية الضوابط المذكورة هي المعتمدة في سائر الاقطار العربية ، أما مسا (شؤون ومسؤولية) فما زالت في اقطار كثيرة تكتب الهمزة فيها على واو على الاصل

(٢٤) اشارة الى (الواو) التي سبقت كلمة ثامنهم في الآية ٢٢ من سورة الكهف .

(٢٥) من الكلمات التي يجيزها هذا القرار ، الاكالة والجرادة والجراشة والجزارة والحلاقة والخياطة والرصافة والفقاقة والكسارة .

(٢٦) انظر مقال الاستاذ صبحي البصام في الجزء الاول من المجلد الرابع والخمسين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٩ .

مع كتاب "الفرج بعد الشدة" للتنوخي

للدكتور ابراهيم السامرائي

مصنف الكتاب هو التنوخي أبو علي الحسن بن علي القاضي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، صاحب « نشوار المحاضرة » . وكتاب « الفرج بعد الشدة » نشر غير مرة نشرات لم تنل شيئا من الضبط والعناية ، شأنه شـــــأن « النشوار » .

غير أن الأستاذ عبود الشالجي المحامي قد اضطلع بنشر « النشوار » بادىء ذي بدء ، ثم أعقبه بنشر « الفرج بعد الشدة » . وليست بي حاجة الى بيان فضل هذه النشرة المحققة ، فقد أغناها الاستاذ الشالجي بفوائد سنية ، وأخرج الكتاب بهيأة حظيت بالاحسان التام والعناية الفائقة .

وكتاب « الفرج بعد الشدة » من كتب الأدب العامة لما فيها من أدب كثير ؛ فقد اشتملت على طائفة من الشعر ، ومثلها من عيون النثر والملح والنوادر . ثم ان الكتاب مما لا يستغني عنه المؤرخ لعلاقة الأخبار والقصص المذكورة بأحداث تاريخية معروفة مشهورة . وهذا الضرب من التصنيف كثير في المكتبة العربية التي تتصل بالتراث المشترك بين الأدب والتاريخ. ولعل هذا النمط غير بعيد مما عرفناه في كتابه (نشوار المحاضرة) من حيث الجمع بين فوائد عدة .

ان موضوع « الفرج بعد الشدة » معروف من اسمه ، فهو عرض

لاحداث واخبار وقصص عرضت فيها الشدة والكرب لجماعة من الناس، ثم هيأ الله لهم فرجا قريبا خُفّف عنهم الكرب فقرّت نفوسهم .

قلت: ان الأستاذ الشالجي المحقق قد أعان الدارسين فهيأ لهم كتبا فيها جهد كبير وفوائد سنية . ولكني وددت أن اقف على اشياء يسيرة فاقول فيها ما أقول :

الجزء الأول :

١ ــ جاء في الصفحة ٦٨ قول المصنف :

« عُلِمُ ان البُشرى الأُوَّلة تمنع من ذبح اسحاق » .

عَلّق الأستاذ المحقق على قول المصنف « الأُوَّلة » فقال :

« تعبير بغدادي بمعنى الأولى ، أما التعبير البغدادي الآن فهو « الأولية او الأولانية » .

اقول : لقد وجدتُ الأستاذ المحقق يفزع كثيرا الى وصف طائفة من المواد اللغوية بقوله : « تعبير بغدادي » ؛ ولا أدري كيف استطاع ان يتوثق من عامية بغدادية في القرن الرابع الهجري ، وأين لنا من المظان التي نعرف فيها هذه الشوارد العامية التي وصفت بـ « التعابير البغدادية » ؟

اقول : كان دليل الأستاذ ما ذكره من التعبير البغدادي المعاصر « الأولية او الأولانية » ؛ ولا أرى أن في ذلك ما يعين على معرفة لسان دارج قديم ، فان لم يكن هذا فما الحاجة الى الاكثار من الوان العامية البغدادية المعاصرة في هذا الكتاب، أيكون ذلك من باب الموازنة أم يكون للفائدة التاريخية ؟

وقد وجدت أن كثيرا مما وصفه الأستاذ المحقق بقوله : « تعبير بغدادي » هو من الكلم العام الشائع الذي نجده في مصنفـــــات شامية أو مصرية أو غيرها كما سنرى .

أقول : ليس من الصحيح أن نفزع الى القول بالعامية قبل أن نتوثق مما في عربيتنا الفصيحة . جاء في ترجمة « وال » في « لسان العرب » :

وحكى ثعلب : هن الأَوَّلات دخولاً والآخرات خروجا ؛ واحدتها الأُوَّلة والآخرة . ثم قال : ليس هذا أصل الباب،وانما أصل الباب الأول والأولى كالأطول والطولى .

وجاء في ترجمة « صَمَحْمَح » في « لسان العرب » :

قال ابن جني : الحاء الأولى من « صَمَحْمَح » زائدة ، وذلك أنها فاصلة بين العينين ؛ والعينان متى اجتمعتا في كلمة واحدة مفصولا بينهما ، فلا يكون الحرف الفاصل بينهما الا زائدا،نحو عَثَوَّل وعَقَنْقَل وسُلالِم وحَنَيْفِد • وقد ثبت أن العين الأولى هي الزائدة ، فثبت أن الميم والحاء الأوليتين في « صَمَحْمَح » هما الزائدتان ، والميم والحاء الأخيرتين هما الأصليتان ؛ فاعرف ذلك .

أقول : وهذا يعني أن « الأُوَّلة » لغة فصيحة وليس تعبيرا بغداديا .

٢ ــ وجاء في الصفحة ٨٠ من قول المصنف ذكر « بختنصر » فعلق المحقق بقوله : بخت نَصَّر او نبوخذ نَصَّر ٦٠٤ ــ ٥٦١ ق. م ، ملك بابل،أغار

على مصر ، وفتح اورشليم ... ... (انظر المنجد) .

اقول: ليس من الاصالة العلمية ان يُوثَّق العَلَم التاريخي ، وهو مشهور في مظانه الموثقة ، بكتاب « المنجد » !

٣ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« وجا بدانيال » ، فعلق الاستاذ المحقق بقوله :

« جا » اصلها « جاء » ، حذفت الهمزة على طريقة البغداديين في حذف الهمزة في آخر الكلمة ، قال الشاعر :

عُشِيَّةَ جا اهلُ العراق كانهم سحابُ خريف صفَّقَتْه الجنائبُ

(العقد الفريد ٤ / ٣٤٤)

اقول : الم يكن من الاجود والاولى ان تعاد الهمزة الى الفعل « جا » فيكون « جاء » ؛ وذلك لعلمنا الاكيد ان جمهرة النساخ في المخطوطات كلها تتخفف من رسم الهمزة في اواخر الكلمات . رايناهم يكتبون « الادبا » و « الالبّا » و « السما » و « الببغا » وكثيرا غير هذا بحذف الهمزة . ومن المعروف ان هذه من الاسماء الممدودة ، ومَدّها اكثر من قصرها ، وان كان القصر جائزا ووارداً ولا سيما في الشعر ، فاعيدت الهمزة الى هذه الكلمات عند نشر الكتب .

ثم ان حذف الهمزة الاخيرة غير خاص بالبغداديين ، فهو امر شائع في بلاد العرب عامة ، في العربية الفصيحة والالسن الدارجة قديما وحديثا ؛ وكتب القراءات وكتب الادب خير شاهد على هذا .

ثم ان استشهاد الاستاذ المحقق بالبيت دليل ضعيف ، ذلك ان الشاعر ممتحن بالوزن ، وحذف الهمزة يفي بالوزن وابقاؤها يُخِلّ به .

ولا ادري كيف جاز للمحقق ان يُعُدّ قول « الشاعر » على طريقة البغداديين وهو مجهول ؟ أليس من الجائز أن يكون اندلسيًّا او مصريًّا أو شاميًّا ؟

٣ ــ وجاء في الصفحة ٨٣ قول الأستاذ المحقق في التعليق على كلمة « الفرث » :

« الفرث السرجين ما دام في داخل الكرش » .

اقول توخى الأستاذ المحقق ان يكون عمله مفيدا غنيا بما يحتاج اليه القارىء وما قد يكون فيه غنى عنه . وما أظن أن هذه الفائدة تدخل في جملة اضافاته الممتعة .

٤ ــ وجاء في الصفحة ٨٣ حاشية طويلة استهلكت صفحة وشيئا من صفحة عن « ابي سفيان » .

اقول : « الأصل في التعليق والحواشي ان تكون مما يفيد، كان يكون التعريف برجل غير معروف لدى جمهرة القراء ، او ان اسمه من باب المشتبه، او انه عرض له تصحيف فأفسده ؛ وفي هذه الأحوال يكون عمل المحقق من الاعمال الجليلة . أما ان يكون تعريفا بعَلَم من المشاهير، كابي سفيان، فليس هذا مما يفتقر اليه الدارس الطالب للفوائد . واذا كان من تعريف لهذا المشهور، افلا كان من الحق ان يُكتَفى بالقليل، مع ذكر المصادر الضرورية المتقدمة لا المتأخرة ؟ ثم ان الأستاذ المحقق بعد هذه البسطة الطويلة عن « ابي سفيان » ترك المادة غفلا من المصادر .

٥ ــ وجاء في الصفحة ٨٥ حاشية للمحقق عن كلمة « المنافق » ذكر فيها علاقة الاسم بالنافقاء، وهي جحر اليربوع ... ...

ثم اعتمد في قوله هذا على « المنجد » ؛ الم يكن من المفيد أن يرجع الى « لسان العرب » فيجد فيه « اليربوع » و « نافقاءه » ، ثم يجد فيه معنى « المنافق » في القرآن والحديث ، كما يجد فيه انه من المصطلح الاسلامي ؟ وفي مجموع هذا فوائد لغوية وتاريخية .

٦ ــ وجاء في الصفحة ٩٢ في تعليق المحقق على « اليقطين » قوله :

اليقطين واحدته يقطينة وهو كل ما لا ساق له من النبـــــات كالقثّاء ... ...

اقول : أليس من العلم أن يرجع الى « المنجد » في مادة قديمـــة هي « اليقطين » . ومن فوائد المحقق في هذه الكلمة اشارته الى أن القرع المستطيل يسمى في بغداد الآن : « الشجر » ، وفي لبنان نوعان هما الكوسة والقرع .

اقول : وفاته أن يشير الى أن « اليقطين » بهذا اللفظ ما زال معروفا لدى القرويين في جنوب العراق ولا يعرفون غيره من الأسماء.

٧ ــ وجاء في الصفحة ٩٣ قول المصنف :

« كهيأة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش » .

فعلق المحقق بقوله :

الممعوط الذي سقط شعره ؛ وعامة بغداد يكنون عمن اوغل في الشر والحيلة بقولهم : « ذيب أمعط » .

اقول : لا ارى مناسبة كبيرة تستدعي أن يشار الى قولـــة البغداديين ، وان كان غير البغداديين من العراقيين وغيرهم يعرف « الأمعط » .

٨ ــ وجاء في الصفحة ٩٨ قول المصنف :

ولكن أُطْلِهِ بِغِرا ...

وعلق الأستاذ المحقق على كلمة « الغرا » فقال : مادة لاصقة، ما زال هذا اسمها في بغداد .

اقول : ان « الغرا » أو « الغراء » معروف، والاسم نفسه في كثير من بلاد العرب في عصرنا هذا .

٩ ــ وجاء في الصفحة ٩٩ قول المصنف :

قال : حدثنا أبو عبد الله احمد بن أبي دؤاد ....

اقول : ليس في العربية مادة « دأد » ؛ وعلى هذا ليس فيها « دؤاد »، بالهمز، من الأعلام ، والصواب : « دُواد » بالواو .وعرض هذا الوهم لكثير من المحققين والناشرين .

جاء في « الاشتقاق » لابن دريد ص ١٦٨ قوله في الكلام على أبي دواد الشاعر :

واشتقاق « دواد » من الدود ؛ والدوادة والدودة واحد .

اقول : ولم يرد هذا الاشتقاق في « اللسان »؛ فقد جاء فيه في ترجمة « دود » :

قال ابن الأعرابي : الدوادي مأخوذ من الدواد، وهو الخُضْف الذي يخرج من الانسان ، وبه كني أبو دواد الايادي .

وليس شيئا اختلاف الاشتقاق بين ما ورد في كتاب الاشتقاق لابن دريد ، وبين ما ورد في « اللسان » ، ذلك أن الذي يهمنا هو

الاصل الواويّ لا المهموز .

١٠ ــ وجاء في الصفحة ١٠٠ قول المصنف :

« ان قوما ركبوا البحر ... ... فقام رجل من اهل المركب ».

فعلّق المحقق الفاضل على كلمة « المركب » فقال :

المركب واحد المراكب البحرية والبرية . وفي بغداد تعني الكلمة المركب البحري اي السفينة .

اقول : والذي وعيته من أيام الصبا ان « المركب » في العراق للسفينة النهرية كثيرا ، كما هي للسفينة البحرية .

١١ ــ وجاء في الصفحة ١٠٣ قول المصنف :

فجعلت بين يدي نُفّاطة ...

فعلق الأستاذ المحقق على « النفاطة » فقال :

النفط دهن معدني سريع الاحتراق توقد به النار ويُتَداوى به..

اقول : ما اغنانا عن هذه الحاشية المستقاة من « المنجد » الذي ما اظنه « منجدا » في هذه الكلمة .

ثم تحدث الأستاذ المحقق عن التداوي بالنفط،وكيف تُطلَى به الإبل الجُرْب،مستفيدا ذلك من « لسان العرب » . ولم يكتف بهذا بل رجع الى « قانون » ابن سينا ، و « مفردات » ابن البيطار في هـذا الموضوع .

وما اظن ان الامر محتاج الى هذا،لا سيما اذا عرفنا ان«النفط » لم يرد في النص،بل وردت « النفّاطة » وهي سراج يستضاء به .

اقول : كان على الأستاذ المحقق ان يشرح « النفاطة » ويشير

كعادته الى « النفطية »وهي الاسم المتداول في عصرنا ببغداد وغيرها من الحواضر :

ولم يكتف الأستاذ المحقق بهذا بل عرض للنَّفَّاطة وهي من أدوات الحرب؛واشار الى استعمال الرشيد للنفاطة في حربه مع الروم . وزاد فذكر أن « النفاطة »:الموضع الذي يُسْتَخْرَج منه النفط .

اقول : لقد اشرت في « المقدمة » الى جهد المحقق باغناء الكتاب بالفوائد الكثيرة .

١٢ ــ وجاء في الصفحة ١٠٤ قول المصنف :

« ثم انتبهت فاذا انا بمشعل قد اقبل من بعيد » .

فعلق الأستاذ المحقق تعليقا طويلا على كلمة « المشعل »، واستعمال البغداديين للمشاعل،وهيأته وما يوضع فيه من المواد للاشتعال في رءوسه .

اقول : وما اظن هذا الوصف مفيدا لغير العراقي ولا اخص « البغدادي » وحده ؛ وذلك لأنه لا يعرفه ولا يستطيع تصوره . والمشاعل اعمدة يمتد على احد راسيها اعمدة اخرى بهيأة عمودية، فيها رءوس تحشى بالخيش وتشعل بعد غطسها بالنفط،وتستعمل في مواكب التأبين بذكرى مقتل الامام الحسين،عليه السلام،في ايام المحرم العشرة الأولى .

وافاد الأستاذ المحقق أن « المشعل » من أعلام الذكور ؛ ويصفون الجميل الوجه بأنه « مشعل » .

وقد افاض في هذا التعليق فذكر زجلا عاميا فيه كلمة المشاعل،

وهذا كثير لعله يفتقر الى المناسبة وقيمتها . وفي الزجل كلمة « اللالات » ، وهي عامية عراقية لنوع من المصابيح شرحها المحقق شرحا تاما .

١٣ ــ وجاء في الصفحة ١١١ ذكرُ ابي الحجاج مجاهد بن جبر، فعلق الاستاذ المحقق بقوله :

ترجم له صاحب « الخلاصة » ص ٣١٥ ، وصاحب ميزان الاعتدال ٣/٤٣٩ .

اقول : وكان من المفيد أن يشار الى المصادر الاخرى ؛ أما كان من المفيد أن يستأنس بالمصادر التي اثبتها الزركلي في « الاعلام »، وفيها سِيَر « اعلام النبلاء » و « غاية النهاية » و « الارشاد » وغيرها ؟

١٤ ــ وجاء في الصفحة ١١٠ تعليق للمحقق على أبي الاحوص عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، قال فيه :

تُرجِم له صاحب الخلاصة وقال : انه قُتِل ايام الحجاج .

اقول : وفي تاريخ بغداد ١٢ / ٢٩٠ ترجمة مفيدة لأبي الاحوص هذا .

١٥ ــ وجاء في الصفحة ١٦٩ تعليق طويل على « عبد الله بن الزبير » من دون ذكر أي مصدر .

اقول : ولا اريد هذا وحده، ولكني اقول اننا في غنى عن التعليق على الاعلام المشهورة كابن الزبير هذا ، ومثل هذا ما ورد من ترجمة معز الدولة بن بويه صاحب العراق، في الصفحة ٩٤ ، ومثل

هذه التراجم للأعلام المشهور قدر عظيم في « الفرج بعد الشدة » .

١٦ ــ وجاء في الصفحة ١٧٦ تعليق الاستاذ المحقق على قوله تعالى « فان مع العُسر يُسرًا » .

قال الأستاذ المحقق : اليُسر اللين والانقياد ؛ واستشهد بقول الشاعر :

قوم اذا شوَّسوا جَدَّ الشماس بهم ذاتِ العناد وان ياسرتهم يَسروا

ثم قال :

والعسر الضيق والشدة ؛ قال الشاعر :

... ...

اقول : ما اظن ان اليسر والعسر من الكلم اللغوي الذي لا يعرفه القارىء العام بله الخاص . ان الآية الكريمة من الآيات التي يستشهد بها ، وقد ترد في كلام العامة فهي مما يعرفون ويرددون .

١٧ ــ ومثل هذا الشرح للكلم المعروف تعليق المحقق على « البُرَد » وشرحه في الصفحة ١٨٠ وهو مما يعرفه عامة القراء .

اقول : كأن الاستاذ المحقق حين شرح « البُرَد » اراد ان يقول لنا ان « البغداديين يسمونه الحالوب » فاذا اصيب الزرع بالبرد قالوا : تحولب فهو محولب .

وهذه اضافة مفيدة لولا تخصيصها بالبغداديين ، وذلك لأن عامة العراقيين يعرفون هذا .

١٨ ــ وعلق المحقق في الصفحة ١٨٣ على « الجبل » فقال :

اسم شامل لاقليم عراق العجم ... ... (المشترك صقعا

لياقوت ص ٩٥) .

واضاف : ادركت الناس ببغداد وهم اذا ذكروا الجبل فهم يريدون جبل بشت كوه في بلاد ايران ... ...

اقول : وليس من صلة بين اقليم الجبل في كتب البلدان القديمة وبين المتعارف في العراق عن « الجبل » الا من باب « الشيء بالشيء يذكر » !

١٩ ــ وجاء في الصفحة ١٩٠ كلام على الحجاج من زيادات الأستاذ المحقق استوفت ثلاث صفحات،وقد ضُمّت الى مادة الكتاب دون الاشارة الى انها تعليق المحقق .

اقول : وليس هذا مقبولا ؛ والصحيح أن يشار الى ان هذا من كلام الأستاذ المحقق،وهو حاشية وتعليق،لا أن يُضَمّ الى مادة الكتاب .

ثم ان ثلاث الصفحات كثير في حاشية أو تعليق ، وهي تشتمل على اخبار الحجاج وظلمه بداها بقوله :

وبلغ من شنيع سمعة الحجاج وشهرته بالظلم ... ...

اقول : وستأتي حواشٍ اخرى تعليقا على الحجاج يؤلف مجموعها صفحات عدة،وكلها مُقحَم على نص الكتاب من غير اشارة الى انها تعليقات .

٢٠ ــ وجاء في الصفحة ٢٠٣ قول المصنف :

« اتعلّمتَ السِحر ؟ »

فراح الأستاذ المحقق يتحدث عن « السحر » في « لسان

العرب » وفي آي القرآن الكريم ، وما ورد في « الفهرست » لابن النديم في المقالة الثامنة عن المعزمين والمشعبذين والسحرة ... ... ثم قال : انظر دائرة المعارف الاسلامية .

اقول : ما اظن أن كلام المصنف محتاج الى هذا العرض الوافي عن « السحر » .

٢١ ـ وجاء في الصفحة ٢٠٤ كلام طويل مُقحَم على نص الكتاب على « عبد الملك بن مروان » دون اشارة الى أن ذلك تعليق . ثم ان عبد الملك بن مروان من المشاهير الكبار ؛ فهل من حاجة الى هذا التعليق الطويل ؟

٢٢ ـ وجاء في الصفحة ٢٠٥ قول المصنف :

وقد رأيته نُقِشَ ذلك على خاتمه ... ...

فعلق المحقق فقال : الختم في اللغة السد والاغلاق ، وقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم »

ثم صرفت الى نهاية الشيء ، وكقولنا خاتم النبيين .

ثم تكلم المحقق على الطين الذي يُسَدّ به المزود او الكتاب عند الانتهاء منه ، ثم صرفت الى الطبعة .... ثم الى النص الذي يطبع به الطين ؛ ثم ... ثم ...

اقول : ان هذه من الفوائد،وفيها لون حضاري؛ولكن هذا كله يتجاوز التحقيق لنص من النصوص .

٢٣ ـ وجاء في الصفحة ٢١٠ تعليق المحقق على « بنت وردان » فذكر انها دويبّة كريهة الرائحة ... ...

ثم قال : تسمى الآن ببغداد « مردانة » وجمعها « مردان » ثم استشهد ببيت شعر .

اقول : وليس هذا كله من هَمّ المحقق فهو معروف .

٢٤ ــ وجاء في الصفحة ٢١٣ قول المصنف :

« ورجوت أن نعاونه بأموالنا وجاهنا ليُمَشّي أَمْرَه » .

اقول : ومن المفيد أن نعلق على قول المصنف « يمشّي أمره » ، وهو من الأساليب العامية التي ما زلنا نتداولها في لغتنا الدارجة في العراق في الاقل . ولم يشر المحقق الفاضل الى ذلك على شدة اهتمامه بالكلم العامي الذي وصفه بـ « البغدادي » .

٢٥ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« واخذ خطّي بالمال على نجومه » .

وقد علق الاستاذ المحقق بقوله : « نجم الدين : اداه نجوما اي اقساطا في اوقات معينة » .

اقول : ومن المفيد ان يشار الى أنّ هذا من المولّدات العباسية في الاقل ؛ وفي ذلك فائدة تاريخية .

٢٦ ــ وجاء في الصفحة ٢١٥ قول المصنف :

« ورد كتاب عامل مصر » .

وعلق المحقق بقوله : « العامل:الموظف المالي الذي يناط به جمع الارتفاعات وما يقتضي صرفه . »

اقول : وليس في النص ما يدعو الى أن يكون « العامل » بهذه الحدود وهذا الاستعمال،وذلك لأن « العامل » بمعناه المشهور كما

يبدو لي هو الوالي أو الحاكم أو الامير القائم في البلد .

٢٧ — وجاء في الصفحة ٢١٥ قول المصنف :

« ورد كتاب عامل مصر بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملا في مبلغ الحمل والنفقات » .

وقد علق الأستاذ المحقق بقوله :

اي المال الذي يحمله العامل الى الحضرة خالصا بعد سداد النفقات .

اقول : وهذا من فوائد الأستاذ المحقق السنية في عمله المفيد .

٢٨ — وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« فوقّع الى ديواني باخراج العبرة لمصر » .

قال المحقق : العِبرة : ثبت ارتفاعات الكورة « اي الواردات» . وعبرة سائر الارتفاعات :المعدل الوسط بين اعلى الارتفاعات وادناها .

اقول : وهذا من الفوائد الكبيرة في شرح هذه الكلمات الاصطلاحية من الالفاظ العباسية الخاصة . ولكني اتساءل : لِمَ لَمْ يوثّق الأستاذ المحقق هذه الفوائد بعض التوثيق ؟

٢٩ — وجاء في الصفحة ٢١٧ تعليق المصنف على « المتوكل » الخليفة العباسي .

اقول : و « المتوكل » غني عن التعليق،شانه شأن المشاهير؛ واذا كان من تعليق فهو شيء موجز كل الايجاز،لا ثلاث صفحات كاملة من غير مصدر ؛ ثم تضاف الى مادة الكتاب ولا يشعر القارىء

ان الكلام مقحم على النص ، وهو من اضافات المحقق .

٣٠ ــ وجاء في الصفحة ٢٢٠ حاشية المحقق على كلمة « الديوان » ، وأنه في الأصل جريدة الحساب ، ثم ...

والكلام مقتبس من « المنجد » وزاد عليه بما يقرب من صفحتين .

قلت غير مرة أن هذه الاضافة غير ذات قيمة كبيرة لتجاوزها المظان المعتمدة .

٣١ ــ وجاء في الصفحة ٢٢٩ تعليق على كلمة « الدهليز » فقال :

الممر الذي بين باب الدار ووسطها ، ويسمى ببغداد الآن المجاز .

اقول : كان الأستاذ المحقق اراد أن يعرف بالكلمة العراقية المعاصرة .

٣٢ ــ وجاء في الصفحة ٢٤٥ تعليق طويل على « الحُرّ » و « الحُرّة » ، ودلالة الحرية وشرح الأئمة والهجين ونحوهما . وهذا التعليق مضاف الى مادة الكتاب من غير اشارة الى أنه من اضافات المحقق .

٣٣ ــ وجاء في الصفحة ٢٥٢ شرح لكلمة « الطغيان » بأنه الاسراف في الظلم .

اقول : وهل من حاجة الى هذا الشرح ؟

٣٤ ــ وجاء في الصفحة ٢٦٩ حاشية استغرقت صفحة كامل عن « زياد بن ابيه » وقد اضيفت الى مادة الكتاب من غير اشارة الى انها من صنيع المحقق واضافاته .

٣٥ ــ وجاء في الصفحة ٢٨٠قول المصنف :

« محمد بن القاسم ظلمني » .

وقد علق الأستاذ المحقق على ذلك بكلام على «الظلم» استوفى صفحة كاملة ، واضيف الى مادة الكتاب من غير اشعار بانه من كلام المحقق .

اقول : كأن المحقق الفاضل يتصيَّد اقل صلة ليتكلم في مسائل كثيرة تتجاوز العلاقة أو المناسبة،فيذهب بعيدا كل البعد عـــــــن الموضوع .

٣٦ ــ وجاء في الصفحة ٢٨١ قول المصنف :

« لما خرج طاهر بن الحسين الى محاربة علي عيسى بن ماهان، جعل ذات يوم في كُمِّه دراهم » . فعلق المحقق الفاضل على « الكُمّ » تعليقا طويلا ذكر فيه القميص والثوب والجيب و « العُبّ،من العامية العراقية » ، كما ذكر ترنيمة يُتَرَنَّم بها للأطفال لتنويمهم من الشعر العامي من جملة أبياتها :

هَسَّه بِجينا بابَـــهْ شايِل تمر بأعبابَـهْ

وينصرف الأستاذ المحقق الى شرح كلمة « هَسَّه » العاميـــة ، وشرح كلمة « شايِل » ؛ فأين هذا من النص ، وما علاقة « الكُـمّ » بكل هذا ؟

٣٧ ــ وجاء في الصفحة ٢٩٩ حواشي لشرح كلمات هي:البرذون،والسرج، واللجام،والطيلسان،والقميص،والشاشية .

اقول : وليس في هذه المواد ما يدعو الى الشرح والتعليق،فامرها

معروف للخاصة والعامة .

٣٨ ــ وجاءفي الصفحة ٣٠٢ تعليق الأستاذ المحقق على « صاحب البريد » استوفى صفحتين ضُمّتا الى النص دون أن يكون فيهما ما يشعر بأنهما من كلام المحقق لا المصنف .

اقول : وهذا النمط من التعليقات يتجاوز حد التحقيق ؛ ولو رغب المحقق في أن يأتي بهذه الفوائد التي أدركها في قراءاته لكان أولى له أن يفرد لها مصنّفا خاصا يُضمّ فيه هذه النماذج الحضارية والتاريخية واللغوية وغيرها . وان شيئا منها ، من غير شك ، الصق بمادة « الكنايات الشعبية » التي أفرد لها المحقق كتابا وُسِم بـ « الكنايات البغدادية » .

٣٩ ــ وجاء في الصفحة ٣٠٥ تعليق المحقق على كلمة « المال » التي وردت في كلام للمصنف .

لقد أتى المحقق بما ورد في « لسان العرب » عن « المال » ، وما جاء في كتاب « التلخيص » لأبي هلال العسكري عن المال ، ودلالته على الابل والغنم وغيرها من الماشية .

غير أن المحقق لم يكتف بهذا فقال :

اما في بغداد وما يجاورها فان كلمة « المال » تقوم مقام كلمة « الهن » ؛ اي انها كناية عن عضو التناسل سواء عند المرأة والرجل او الحيوان . ثم ذكر قول احد الشعراء العراقيين وزاد قول احد شعراء الحلّة .

اقول : ولا ارى فيّ حاجة ان اذكر قول احد الشعراء العراقيين ولا الشاعر الحلي فأسيء اليهما ، ولكني اقول : انهما كنيا عن

« المتاع » بشيء آخر هو « مال »، وليس « المال »، اجتنابا لذكر السواة .

قلت : « مال » وليس « المال » وأريد بذلك أن « مال » هذه بغير الألف واللام هي شيء ينطوي فيه قولنا : « ماله » و « مالنا » و « مالكم » و « ما لهن » الى آخره ثم اجتُزِئَ من ذلك بلفظ « مال » على طريقة الضم أو النحت والخرم للضمير، فكانت الكلمة « مال » ؛ وهي غير « المال » المعرفة التي تعني ما تعنيه من الدلالة على الابل والغنم وسواهما .

٤٠ ــ وجاء في الصفحة ٣٥٦ قول المصنف :

« أخبرنا ابو الفرج الاصبهاني عن المدائني » .

فعلق المحقق على « المدائني » فقال : نسبة الى « المدائن » ؛ ورَحَل يتكلم على المدائن وفيها ايوان كسرى، وقرب الايوان قبر سلمان الفارسي الملقب بـ « پاك » أي الطاهر ، ومن ذلك « پاكستان » البلاد المعروفة ؛ ثم ذكر كيف يجتمع العراقيون البغداديون في المدائن للنزهة .

أقول : أليس هذا كله من التجاوز على عمل المحقق !

٤١ ــ وجاء في ٣٦١ تعريف بالجاحظ ذَكَرَه المحقق ؟

أقول : ان أبا عثمان اشهر من أن يعرَّف به في حاشية من حواشي كتاب « الفرج بعد الشدة » .

٤٢ ــ وجاء في الصفحة ٣٦٦ كلام طويل اضيف الى النص دون اية اشارة، على جعفر البرمكي . وهذا على شاكلة ما صنع المحقق في جملة اعلام ومواد اخرى .

٤٣ ــ ونختتم الجزء الاول فنرى في الصفحة ٤٠٠ تعليقا طويلا في قسوة الحجاج وظلمه ضُمَّ الى مادة الكتاب .

الجزء الثاني :

٤٤ ــ وجاء في الصفحة ٢٧ قول المصنف :

« فأُحضِرَتْ وشُلِّحَتْ للضرب » .

فعلق الاستاذ المحقق على « التشليح » وقال : انه التعرية ؛ ثم أتى كعادته فأشار الى دلالة التشليح عند البغداديين، وهو « انكشاف العورة » (كذا) ؛ والتعرية عندهم « التصليخ » وهو مصلَّخ اي عارٍ .

اقول : ولا ارى من داع الى هذا الاسهاب في هذا الضرب من الادب العامي .

٤٥ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« فان كانت الرفيعة صحيحة فليس يفوتك عقابه » .

فعلق المحقق بقوله : « الرفيعة ما يُرْفَع على الانسان من التهم » .

اقول : وهذه فائدة جليلة تدخل في باب المُحْدَثات العباسية في اللغة .

٤٦ ــ وجاء في الصفحة٢٨ قول المصنف :

« وجدت المستَحَمَّ ضيقا غير نظيف » .

اقول : لقد اشار المحقق الى ان المراد بـ « المستحم » المرحاض،

وهذا نظير قولهم : بيت الادب، وبيت الراحة، والمستراح، كناية عن بيت « المرحاض » .

٤٧ ــ وجاء في الصفحة ٤٦ قول المصنف :

« والبسني جبة صوف قد نُقِعت بماء الاكارع » .

اقول : وقد علق الاستاذ المحقق في الصفحة ٥٠ تعليقا طويلا على « ماء الاكارع »، واضيف التعليق الى النص كانه جزء منه ، ذكر فيه شيئا عن « الكرع » وجمعه كوارع على لغة المصريين ، وتسمى « الاكلة » في الشام (كذا) وفي لبنان (كذا) وفي بغداد (كذا) وما يتصل بذلك في بغداد المعاصرة .

اقول : وفي هذا بعض الفائدة وان تجاوز حد التحقيق .

٤٨ ــ وجاء في الصفحة ٤٧ قول المصنف :

كتبت الى بعض عمال المشرق بمطالبته باموالـه وودائعه، فكتب الي بالطاطة، فكتبت اليه بان يُغَلّ . . .

اقول : ولم يعلق المحقق على قوله : بالطاطة . والإلطاط الستر والاخفاء، فكانه اراد ان يقول : انه انكر الاموال والودائع .

٤٩ ــ وجاء في الصفحة ٤٨ قول المصنف :

« ولم يبرح حتى امروا باخذ حديدي وادخالي الحمام وأُخْذِ شعري » .

اقول : اردت ان انبه على قوله « اخذ شعري » وهذا من معاني الاخذ التي جُدَّت ، والمراد به قص الشعر .

٥٠ ــ وجاء في الصفحة ٥٣ « دار مؤنس »، وهو مؤنس المظفر، من القواد

الاتراك في الدولة العباسية .

لقد علق الاستاذ المحقق على « دار مؤنس » تعليقا استوفى صفحتين ضمهماالى نص الكتاب من غير اشارة الى صنيعه هذا . كما اشار الى موقع الدار المذكورة واين مكانها في بغداد الحديثة ، وهو سوق « اليمنجية » . ثم تكلم على ما يسمى في العراق الآن « يمني » وهو ضرب من الاحذية خاص لونه أحمر وله مقدم متجه الى الاعلى ؛ ولا ادري لم سمي « يمني »،ذلك اننا لا نعرف انه مستورد من اليمن مثلا ، أو أن جِلْدَه من اليمن !

اقول : الا ترى معي،ايها القارىء ، أن المحقق قد ابتعد في هذا الاستطراد عن مادته ؟

٥١ ــ وجاء في الصفحة ٦٤ قول المصنف :

« فمن اين انفق الاموال واقيم الانزال » .

اقول : الأُنزال جمع « نُزُل » بفتحتين وهو الارزاق والاعطية . وهذا من مولَّدات العصر العباسي .

٥٢ ــ وجاء في الصفحة ٨٠ قول المصنف :

« وخرج وصرف التوكيل عني » .

لقد اشار الاستاذ المحقق الى التوكيل وافاد انه مصطلح عباسي يراد به حجز الحرية ؛ فيقال : وكِّل به اذا نصب عليه حارسا يحول بينه وبين الفرار .

٥٣ ــ وجاء في الصفحة ٨١ قول المصنف :

« .... الى أن ازيح علة قائد يصحبك الى الرملة » .

وقد علق الأستاذ المحقق على « ازاحة العلة » قائلا : انـــه مصطلح عباسي يعني القيام بجميع ما يحتاج اليه من يراد ازاحـــة علته ، فالجيش مثلا يعتبر « مُزَاحَ العلّة » اذا كان أفراده قد أُعطُوا أرزاقهم وسُدَّت نفقاتهم ... ...

أقول : وهذا من المواد المفيدة،ذلك أنها تكشف عن العربيـــة الخاصة وكيف جدّ فيها من مقتضيات العصر ما أضاف اليها كَلِمـــًا فنيا .

٥٤ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات » .

« الارتفاع » كما يُستَقرَى من مادة الكتاب هو « الوارد » في لغتنا المعاصرة ؛ وقد أشار الأستاذ المحقق الى ذلك .

٥٥ ــ وجاء في الصفحة ٨٣ تعليق طويل على « الفرش » ، ذكر فيه الأستاذ المحقق أنواع المفروشات قديما وحديثا،كالطنافس والزرابي وما هو معروف منه في العراق في عصرنا بأسمائه المحلية الدارجة .

٥٦ ــ وجاء في الصفحة ٨٦ قول الأستاذ المحقق على كلمة « ايش » فقال:

هي « أي شيء » اختصرها البغداديون الى « ايش » .

أقول : ان « ايش » بمعنى « أي شيء » قديمة،وقد وردت في تاريخ الطبري في أخبار قديمة تسبق تمصير بغداد . وقد أشـــار الحريري في « درة الغواص » الى أنها عامية ؛ وكذلك فعل الخفاجي في « شفاء الغليل »،ولم يخصص أي منهما أنها بغدادية .

٥٧ ــ وجاء في الصفحة ٨٨ قول المصنف :

« ... فدقّ الباب فكلّمه من خَوخة » .

وقد علق الأستاذ المحقق على كلمة « خوخة » فقال :

الخوخة الباب الصغير يفتح في الباب الكبير .

اقول : قد تكون « الخوخة » بهذا المعنى وان كان الدليل غير واضح من النص ؛ ولكني اعرف الخوخة في كتب اللغة : انها كوة في البيت تؤدي اليه الضوء .

٥٨ ــ وجاء في الصفحة ٩٠ قول المصنف :

« ... فارمي اليه من رُوْزَنة لي ... » .

وقد علق الأستاذ المحقق على كلمة « روزنة » فقال : هي الرازونة عند البغداديين ، وهي روشن ... يريدون به تجويفا غير نافذ توضع فيه الحاجيات .

اقول : والصواب توضع فيه الحاجات؛وليس في العربية الفصيحة « حاجيات »،على شيوعها في اللغة المعاصرة .

٥٩ ــ وجاء في الصفحة ٩٩ قول المصنف :

« ... وينشوان في دولتك ... » .

وقد علق الأستاذ المحقق على الفعل « ينشوان » فقال : انها لغة بغدادية،وقد درج البغداديون منذ القديم وما زالوا الى الآن على حذف الهمزة اذا كانت في آخر الكلمة ، وابدالها واوا أو ياء اذا كانت في وسطها ...

وقد مثل لذلك فجاء بـ : رياسة، وجيسة وصايم ... وحسن النشوة .

أقول : لقد قلت في حذف الهمزة الاخيرة وجوازها لغة وضرورة في العربية الفصيحة ، كما قلت في تسهيل الهمزة الى الواو والياء والالف .

ولكني أقول الآن واضيف : انه ربما كانت الكلمة « ينشوان » في نص الكتاب عامية بغدادية او غير بغدادية لأن ذلك امر شائع ، بل أقول : ان في العربية الفصيحة « ينشوان » ايضا .

جاء في كتب اللغة :

نشوت في بني فلان : ربيت ، نادر ؛ وهو محوّل من « نشأت »

وقال قطرب : نشا ينشو لغة في نشأ ينشأ ، وليس عنده على التحويل .

٦٠ ــ وجاء في ١٠٢ تعليق طويل استوفى صفحتين اضيف الى مادة الكتاب من غير اشارة ، على عبيد الله بن زياد .

٦١ ــ وجاء في الصفحة ١٤٦ كلام طويل على سياسة الحجاج المخربة ، استوفى ثلاث صفحات وضُمّ الى الكتاب .

٦٢ ــ وجاء في الصفحة ١٤٩ قول المصنف :

« ... حدثني ابو علي الوكيل على ابواب القضاة ببغداد » .

اشار المحقق الى ان الوكيل هو المحامي في مصطلح هذا العصر .

٦٣ ــ وجاء في الصفحة ١٦٠ قول المصنف :

« ... وقعت على سترة الحجاج ... » .

وقد علق الأستاذ المحقق على كلمة « سترة » وأفاد أنها ما استمر من الجدار الخارجي الى فوق سطح الدار ، وهو ما يسمى الآن « ستارة » في بغداد ؛ وأشار الى حادثة معاصرة استُعمِل فيها طابوق الستار في خصومة بين طرفين ، سلاحا يتراشقون به .

٦٤ ــ وجاء في الصفحة ١٦٨ قول المصنف :

... وشاع في اليمن ... » .

وانطلق الأستاذ المحقق يتكلم على اليمن والشآم واليمين والشمال كلاما طويلا .

٦٥ ــ وجاء في الصفحة ١٨٣ ذكر « الكوز » ، فراح الأستاذ المحقق يشرح الكوز والكيزان وأنواعها ، وما استجدّ من صناعتها ، وقد أضيف كلّه الى مادة الكتاب .

ومثل هذه التعليقات الطويلة تعليق على السُّكُر ، وآخر على النبيذ ، وآخر عن يزيد بن معاوية .

٦٦ ــ وجاء في الصفحة ٣٢٣ ذكر « المسبحة » ، فأطال الأستاذ المحقق في الكلام عليها ، وان في مدينة الحلة في العراق تصنع «مسبحة الباقلاء» وليس هذا الا من باب ما يتندر به على أهل الحلة لشغفهم بالباقلاء زراعة وأكلاً لها .

الجزء الثالث :

٦٧ ــ وجاء في الصفحة١٠٧ تعليق على « الحمار » استوفى عشر صفحات . كما ورد تعليق طويل على البرامكة .

٦٨ ــ وجاء في الصفحة ٣٦٤ تعليق على مادة العذاب استوفى أربع

صفحات .

كلمة ختام :

لقد اشرت الى هذه المسائل،ولكني اعترف ان اخراج الكتـــاب وتحقيقه حظي بالعناية الكبيرة،فجاء مصدرا يُعْتَمد عليـــــه في ضبط النص واحكامه مع الفوائد التي وشّي بها .

الدكتور ابرهيم السامرائي

●✱✱●

تعليقات
و
مُناقشَات

مناقشة رأي في علامة التأنيث

بقلم : محمد شيت صالح الحياوي

في مجلة (المورد) الشامخة ــ المجلد التاسع ، العدد الأول ــ مقال جليل جاء بالعنوان الآتي : ــ

ــ ديوان الادب لاسحاق بن ابرهيم الفارابي ــ الجزء الأول ، تحقيق د. أحمد مختار عمر ، القاهرة ٧٤

ــ بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ــ

والحقيقة أن كاتب المقال قدحالفه التوفيق،وأجاد في نقده وتعليقه أيما اجادة ؛ ولا عجب فهو بحاثة مشهور ومحقق بارع، ضرب بسهم وافر في مجالي الادب واللغة فيما قَدَّم من بحوث ، وما أنتج من مؤلفات تشهدبطول باعه وسعة اطلاعه . ومع ذلك فالكمال لله ، ولن ينجو كاتب من زلل ، ولا سيما في معرض الاجتهاد ؛ وهذا ما حصل في المقال آنف الذكر ــ برأيي الذي قد أكون مصيبا فيه وقد أكون مخطئا ، والقول الفصل أولا وآخرا للعلم والتفكير السليم ــ

يقول الكاتب ص ٤١٦ ما نصه:(وعندي أن علامة التأنيث واحدة في العربية، هي هاء التأنيث ،كما في (حجرة وفاطمة) التي تتحول تاء في درج الكلام . واذا عرفنا أن علامة التأنيث هذه ، أي الهاء ، تقتضي أن يكون قبلهافتح ، وعلى هذا يكون الفتح العلامة الأصيلة للتأنيث ، وهي نفسها

الف التانيث المقصورة في (ليلى وسلمى) وهي نفسها الالف المدودة في (صحراء وحسناء) ؛ وما الفتح القصير كالفتحة ، والفتح المتوسط كالالف المقصورة ، والفتح الطويل كالالف المدودة ، الا صوت واحد يختلف في فسحة طوله).ويقول ايضا في الحاشية (وهذا الفتح هو علامة التانيث ، ولان الفتحة لا ترسم في الخط العربي ، ذيّلت الكلمة بهاء لتقرأ مفتوحة الآخر قبل الهاء ، ثم رسم الفتح فكان الالف المقصورة والالف المدودة . ولو عرفت ان (ليلة وليلى وليلاء)مادة واحدة ، أدركت أن علامة التانيث واحدة فيها جميعا ، وهي الفتح بصورة الثلاثة) .

فمحوى اجتهاده ما هو آت : ــ

اولا ــ علامة التانيث واحدةفي العربية هي هاء التانيث ، كما في (حجرة وفاطمة) التي تتحول تاء في درج الكلام .

ثانيا ــ هاء التانيث لا تاتي الا بعد حرف مفتوح .

ثالثا ــ الفتح هو العلامة الأصيلة للتانيث .

رابعا ــ الفتحة لا ترسم في الخط العربي ، ولذلك ذُيّلت الكلمة بهاء ليقرا ما قبلها مفتوحا .

خامسا ــ حينما رسم الفتح استغنى عن الهاء،وتطورت الفتحة واستطالت فصارت الفا مقصورة،كما في (ليلى وسلمى) ثم الفا ممدودة كما في (صحراء وحسناء) .

سادسا ــ بما أن فتحة الحرف الثالث مشتركة في الكلمات الثلاث (ليلة ، ليلى ، ليلاء) وهن مادة واحدة ، لذلك فالفتحة وحدها هي علامة التانيث لا غيرها .

لذلك كله نرجو أن يسمح لنا بمناقشة اقواله وآرائه،عسى أن نتوصل

الى نتيجة حاسمة .

أولا ـــ سمى التاء المربوطة هاء التأنيث ، لاننا حين نقف عليها نلفظها هاء . وفاته أن الأصل هو الدرج لا الوقف ، كما أن من العرب من يقف عليها ويلفظها تاء. فهي تاء أقوى من هاء ، والتسمية للأقوى ، وشتان بين المَخْرَجَين ، فالهاء حلقية والتاء نطقية .

ثانيا ـــ لا يُشْتَرَط أن يكون ما قبل التاء المربوطة حرفا مفتوحا، فقد يكون ألفا ، والألف لا يكون الا ساكنا ، مثل (فتاة وقضاة) .

ثالثا ـــ ذكر أن الفتح هو العلامة الأصلية للتأنيث ، كما ذكر ان الهاء وحدها هي علامة التأنيث . أفلا يتناقض القولان ؟ أم يريد أن يقول: ان للتأنيث علامتين اثنتين واحدة اساسية هي الفتحة،والأخرى فرعية هي الهاء ؛ فلم يحسن التوضيح !

رابعا ـــ التاء كما سميناها،أو الهاء كما سماها،زائدة على رأيه،جيء بها لاظهار الفتح الذي قبلها لأنه غير مرسوم،وليس لها غرض آخر أو فائدة أخرى.وهو رأي ضعيف على ما أظن لا يتناسب مع دقة ملاحظات الكاتب فيمايحلل ويدقق ؛ فقد شرح اللغويون هذه التاء وبيّنوا اغراضها المختلفة في مواضعهاالمتعددة ؛ ولا حاجة لتسطير ما وضحوا وبيان ما قرروا .

واني ـــ بتواضع ـــ اجازف ولا اسمي التاء المربوطة هاء كما سماها فحسب،بل لا اعتبرها علامة تأنيث ! . فبعد أن فحصتُ مواضعها وحلّلتُ اغراضها،تبيّن لي أنها تعطي معنى واحدا يشترك فيه جميع الأمثلة المختومة بها ، وهذا المعنى المشترك هو ما نسميه (الوحدة !).

ومعنى الوحدة هو الذي يجعلنا نعامل الكلمة معاملة المؤنث،سواء اكان مجازيا أم حقيقيا أو مذكرا أو جمعا كماسنرى . والوحدة جزئية أو

نسخة أو مجموعة قد تمثل عدداً رقمه واحد،كما قد تمثل عدداً يزيد على اثنين . وهاكم أمثلتها مع الشرح : —

شَرْبَة : وحدة من الشرب

شِرْبَة : وحدة لهيئة الشرب

تمرة : وحدة من ثمر التمر

صخرة : وحدة من جماد الصخر

بطّة : وحدة من الطير المسمى بَطًّا

طلحة : وحدة من شجر الطلح

فأرة : وحدة من الفئران ، أما الفار فليس بوحدة بل فردا من الفئران، وهكذا جاء تانيث فأرة من الوحدة لا من الفأر،الذي بدوره جاء تذكيره من الجمع أيضا !

حليمة : وحدة من الحلم،متصفة به ؛ أما حليم فليس بوحدة بل فردا من الحلم متصفًا به .

رحالة : وحدة من الرحل متصفة به قوية .

قضاة : وحدة (مجموعة) من معنى القضاء .

عباقرة ، عبادلة ، مغاربة : وحدة (مجموعة) من العبقرية،وعبد الله، واهل المغرب على التوالي .

حُجرة : وحدة من معنى الحَجْر (بفتح الحاء وسكون الجيم)

تذكرة : وحدة من معنى التذكير

خِبرة : وحدة من معنى الخبر .

نُسخة : وحدة من معنى النسخ .

مسابقة : وحدة من معنى السباق .

هِبة : وحدة من معنى الوهب .

بِنية : وحدة من معنى البناء أو البنيان .

اعانة : وحدة من المعنى المستفاد من أعان ــ يعين .

استقامة : وحدة من المعنى المستفاد من استقام ــ يستقيم . فاذا اردناها لمرة واحدة،اي ليس وحدة أو نسخة مكررة،قلنا استقامة واحدة !

لغة : وحدة من معنى اللغو . . . الخ التاءات المربوطات .

ونستفيد من هذه الأمثلة ما يأتي : ــ

ا ــ لو كانت الكلمة المختومة بالتاء المربوطة مؤنثة،وكانت التاء علامة التأنيث،لجاز حذف التاء وتحولت الكلمة الى مذكر.وهذا لم يحصل الا مصادفة في فأرة ــ فأر ، فتاة ــ فتى ، كلبة ــ كلب وأمثالها،وقد شرحنا ذلك .

ب ــ لو كانت مؤنثة لما نُقل معناها الى مذكر،مثل طلحة حمزة معاوية . . . الخ

ج ــ لو كانت مؤنثة لما دلت على جمع مذكر مثل قضاة عباقرة . . . الخ

فالمؤنث إذاً ما دلّ على التأنيث في الوضع والمعنى المعجمي،أو في الصيغة،سواءأكان مختوما بالتاء او بالالف أو لم يكن مختوما بهما .

خامسا ــ اما الالف المقصورة والالف الممدودة فليستا وحدهما علامتي تأنيث،لان التأنيث سواء أكان حقيقيا أم اعتباريا مفهوم بالصيغة،ففي سلمى وعطشى وفضلى جاء التأنيث من وزني فَعْلى وفُعْلى بفتح الحرف الأول أو ضمه وسكون ثانيهما ووقوع الالف في رابعهما .

وفي صحراء وحسناء وحمراء جاء التأنيث من وزن فَعْلاء بفتح فسكون

مع الالف والهمزة وفي كلا النوعين نجدالفتحة قبل الالف كما نجدها قبلـــه حيثما جاء . ولو حذفنا الالف،او الالف والهمزة،لم يكن لما تبقّى من الكلمـــة اي معنى ؛ ولذلك فالالف ليست وحدها علامة تأنيث لانها امتداد للفتحـــة ذو صيغة لا علاقة لها بصيغة المؤنث؛مثل افضل مذكر فُضلى واحمر مذكر حمراء .

ومن الظريف أن كلمة عطشى،مثلا،التي زعم الكاتب أن الفهاء دال على انوثتها،اذا أضيفت اليها نون فصارت (عطشان) تحولت الى مذكر، فكيف صارت الكلمة الجديدة مذكرا مع أن علامة التأنيث (الالف) على زعمه باقية ايضا ؟!

سادسا ـــ بقي اشتراك الكلمات الثلاث (ليلة ليلى ليلاء) في المادة وفي فتحة الحرف الثالث ـــ وقد تكلمنا عن الفتحة ما فيه الكفاية ـــ . اما المادة فلو كانت علامة التأنيث واحدة في الكلمات الثلاث وهي الفتحة ـــ على رأيه ـــ لكان المعنى واحدا لا ثلاثة معان .

فليلة ليست مؤنث ليل،لأن الليل نفسه جنسان:تارة يكون مذكـــرا وتارة يكون مؤنثا،ولذلك لا يحتاج الى مؤنث.بل معنى (ليلة) المختومة بالتاء وحدة من وحدات (الليل) كما مثّلنا وشرحنا .

واما ليلى ، وهي كوكب الزهرة عند العوام،لا الخمر ، فمعناها ـــ على ما اتصور ـــ ذات الليل أو ربة الليل،لانها اشد الكواكب السيارة ضياء.

واما ليلاء من الليالي فهي الفريدة أوالمتميزة في أمر ما كالطـــول أو الظلام أو غيرهما .

وبعد فاني أرى التاء المبسوطة الزائدة التي تأتي مع الفعل أو الاسم

هي علامة تأنيث، كما في: ذهبت، ورجعت، والتلميذة تذهب وترجع، وكما في التلميذات مذهبات؛ حيث التاء تدل على التأنيث، والالف يدل على الجمع، ولا يمكن فصلهما ولا بد أن يأتيا مجتمعين .

قضية أخيرة أذكرها لعلي أكون مصيبا فيها وهي على عكس ما ارتأى الكاتب ، فان كانت الفتحة عنده علامة تأنيث ـ وقد فَنَّدنا رأيه ـ فان الكسرة عندي قد تكون من علامات التأنيث؛ والدليل ورودها في كثير من مواضع التأنيث مثل: انتِ، ذهبتِ، تذهبين، لن تذهبي، عندكِ، كتابكِ، هذي، هذه، ذه، هاته، ته، تلك، التي، اللاتي، حذامِ، قطامِ، يا لكاعِ، ويا خباثِ . عالماتٍ كاتباتٍ (في حالتي الجر والنصب) ... الخ .

خلاصة بحثنا كما يلي : ـ

(١) التاء المربوطة لا الهاء تأتي لأغراض مختلفة، وتتفق معانيها جميعا في معنى واحد مشترك هو (الوحدة) فهي علامة على الوحدة أصلا لا على التأنيث .

(٢) الالف المقصورة والالف الممدودة اذا وجدت احداهما في كلمة، وكانت تلك الكلمة مؤنثة، كان التأنيث بالصيغة والوضع وليس بوجود الالف .

(٣) علامة التأنيث هي التاء المبسوطة الزائدة مع الفعل أو الاسم .

(٤) قد تكون الكسرة علامة تأنيث .

محمد شيت صالح الحياوي

حول كتاب مبادىء التحليل الرياضي

تاليف الدكتور عبد المجيد نصير ـ جامعة اليرموك

بالأمس تلقيت نسخة من هذا الكتاب ؛ واشهد لقد غمرتني بفيض من مشاعر الرضى التي قلّما يجود بها الزمان في هذه الأيام . ذلك أن الدكتور نصير يقدم لكتابه بقوله ان « المكتبة العربية بحاجة الى مثل هذا الكتاب ليساهم في تنفيذ عملية التعريب الجامعي التي نحرص جميعا عليها» .

ولقد بعث لي الزميل المؤلف بكلمة فحواها أن كتابه انما هو أول الغيث الذي سينهمر ، دفعا بعملية التعريب ، ولكن لا بالترجمة وحدها ، بل أيضا بالتاليف . ومثل هذا الاتجاه لمحته لدى أساتذة في كلية العلوم في الجامعة الأردنية .

وجوابا عن ذلك أقول ، من أعماق القلب : الحمد لله ، الحمد لله أن قد انضم الى العاملين في التعريب دم جديد . ان الكرة التي قذف بها مجمع اللغة العربية في مضمار التعليم الجامعي لم تطوِّحها الريح ، ولقد اعطتها جامعة اليرموك الفتية ، ممثّلة بالدكتور عبد المجيد نصير ، دفعة جديدة، وامدتها بدفق من الحيوية والطاقة ؛ فهي تدور وستدور ؛ والدعوة الصادقة لم تذهب كصيحة في واد .

الحمد لله ، واهلا بالأستاذ نصير وزملائه فتية مؤمنة واثقة تصنع الرجال .

ويقيناً ، مذ شرع مجمع اللغة العربية بترجمة الكتب العلمية

الجامعية ، كان نصب عينه أن هذا الذي يصنعه انما هو في اطار مشروع أوسع ؛ ذلك هو ترجمة الفكر العلمي العالمي الى العربية ، وهذا مسار طويل عريض ، بطول المستقبل وعرضه ، وهو دائم ما دام هنالك فكر ينتج ونتاج يُكْتَب . ولكنّا نرى أن الحاجة تفرض علينا أن نعطي الأولوية فيما نترجم الى ما يفيد الشباب في مرحلة تكوّنه ؛ اعني الكتب التدريسية الجامعية على الأخص ، لتكون نواة تعين الطالب والمدرس ،ولا سيما في المراحل الأولى من تعريب التعليم . ولم يغرب عن بالنا لحظة أن ترجمة هذه الكتب سيتلوها ، عاجلا أو آجلا ، تأليف كتب فيها من أصالتنا وابتكارنا ، ومن خبراتنا المتزايدة ما يجعلها تنبثق من واقعنا ، وتتلاءم مع طبيعتنا ، وترتفع بهذا الواقع والطبيعة الى رحاب حضارية أسمى ، اذ تعمل على مسايرة أحدث الكتب التي تنتجها مطابع العالم وتمضي معها في مستوى واحد .

فعملية الترجمة وعملية التأليف ترفد احداهما الأخرى وتسندها ، وكلاهما جهد لا ينتهي ومعين لا ينضب . وهاهو الدكتور عبد المجيد نصير واخوانه يمضون في سبيل التأليف على بركة الله ، في حين يمضي المجمع في سبيل الترجمة ، ترجمة الفكر العلمي والكتب التعليمية ؛ وعلى الله التوفيق . على أنا جميعا مطالبون الآن بالتخطيط لرفع مستوى اللغة الانكليزية لدى طلبة العلوم كي نضمن الا يخسر الطلبة شيئا ، لا في حاضرهم ولا في مستقبلهم .

واذ يمضي الزملاء في سبيل التأليف ، بعد ان خاضوا تجربة بها تميزت كلياتنا العلمية ، هي تجربة تصيد أحدث ما تصدره المطابع وانسبها ، ليضعوه بين أيدي طلابهم ، كي يبقوا واياهم مسايرين للتطور العلمي السريع ، فلن يكونوا في عهد التأليف أقل مسايرة للتطور ، أو أقل تفتحا

على كتب الغرب او تصيدا لها . ان التطور العلمي ، من ناحية ، وتنافس دور النشر الاميركية ، من ناحية اخرى ، جعلت كل كتاب علمي جامعي قصير الأجل ، لا يعمر اكثر من خمس سنوات ، في غضونها يجدد ليلحق الركب ، او يلقى في زاوية النسيان . وهذا ما ينبغي أن يكون عليه شأن الكتب التي نؤلفها . فلن يكون تأليف الكتب العلمية احتكارا يدعو الى التحجر ، بل سيكون تداعيا الى التطوير فيه يتنافس المتنافسون ، أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

يبقى الآن الحديث عن كتاب الدكتور نصير بالذات :

يقول الأستاذ في مقدمته انه اختار الأرقام المغربية « انسجاما مع توصيات لجنة خاصة من المجمع اللغوي في الأردن » . فاليه أقول مؤكدا أن المجمع لم يوص بشيء في هذا الصدد ، بل هو لم يتصد اصلا لدراسة أمر الأرقام ، لا على صعيد المجلس ، ولا على صعيد اللجان . وكل ما في الأمر مما يتعلق بموضوع الأرقام ، انني ، شخصيا ، نشرت في مجلة المجمع مقالة دعوت فيها الى استعمال المجموعتين المشرقية والمغربية ، كلا في ميدان تخصص له . واشهد أن من زملائي في عضوية المجمع من خالفني الراي .

ولقد دعوت ، وما زلت أدعو ، الى استعمال المجموعتين ، كلا في مجال ، لأني أرى أنها مجرد رموز معروفة لدى الكاتب والقراء ، وان للكاتب أن يستعملها بلا تحرج ، لأن الامتناع عن استعمال رمز يرى فيه مزايا تجعله ينقل افكاره الى قرائه على نحو أوضح ، انما هو خضوع لحساسيات أولى بالعالم أن يعلو فوقها .

وكل ما في الأمر مما يتعلق بالمجمع — من بعيد — أن لجنة الترجمة والتعريب والنشر ، التي عنها انبثق المجمع ، درست في الماضي أمر هاتين

المجموعتين دراسة لم تفض الى توصية . ثم ان الجامعة الأردنية انتدبت لجنة لدراسة الأمر عينه ، برئاسة الاستاذ الكبير الدكتور عبد العزيز الدوري ، وقد كنت من أعضاء هذه اللجنة ، ولقد حاولت ان أحصل على توصية باباحة استعمال المجموعتين ، كلا في مجال ، فلم توافق اللجنة . ثم ان الأستاذ الدوري كتب بلباقته ودقته المعهودتين ، تقريرا لخص فيه الآراء ، ولم يوص بشيء .

وأضيف انني التقيت في بغداد باخوان كرام عاتبوني ، بالأدب العراقي الجم ، والبيان العراقي المشهود ، اذ أدعو الى مثل هذا التغيير في وقت نحن نعاني فيه من عقدة الهزيمة . فليدع الأستاذ نصير ربه أن تزول هذه العقدة قبل ان يخرج كتابه خارج الأردن ، والا فليتحمل ، جمل المحامل ، وحده تبعة ما ضيع .

لست أعني أني لا أقر المؤلف على تغيير يراه نحو الأفضل بحجة ان الناس لا يستحسنونه ، ولكني لا أرضى له ، وهو المعروف بشجاعته ، ان يتوارى خلف غيره . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا تقنعني حجته بأنه اختار هذا السبيل لأنه يريد لكتابه أن ينتشر في العالم الواسع ، فان الذين يستعملون الأرقام المشرقية في العالم العربي اكثر من الذين يستعملون الأرقام المغربية .

اني أوافق الدكتور نصير على أن المجموعة المغربية أنسب للاعمال الرياضية والعلمية عامة ، والعملية أيضا ، من المجموعة المشرقية ، وكنت أتمنى لو جاءت هذه الخطوة في مرحلة مبكرة ، كبدء المرحلة الثانوية مثلا .

ولكن اذا كان مجرد استبدال أرقام بأرقام ، ومجرد استعمال الأرقام المغربية الى جنب المشرقية ، كلا في مجال يخصه ، ما يزال يلقى معارضة،

فما بالك بنقل الجداول تصويرا عن الأصل الانكليزي ، عناوين وترتيبا ورموزا !

اني أخشى على صديقي الدكتور نصير أن يتهم بصدد هذه الجداول بالدعوة الى التغريب لا الى التعريب .

/ ولقد أحسن الدكتور نصير اذ جعل محاولته الأولى في الطباعة تصويرا عن الآلة الكاتبة كيما يبقى المجال مفتوحا للتعديل حسبما تملي التجربة ويقتضي الاستعمال . وفي هذا ما يفوت علينا فرصة محاسبته على شكليات كثيرة فرضتها قيود الآلة الكاتبة . وانا على يقين من أنه سيتلافاها في الطباعة .

فاذا تجاوزنا الشكليات ونظرنا في المضمون مثل امامنا سؤال جوهري: ما المقرر الذي يستوفيه هذا الكتاب ؟ واذ نفتقد المقرر نفترض أن المؤلف قد وضع كتابه ليكون ، كله أو أكثره ، كما جاء في المقدمة ، وافيا بمقرر مساقين أوليين في الرياضيات لطلبة الاقتصاد والادارة والتجارة .

فاذا حاسبناه على أساس من هذا الفرض نحكم بأن الكتاب يناسب طلاب القسم العلمي لأن أكثره انما هو مراجعة لما سبق أن درسوه في المرحلة الثانوية .

وأما طلاب القسم الأدبي فلهم الله . هاهنا ، كشأني في مناسبات أخرى ، أجدني أتوجه الى صديقي عبد المجيد بكلمتين لطيفتين : « رفقا بالقوارير ! » والقوارير هنا هم الطلاب من غير المتخصصين بالرياضيات او المؤهلين للتخصص بها .

تبقى كلمة واحدة أقولها الى الدكتور في هذه العجالة :

اني أوافق على أن الرمز « لن » خير من « لط » الذي لا يستسيغه

الذوق العربي . واعترف بأني أنا وحدي المسؤول عن هذا الرمز القبيح . ولكن لو سأل طالب انكليزي معلمه : من أين جاء الرمز (Ln)؟لأجاب المعلم انه مختصر عن الاصطلاح (Logarithm natural) . واذا سأل طالب عربي معلمه : من أين جاء الرمز (لط) أجاب المعلم أنه مختصر عن الاصطلاح (لوغرتم طبيعي) ؟ فماذا يجيب المعلم اذا سئل : من أين جاء الرمز (لن) ؟

يبدو لي في هذه اللحظة أن « لهـ » خير من « لن » باعتباره اللوغرتم للاساس هـ . وأحب أن تبقى الهاء هنا بمثل شكلها في أول الكلمة لتذكر القارىء بأنها رمز متميز .

الدكتور أحمد سعيدان

(عضو مجمع اللغة العربية الأردني)

الـــدورة الخامسة

للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب

شارك الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس المجمع ، في الـــــدورة الخامسة التي عقدتها اللّجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب في الرباط من ١٠ الى ١٥ /١٠/١٩٨٠ . وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافـــة والعلوم قد انتخبت الدكتور خليفة عضوا في هذه اللجنة .

وانتخب الدكتور عبد الكريم خليفة رئيسا للجنة الاستشاريـــــة ،

وتضمن جدول أعمال الدورة أمورا متعددة ، من أهمها ما يلي :

انتخاب رئيس اللجنة ونائب رئيسها ،

والنظر في تقرير مدير المكتب الدائم لتنسيق التعريب عن انجازات المكتب ،

والنظر في برامج المكتب وخططه من خلال الموازنة المقترحة للـــدورة المالية ١٩٨٠ / ١٩٨١ ،

والاعداد لمؤتمر التعريب الرابع ، ومن ضمن ذلك عقد ندوة للخبراء المتخصصين ، وندوة أخرى لمنهجية وضع المصطلح الموحد .

وكذلك نظرت اللجنة في المشاريع المعجمية التي ستعرض على مؤتمر التعريب الرابع .

توصيات الدورة الخامسة

للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب

في ما يلي ننشر التوصيات التي صدرت عن الدورة الخامسة للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب ، التي عقدت في الرباط من ١٠ الى ١٩٨٠/١٠/١٥ :

١ ــ زيادة عدد المطبوع من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الى خمسمئة وسبعة آلاف نسخة نظرا للاقبال عليها وللتوسع في توزيعها ، ومواصلة الجهود الرامية الى اخراج المجلة اخراجا سليما خاليا من الاخطاء اللغوية والمطبعية .

٢ ــ اعطاء الأولوية للمكتبات العامة والجامعات والمؤسسات العلمية واللغوية في توزيع مجلة (اللسان العربي) ومطبوعات المكتب ثم الخبراء المختصين .

٣ ــ توطيد العلاقات بين الاساتذة المختصين في مجالات العلوم المختلفة والمنظمات العلمية والمؤسسات اللغوية في الوطن العربي وخارجه وعقد ندوات متخصصة والعمل على أن تساعد الجامعات والمؤسسات العلمية في استضافة هذه اللقاءات والاجتماعات .

٤ ــ حث المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على مواصلة القيام بدراسة احصائية للكفايات العربية ولا سيما المهاجر منها والاستفادة منها في المجال العلمي والتعريب .

٥ ــ عدم الاقتصار على الانكليزية والفرنسية وحدهما في معاجم المكتب ، وادخال لغات معاصرة أخرى .

٦ ــ توثيق اتصال المكتب بلجان التعريب التي شكلت في الدول والجامعات العربية .

٧ ــ اضافة اللسانيات (علوم اللسان) ، وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا، والاقتصاد ، والاعلام ، والآثار ، والفلك والفنون كالموسيقى والرسم الى المشروعات المقدمة من المكتب لعرضها على مؤتمر التعريب الخامس ، مع الاسترشاد بتوصيات مؤتمر التعريب الرابع والمؤتمرات السابقة بهذا الخصوص .

٨ ــ عقد ندوتين للخبراء العرب تمهيدا لمؤتمر التعريب الخامس ، احداهما حول استكمال المشروعات المعجمية الخاصة بمواد التعليم المهني والتقني وثانيتهما حول المشروعات المعجمية الخاصة بمواد التعليم العالي .

٩ ــ قيام المكتب بالاتصال بالمجامع اللغوية بالقاهرة وبغداد ودمشق وعمان والرباط ، والجامعات والمعاهد اللسانية في الاقطار العربية من اجل موافاته بقراراتها الخاصة بمنهجية وضع المصطلح العلمي ، واستنساخ ما يرده منها وتوزيعه على جميع الجهات المعنية ، تمهيدا لعقد ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات باللغة العربية .

١٠ ــ قيام تعاون وثيق بين مكتب تنسيق التعريب ومعهد اللسانيات في الجزائر ومعهد الدراسات والابحاث للتعريب في الرباط مع رجاء ان يتقدم المسؤولون في هذه الهيئات أو المؤسسات بمذكرة لمؤتمر التعريب الرابع لبيان أوجه التعاون والتكامل ووسائل دعمها .

١١ ــ انشاء بنك عربي للمصطلحات في مكتب تنسيق التعريب وضرورة قيام المكتب بالاتصالات مع بنوك المصطلحات المتخصصة العالمية والتعاون

معها في نشر المصطلح العربي والاستفادة من خبرتها في هذا الميدان ودعم المكتب بالتقنيات الحديثة في انجاز أعماله .

وبعد الاطلاع على مشروعات مكتب تنسيق التعريب وجهوده في مجال تنسيق المصطلحات العربية تتوجه اللجنة الاستشارية بالشكر على الثقة التي أوليت لها وتشيد بالجهود المثمرة التي يقوم بها المكتب وترجو من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم زيادة الدعم له حتى يستطيع أن يحقق الاهداف التي انشيء من أجلها .

● * * ●

استقبال زملاء

استقبل مجمع اللغةالعربية الأردني ،في منتصف شهر أيلول الماضي، مجموعة من الزملاء من بلدان عربية شقيقة ، من أعضاء لجنة المعجم الطبي العربي،الذين كانوا يزورون عمان في ندوة خاصة بالمعجم الطبي . وكان من بينهم الدكتور حسني سبح ، رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق ، والدكتور محمود الجليلي ، عضو المجمع العلمي العراقي ، والدكتور مروان المحاسني ، من دمشق ، وغيرهم .

وقد اقام المجمع حفلة شاي تكريما لهم في مقر المجمع الجديد، وكانت الحفلة مجالا لتبادل الأفكار والآراء حول عدد من القضايا التي تهم المجامع العربية ، ولا سيما قضية التعريب ، والمصطلحات العلمية والتكنولوجية الحديثة ، وضرورة اغناء اللغة العربية بها .

اعادة انتخاب الدكتور حسني سبح

رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق

جدد مجمع اللغة العربية الشقيق في دمشق انتخاب الزميل الأستاذ الدكتور حسني سبح رئيسا له لمدة اربع سنوات اخرى .

وقد تم ذلك في الجلسة الثانية عشرة للدورة المجمعية ١٩٧٩/١٩٨٠، وقد انعقدت في١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ ٢٨ حزيران ١٩٨٠ م .

ومجمع اللغة العربية الأردني يبارك للزميل الدكتور حسني سبح ، متمنيا له السعادة والعمر المديد ، والنشاط المستمر في خدمة اللغة العربية العزيزة .

● ★ ★ ●

الاستاذ عبد الكريم زهور

تلقى مجمع اللغة العربية الأردني من شقيقه مجمع اللغة العربية في دمشق ، نبأ انتخاب الأستاذ عبد الكريم زهور عدي عضوا عاملا في مجمع دمشق ، وقد تم استقباله في ٨ رجب ١٤٠٠ هـ . ٢٢ ايار ١٩٨٠ م .

نبارك للزميل الأستاذ عبد الكريم زهور عدي ، متمنين له كل التوفيق في مواصلة الجهد في خدمة الضاد العزيزة .

تابين البطريرك الراحل يعقوب الثالث

وتنصيب البطريرك الجديد اغناطيوس زكا الأول

انتدب المكتب التنفيذي لمجمع اللغة العربية الأردني الأستاذ عيسى الناعوري الامين العام للمجمع ، لحضور حفلة تابين البطريرك الراحل يعقوب الثالث ، بطريرك السريان الأرثوذكس ، وعضو مجمع اللغة العربية في دمشق ، التي أقيمت في دمشق مساء يوم الجمعة ١٩٨٠/٩/٥ ، وكذلك لحضور حفلة تنصيب البطريرك الجديد مار اغناطيوس زكا الأول عيواص، عضو المجمع العلمي العراقي ، والعضو المؤازر في المجمع الأردني ، التي جرت في دمشق صباح يوم الأحد ١٩٨٠/٩/٧ .

وقد نقل الأمين العام تهنئة المجمع الى البطريرك الجديد ، مثلما نقل قبلها تعزية المجمع بالبطريرك الراحل .

كتب العلوم للسنة الجامعية الأولى

كان اقبال الطلبة في بداية هذا العام الدراسي ٨١/٨٠ على شراء الكتب العلمية المترجمة الى اللغة العربية رائعا في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، بفضل تعاون الجامعتين وأعضاء الهيأة التدريسية فيهما مع المجمع ، لاحلال اللغة العربية محل اللغة الانكليزية في تدريس العلوم.

وكانت الكتب التي خرجت من المطبعة وأصبحت معدة للاستعمال هي : الرياضيات (جزآن) ، والبيولوجيا (جزآن) ، والجيولوجيا (جزء واحد) . وتأخر في المطبعة كتابا الفيزياء والكيمياء لظروف قاهرة .

ولقد كان المجمع يأمل ان يشمل مشروعه لتعريب تدريس العلوم الجامعات العربية برمتها ، والأمل كبير في أن يتم هذا في الاعوام التالية .